تسلية أهل المصائب

تأليف الإمام

أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي

[جمع فيه مؤلفه أتم ما ورد في فضل الصبر على المصائب وما وعد الله الصابرين المحتسبين من عظيم الثواب مستمداً ذلك من القرآن العظيم وأحاديث النبيّ الكريم وما ورد عن السلف الصالح من أصحاب رسول الله وتابعيهم وحكايات كثير من الصالحين]

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٥٨٠٤٨١٠ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٥٨٠٤٨١٣ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

ISBN 2-7451-5042-1
9 782745 150424 90000 >

بسم الله الرحمن الرحيم

[خطبة الكتاب]

الحمد لله المُنْفرد بالبقاء والقهر، الواحدِ الأحد الفرد الصمد ذي العزة والستر؛ الذي لا نِدَّ له فيبارَى، ولا معارضَ له فيُمارَى، ولا شريك له فيُدارَى؛ كتب الفناء على أهل هذه الدار، وجعل عقبى الذين اتقوا الجنةَ وعقبى الكافرين النار، قدّر مقادير الخلائق وأقسامها، وبعث أمراضها وأسقامها، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وجعل للذين أحسنوا الدرجات، وللذين أساءوا الدركات، رحمة وعدلاً، أحمده على حلو القضاء ومُرِّه، وأعوذ به من سطواته ومكره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً لم يزل عظيماً علياً، جباراً قهاراً قوياً، جل عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير، وتقدّس عن التعطيل، وتنزه عن التمثيل.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله رحمة للعباد، ونقمة على الكفرة من أهل البلاد، فدعا[1] إلى الجنة، وأرشدهم إلى اتباع السنة، وجعل أعلاهم منزلة أعظمَهم صبراً، فمن استرجع في مصيبته واحتسبها ذخراً، كان له منزلة عالية وقدراً، وكان مقتفياً هدياً ومتبعاً أثراً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته الأخيار، وسلم تسليماً كثيراً مستمراً متصلاً متعاقباً ما تعاقب الليل والنهار.

---

(١) لعله «فدعاهم» كما قال بعدها «وأرشدهم».

أما بعد: فإن الله تعالى جعل الموت محتوماً على جميع العباد، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد، من دار الاعتداد، قضى فأسقم الصحيح، وعافى السقيم وقسم عباده قسمين: طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلى دارين: دار النعيم ودار الجحيم، فلا مفرَّ لأحد من الموت ولا أمان، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ﴾ [1]: فسوّى فيه بين الحُرّ والعبد، والصغير والكبير، والغنيّ والفقير: وكل ذلك بتقدير العليم الخبير ﴿وَما يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِن عُمُرِهِ إلاَّ في كِتابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [2]، فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفَوْت، والمسلم من استسلم للقضاء والقدَر، والمؤمن من تيقَّن بصبره الثواب على المصائب والضرر.

ولما كانت المصائب ـ على اختلاف أنواعها من موت وغيره من نوائب الزمان ـ خَطْب مؤلم موجع، وأمر مَهُول مزعج [3]، وردت الأحاديث والآثار بما لمن أصيب: من المقامات. والمحتسب الصابر عليها ببشارة الجنات، قال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردْنا القيامة مفاليس. وما أحسن ما قال الشاعر:

المرءُ رَهْـنُ مَصـائِـبٍ مـا تَنْقَضي ... حتى يُـوَسَّـد جسمُـه في رَمْسِـهِ
فمـؤَجَّـلٌ يَلْقَـى الرَّدَى في غيره ... ومُعَجَّـلٌ يَلْقَـى الرَّدَى في نَفْسِـهِ

فأحببت أن أجمع كتاباً مُسَلّياً لقلوب المحزونين، ومُفَرِّجاً لكُرَب الملذوعين، وسميته: (كتاب تسلية أهل المصائب). وكان سببُ تأليف هذا الكتاب: أنه وقع طاعون في سنة خمس وسبعين وسبعمائة في رجب، واشتد في آخر شوّال والقعدة والحجة، وخف في المحرم من سنة ست، ومات فيه الألوف من الناس، وخلت بيوت كثيرة، ومات فيه من الصالحين والعباد خلق كثير، وسميته (طاعون الأخيار) لكثرة من مات فيه من أخيار الناس، ولكن كان أكثره في

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١١.

(٣) قوله «خطب... الخ» هكذا بالأصل. والصواب أنها: خطبا... الخ، لأنها خبر كان.

الأطفال، حتى كان جماعة من أصحابنا ممن لهم عدّة من الأولاد، فلم يبق له ولا ولد، وكنت قد جمعت كتاباً في الطاعون وأحكامه في سنة خمس وستين وسبعمائة. وهو كتاب حَسَنٌ، ما نظر فيه أحدٌ إلا استحسنه، وقلّ ما خرج عنه من الأحاديث والآثار والتواريخ، ولكن لم أذكر فيه ما أعدّ الله للمصابين فيه؛ فأفردت هذا الكتاب تسلية لمن أصيب بمصائب الدنيا، وما رأيت ولا سمعت أن أحداً لم يصب فيها بمصيبة، وبوّبت هذا الكتاب ثلاثين باباً، وها أنا أذكرها أولاً، وبالله أستعين وعليه أتكل:

الباب الأول: في المصيبة وحقيقتها، وما أعدّ الله لمسترجعها.

الباب الثاني: في البكاء على المصيبة، وما ذكر العلماء في ذلك.

الباب الثالث: في تحريم الندب والنياحة وشق الثياب.

الباب الرابع: في من أصيب بفقد ثلاثة من الولد فأكثر.

الباب الخامس: في من أصيب بفقد ولدين.

الباب السادس: في من أصيب بفقد ولد واحد.

الباب السابع: في ذكر السقط وثوابه وزيارة القبور.

الباب الثامن: في تطييب خاطر الوالدين على الأولاد.

الباب التاسع: فيمن مات له طفل رضيع أنه يكمل رضاعه في الجنة.

الباب العاشر: في أنه يصلى على كل مولود ويدعى لوالديه.

الباب الحادي عشر: في استحباب اصطناع الطعام لأهل المصيبة.

الباب الثاني عشر: في كراهة الذبح عند القبور، وصنع الطعام من أهل الميت.

الباب الثالث عشر: في الثناء الحسن على الميت وذكر محاسنه والسكوت عن مساويه.

الباب الرابع عشر: في فرح العبد وتسليته، لكونه من أمة محمد ﷺ.

الباب الخامس عشر: في استحباب التعزية لأهل المصيبة والدعاء لميتهم.

الباب السادس عشر: في وجوب الصبر على المصيبة.

الباب السابع عشر: فيما ورد في الصبر على المصيبة.

الباب الثامن عشر: في أن الشخص لا يستغني عن الصبر لا في المصيبة ولا في غيرها.

الباب التاسع عشر: في أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس.

الباب العشرون: في الرضا بالمصيبة.

الباب الحادي والعشرون: فيما يقدح في الصبر والرضا وينافيهما.

الباب الثاني والعشرون: هل المصائب مكفرات أو مثيبات؟

الباب الثالث والعشرون: في الصبر عن المصاب به، وأفعال البرّ عنه.

الباب الرابع والعشرون: في ذكر عمارة القبور.

الباب الخامس والعشرون: في أن الله يثبت الذين آمنوا عند المساءلة.

الباب السادس والعشرون: في اجتماع الأرواح وهيآتها، وأين محلها.

الباب السابع والعشرون: في عدد الشهداء وفضلهم وأنهم أرفع درجات من الصالحين.

الباب الثامن والعشرون: في ذكر الصراط، ودرجات الناس في المرور عليه.

الباب التاسع والعشرون: في ذكر التوحيد وسعة رحمة الله.

الباب الثلاثون: في فضل الزهد في الدنيا والتسلية عنها والرغبة في الآخرة.

فهذه نهاية الأبواب، الآتي بعدها حسن الخطاب، وهي بضاعة أخيك المزجاة وسلعته المرماة، تعرض عليك، وتساق منه إليك، فلقارئه غُنْمه، ولأخيك غرمُه.

وما أذكره من الترغيب والترهيب من الكتاب والسنة والآثار والتفسير وغير ذلك، بإسناد وغير إسناد غالباً خشية التطويل، ولكنه يعزى إلى رواته من حفاظ الإسلام. مشيراً إلى التصحيح والتضعيف في بعض ما أمكن من الأحاديث، وكان الاجتهاد في ذلك: أني رأيت يا أخي أنك إذا مت سلاك أحبابك، وهجرك أصحابك، وأعرض عنك من أنفقت عمرك في محبته،

وأتعبت نفسك وبدنك في ملاطفته فهذا لا يخفى عليك ولا على من له أدنى فطنة؛ فإنك إذا أردت أن تعرف صدق هذه المقالة بوجه صحيح، وكلام فصيح، فاذكر فعلك فيمن كان يحبك من أب وأم، وأخ وصديق، ألست قد سلِيتهم وتبدَّلْتَ سواهم، فكذا أنت بعد موتك؛ فأردت جمع هذا الكتاب ليكون سبباً لسلوّ الشخص عن الدنيا، ومرغباً له في الأخرى، فهو ـ بحمد الله ـ فيه من الفوائد التي لا يظفر بها في كتاب سواه؛ فما كان فيه من صواب فمن الله ورسوله، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، والله سبحانه المسؤول أن يوفقني لإتمامه، بفضله وامتنانه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه وسامعه، إنه سميع قريب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول

في المصيبة وحقيقتها وما أعدّ الله لمسترجعها

قال الله تعالى: ﴿الَّذينَ إذا أَصابَتهُم مُصيبَةٌ قالوا إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجِعونَ. أُولَئِكَ عليهِم صَلَواتٌ من رَبِّهِم ورَحمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدونَ﴾ (١)، قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: نعم العِدلان ونعمت العلاوة ﴿أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ﴾ (٢) الآية ذكره البخاري تعليقاً.

وقال تعالى: ﴿ما أصابَ مِن مُصيبةٍ إلاَّ بإذنِ اللهِ ومَنْ يؤمِن باللهِ يَهْدِ قَلبَهُ﴾ (٣). قال علقمة وجماعة من المفسرين: هي المصائب تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم، والآيات في هذا الباب كثيرة.

قال أهل اللغة: يقال مصيبة ومصابة ومصوبة. قالوا: وحقيقته الأمر المكروه يحلّ بالإنسان. وقال القرطبي: المصيبة كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه. يقال أصابه إصابة ومصابة وصابة، والمصيبة واحدة المصائب. والمصبوبة بضم الصاد مثل المصيبة. وأجمعت العرب على همز المصائب، وأصله الواو وكأنهم شبهوا الأصل بالزائد، ويجمع على مصاوب، وهو الأصل، وعلى مصائب، والمصاب: الإصابة قال الشاعر:

أسُلَيمُ إن مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيةً ظلم

وصاب السهم القرطاس يصيبه صيباً لغة في أصابه، والمصيبة: النكبة ينكبها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١١.

الإنسان وإن صغرت، وتستعمل في الشر، وروى عكرمة مرسلاً: إن مصباح النبي ﷺ انطفأ ذات ليلة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: نعم! كل ما آذى فهو مصيبة.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمنَ من وَصَب ولا نصب ولا سقَم ولا حزن حتى الهمّ يهمه إلاّ كفر الله به من سيئاته». والوصب والنصب: التعب.

وفي الصحيحين عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلاّ كفّر الله عز وجل بها عنه، حتى الشوكة يُشاكها».

وقال الإمام أحمد: ثنا يونس ثنا ليث ـ يعني ابن سعد ـ عن يزيد بن عبد الله عن عمرو بن أبي عمرو عن المطّلب عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به. قال: «لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهمَّ أْجُرْني في مصيبتي واخلُف لي خيراً منها، إلا فَعل ذلك به». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت في مصيبتي وقلت: اللهمَّ أْجُرْني في مصيبتي واخلف لي خيراً منه، وفي لفظ: خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي وقلت: من أين خيرٌ لي من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أديغ إهاباً لي، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة من أدَم حَشْوها لِيف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله: ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة فيّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال. فقال: «أما ما ذكرتِ من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك، وأما ما ذكرتِ من السنّ فقد أصابني مثل ما أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي» قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ،

فتزوجها رسول الله، فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله ﷺ. وقد روي هذا الحديث بعدة طرق في الصحاح والمسانيد، وسيأتي فيما بعد إن شاء الله.

فصل

وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب «إنا لله وإنا إليه راجعـون» ملجأ وملاذاً لذوي المصائب، وعصمة للممتحَنين، من الشيطان، لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، فيهيج ما سكن، ويظهر ما كمن، فإذا لجأ إلى هذه الكلمات الجامعات لمعاني الخير والبركة، فإن قوله «إنا لله» توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله «وإنا إليه راجعون» إقرار بأن الله يهلكنا ثم يبعثنا فهو إيمان بالبعث بعد الموت، وهو إيمان أيضاً بأن له الحكم في الأولى، وله المرجع في الأخرى، فهو من اليقين، إن الأمر كله لله فلا ملجأ منه إلا إليه.

وروي مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها... الحديث».

وروى مسلم أيضاً عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات. قال: «قولي اللهم اغفر لي وله وأعقبني منه عقبى حسنة».. فقلت، فأعقبني الله من هو خيرٌ لي منه محمداً ﷺ. هكذا روي بالشك: ـ إذا حضرتم المريض أو الميت ـ هذا لفظ مسلم.

وقد تقدم معنا هذه الحديث من طريق أخرى عن ابن سَفينة مـولى أم سلمة عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة

فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهمَّ أْجُرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها». قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ؟ قالت: ثم عزم لي فقلتها فتزوجت رسول الله ﷺ، وروى مسلم نحوه من حديث سعد بن سعيد الأنصاري، أخي يحيى بن سعيد عن عمر بن كثير عن ابن سَفينة فذكر نحوه.

والمقصود: أن هذا تنبيه على قوله تعالى: ﴿وبَشِّرِ الصَّابرين﴾ [1] إما بالخلَف كما أخلف الله تعالى لأمّ سلمة بدل زوجها أبي سلمة رسول الله ﷺ حين تبعت السنّة وقالت ما أمرت به ممتثلة طائعة، إن البرّ - له - والخير فيما قاله الله ورسوله، وإن الضلال والشقاء في مخالفة الله ورسوله، فلما علمت رضي الله عنها أن كل خير في الوجود إما عام وإما خاص فهو من جهة الله ورسوله، وأن كل شر في العالم أو كل شر مختص بالعبد فسببه مخالفة الله ورسوله، فلما قالت هذه الكلمات حصل لها مرافقة الرسول في الدنيا والآخرة.

وقد يحصل العبد بكلمات الاسترجاع منزلة عالية وثواباً جزيلاً كما في حديث أبي موسى وسيأتي ذكره وفيه: فيقول الله تعالى لملائكته ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمَدك واسترجع، فيقول الله تبارك: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد. وقد تقدم الاسترجاع في المصيبة وأن قائله، عليه الصلوات من ربه والرحمة، وهو من المهتدين. وقول عمر: نعم العدلان ونعمت العُلاوة وأنه أراد بالعدلين الصلوات، والرحمة، وبالعلاوة الهداية والله أعلم. وقيل المراد استحقاق الثواب، وتسهيل المصاب، وتخفيف الحزن، أولئك عليهم صلوات من ربهم، فالصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدمي التضرع والدعاء. وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، وظاهر الآية - والله أعلم - أن الصلاة من الله غير الرحمة، فإنه تعالى عطف الرحمة على الصلاة، فعلم التغاير.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

فصل

في تسلية أهل المصائب بالعلاج: الإلهي والنبوي

فالإلهي قوله تعالى: ﴿وبَشِّرِ الصَّابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [1] وآيات الصبر كثيرة جداً.

والنبوي قوله ﷺ: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله به إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أْجُرني في مصيبتي وأخلِف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف الله له خيراً منها» [2] وقد تقدم، وأمثال ذلك من الأحاديث. وقد تضمنت [3] هذه الكلمة ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ علاجاً من الله ورسوله لأهل المصائب. فإنها من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد في عاجله وآجله، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما وتسلّى عن مصيبته ـ أحد الأصلين ـ أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده مِلك لله عز وجل حقيقةً، وقد جعله الله عنه العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير، وأيضاً: فإنه محفوف بعدمين، عدمٍ قبله وعدمٍ بعده، وملك العبد له متعة مُعارة في زمن يسير، وأيضاً: فإنه ليس هو الذي أوجده عن عدم، حتى يكون ملكه حقيقةً، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقى عليه وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي. وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر، تصرف العبد المأمور المنهى، لا تصرف الملاّك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي. والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فرداً، كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن يأتيه بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوّله فيه، ونهايته وحاله فيه،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

(٢) أخرجه مسلم وابن ماجه عن أم سلمة، وأحمد عن أبي سلمة وأم سلمة.

(٣) في الأصل «اتفقت» وما ذكرناه هو الذي يقتضيه السياق.

فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا، أم كيف يأسى على مفقود، ففكرة العبد في بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿ما أصابَ مِن مصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنْفُسِكُمْ إلاَّ في كتابٍ من قبلِ أن نَبرَأَهَا إنَّ ذلك على اللهِ يسيرٌ. لكيلا تَأسوا على ما فاتكُم ولا تفرَحوا بما آتاكم والله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾ [1] ومن تأمل هذه الآية الكريمة وجد فيها شفاءَ أدواءِ المصائب، وكل ما ذكرناه في هذا الفصل، فهو في هذه الآية، فتدبر ذلك.

فصل

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر المصاب في كتاب الله وسنة رسول الله فيجد أن الله تعالى أعطى لمن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن أنفع الأمور [2] للمصاب: أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل قرية ومدينة بل في كل بيت مَن أصيب، فمنهم من أصيب مرّة، ومنهم من أصيب مراراً، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت، حتى نفسِ المصاب، فيصاب، أسوة أمثاله ممن تقدّمه، فإنه إن نظر يَـمنة فلا يرى إلا محنة، وإن نظر يَسرة فلا يرى إلا حسرة.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي بإسناده عن عبد الله بن زياد قال: حدثني بعض من قرأ في الكتب: أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها وبلغ أرض بابل مرض مرضاً شديداً، فلما أشفق أن يموت كتب إلى أمه: يا أمّاه: اصنعي طعاماً واجمعي من قدرت عليه، ولا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة، واعلمي هل وجدت لشيء قراراً باقياً، وخيالاً دائماً! إني قد علمت يقيناً أن

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٢) في الأصل «أنفع ما للمصاب».

الذي أذهب إليه خير من مكاني. قال: فلما وصل كتابه صنعت طعاماً، وجمعت الناس، وقالت: لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة، فلم يأكلوا، فعلمت ما أراد، فقالت: من يبلغك عني أنك وعظتني فاتعظتُ، وعزيتني فتعزيت، فعليك السلام حياً وميتاً. فإذا علم المصاب أنه لو فتش العالَم لم ير فيهم إلا مبتلي، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، فسرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضْحَكَتْ قليلاً أبْكَت كثيراً، وإن سَرَّت يوماً ساءت دهراً، وإن متّعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حَبْرة إلا ملأتها عَبْرة، وما حصلت للشخص في يوم سروراً، إلا خبأت له في يوم شروراً.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لكل فرحة ترحة، وما مُلِيء بيت فَرَحاً إلا مُلِيء تَرَحاً.

وقال ابن سيرين: ما كان ضحكٌ قط إلا كان بعده بكاء. فليعلم العبد: أن فوات الصبر والتسليم هو الصلاة والرحمة والهداية في قوله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [1]. وقد تقدم ذلك، فما ضمنه الله على الصبر والاسترجاع، أعظم من المصيبة في الحقيقة، والله أعلم.

فصل

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر العبد بعين بصيرته فليعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة في الآخرة، يقلبها الله تعالى، وحلاوة الدنيا هي بعينها مرارة في الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة، خير من عكس ذلك، فإن خفي عليك ذلك فانظر إلى قول الصادق المصدوق وهو قوله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» [2] وكذلك قوله في الصحيح:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي وأحمد عن أنس.

« يؤتى يوم القيامة بأنْعَم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صِبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبَغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب » الحديث. وهذا المقام تتفاوت فيه عقول الناس، وتظهر حقائق الرجال، فأكثر أهل زماننا يؤثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذلّ ساعة لعزّ الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيْب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إيثار العاجلة ورفض الآخرة، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر أكثر أهل زماننا في أوائل أمورهم ومبادئها، وماذاك إلا لحبهم هذه الحياة الدنيا. قال وهب بن منبه: **كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: بحقّ أقول لكم، إن أشدكم حباً للدنيا أشدكم جزعاً على المصيبة.** وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ومحاورة العواقب والغايات فله شأن آخر، فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية والفوز الأكبر، وما أعد الله لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والخسران والعذاب الدائم، ثم اختر أي القسمين أليق بك، وكلٌ يعمل على شاكلته، وكل أحد يذهب إلى ما يناسبه، وما هو الأولى به، وهذا نصح أخيك فيما يحسن بك ويسليك.

فصل

ومن تسلية أهل المصائب: أن يستعينوا بالله ويتكلوا عليه، ويتعزوا بعزاء الله تعالى، ويمتثلوا أمره في الاستعانة بالصبر والصلاة، ويعلموا أن الله مع الصابرين، ويطلبوا استنجاز ما وعد الله به عباده على الصبر.

وفي حديث أنس بن مالك قال: ألا أحدثكم بحديث لا يحدثكم به أحد غيري؟ كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً فضحك فقال تدرون مما ضحكت؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «عجبت للمؤمن أن الله عز وجل لا يقضي له قضاء إلا كان خيراً له».

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده قال: قال إبراهيم بن داود: قال بعض الحكماء: إن لله عباداً يستقبلون المصائب بالبشْر: قال: فقال: أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم، ثم قال: قال وهب بن منبه: وجدت في زبور داود: يقول الله تعالى: «يا داود هل تدري من أسرع الناس ممراً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري» فالمؤمن الموفق ـ نسأل الله تعالى حسن التوفيق ـ من يتلقى المصيبة بالقبول، ويعلم أنها من عند الله لا من عند أحد من مخلقه، ويجتهد في كتمانها ما أمكن، قال عبد العزيز بن أبي روّاد: ثلاثة من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان المرض، وكتمان الصدقة.

وقال بعض السلف: ثلاثة يمتحن بها عقول الرجال: كثرة المال، والمصيبة، والولاية.

وقال عبد الله بن محمد الهروي: من جواهر البرّ كتمان المصيبة حتى يُظن أنك لم تُصَب قط.

وقال عون بن عبد الله: الخير الذي لا شرّ معه: الشكر مع العافية والصبر مع المصيبة.

فصل

ومن أعظم المصائب: المصيبة في الدين، فهي من أعظم مصائب الدنيا والآخرة وهي نهاية الخسران الذي لا ربح معه، والحرمان الذي لا طمع معه، وقد حكى ابن أبي الدنيا عن شريح أنه قال: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات وأشكره، إذ لم تكن أعظم مما هي. وإذ رزقني الصبر عليها، وإذ وفقني الاسترجاع، لما أرجوه فيه من الثواب، وإذ لم يجعلها في ديني.

ومن أعظم المصائب في الدين: موت النبي ﷺ، لأن المصيبة به أعظم من

كل مصيبة يصاب بها المسلم، لأن بموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة، وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر والفساد، بارتداد العرب عن الدين، فهو أول انقطاع عُرى الدين ونقصانه، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد، وغير ذلك من الأمور التي لا أحصيها، وقال أنس بن مالك رضي الله عنهما: ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا. رواه ابن ماجه.

وإذا أردت أن تعلم أن المصيبة به ﷺ أعظم من كل مصيبة حدثت في الدين؛ فانظر إلى ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس أيما أحدٍ من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي» وهذا من رواية موسى بن عبيد، وقد ضعفه غير واحد من الأئمة، لكن روى أبو عمر بن عبد البر بإسناده من حديث عطاء بن أبي رباح مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بي فإنها من أعظم المصائب» ورواه الحافظ أبو نعيم من هذه الطريق أيضاً ومن طريق أخرى عن مكحول مرسلاً نحوه.

ولقد أحسن أبو العتاهية في نظمه موافقاً لهذا الحديث حيث يقول:

اصبر لكلِّ مصيبةٍ وتجلَّدِ ... واعلم بأن المرء غيرَ مُخَلَّدِ
أو ما ترى أن المصائب جَمَّةٌ ... وترى المنية للعباد بمَرْصَدِ
من لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست عنه بأوحدِ
فإذا ذكرت محمداً ومُصابه ... فاجعل مصابك بالنبيِّ محمدِ

وفي رواية:

وإذا ذكرت مصيبة تَسْلُو بها ... فاذكر مصابك بالنبيِّ محمدِ

وإذا أردت أن تعلم تغير الأحوال بموت النبي ﷺ فاذكر قوله تعالى: ﴿وما

محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم... ﴾ الآية[1] « أفإن مات » شرط « أو قتل » عطف عليه، والجواب « انقلبتم » ودخل ألف الاستفهام على حرف الجرّ لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة، وخبراً واحداً، والمعنى: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل، يقال لمن عاد إلى ما كان عليه: انقلب على عقبيه، وقيل المعنى فعلتم فعل المرتدين، ومنه انقلب على عقبيه، وقول أنس وقد تقدم.

وروى ابن ماجه من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: كان الناس على عهد رسول الله ﷺ إذا قام المصلي لم يَعْد بصرُ أحدهم موضعَ قدميه، فتوُفِّي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يَعْد بَصَرُ أحدهم موضع القبلة، فتوفي أبو بكر وكان عمر رضي الله عنه، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلّي لم يَعْد بصرُ أحدهم موضع القبلة، فكان عثمان رضي الله عنه، فكانت الفتنة، فتلفتت الناس في الصلاة يميناً وشمالاً. وإسناده مقارب.

والمقصود أن المصائب تتفاوت، فأعظمها المصيبة في الدين ـ نعوذ بالله من ذلك ـ هي أعظم من كل مصيبة يصاب بها الإنسان، يؤيد ذلك أنه قد جاء في بعض الآثار أن النبي ﷺ قال: « المسلوب من سلب دينه، والمحروم من حرم الأجر » ثم بعد مصيبة الدين المصيبة في النفس، ثم في المال؛ فأما المال فيخلفه الله تعالى وهو فداء الأنفس، والنفس فداء الدين، والدين لا فداء له. قال تعالى: ﴿ما أصابَ من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفُسكم إلا في كتابٍ من قبل أن نَّبْرَأها إن ذلك على الله يسيرٌ﴾[2].

فصل

ومن أعظم البشارات لمن أصيب بمصيبة فذكرها بعد مدة طويلة، فجدّد لها

(١) سورة آل عمر، الآية: ١٤٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

استرجاعاً وصبراً، ما له عند الله من الأجر كلما ذكرها واسترجع.

قال الإمام أحمد في مسنده: ثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبي هشام ثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ـ قال عباد: قدم عهدها ـ فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدّد الله له عنه ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها».

ورواه ابن ماجه من حديث فاطمة بنت الحسين أيضاً ولفظه: إن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب» لكن في إسناده مقال.

قال سعيد بن جبير: ما أعطى أحد في المصيبة ما أعطى هذه الأمة ـ يعني إنا لله وإنا إليه راجعون ـ ولو أعطى أحد لأعطى نبي الله يعقوب عليه السلام ألم تسمع إلى قوله في فقد يوسف: ﴿يا أسَفاً على يوسُف﴾ [1] أولئك أصحاب هذه الصفة، عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

فصل

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر المصاب ويفرق بين أعظم اللذتين والتمتعين تمتع الحياة الدنيا الفانية، وتمتع الدار الآخرة الباقية، وأدومها لذة وتمتعاً لما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له على قوله وفعله من استرجاع وصبر ونحوه؛ فإن ظهر له الرجحان فآثر الراجح فليحمد الله على توفيقه له. وإن آثر المرجوح من كل وجه فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه، أعظمُ من مصيبته التي أصيب بها في دنياه. وأيُّ نسبة بين تمتعه بمحبوبه في هذه الدار التي قال الله تعالى في حقها من أولها إلى آخرها: ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنيا قليلٌ﴾ [2] وأي شيء حصل له من القليل؟ فمن آثر جزءاً قليلاً من قليل ينفد، على جزء كثير من

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٧.

كثير لا ينفد، فقد اغتيل عقلُه.

قال بعض الحكماء: يحسب الجاهل الشيء الذي هو لا شيء شيئاً، والشيء الذي هو الشيء لا شيء، ومن لا يترك الشيء الذي هو لا شيء، لا ينال الشيء الذي هو الشيء، ومن لا يعرف الشيء الذي هو الشيء، لا يترك الشيء الذي هو لا شيء يريد الدنيا والآخرة. ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا.

فصل

ومما يسلي المصاب: أن يوطِّن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هي من عند الله وأنها بقضائه وقدره، وأنه سبحانه وتعالى لم يقدرها عليه ليهلكه بها، ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه، وشكواه إليه وابتهاله ودعاه، فإن وفق لذلك كان أمر الله قدراً مقدوراً، وإن حرم ذلك كان ذلك خسراناً مبيناً.

قال أبو الفرج بن الجوزي: علاج المصائب بسبعة أشياء:

الأول: أن يعلم بأن الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يرجى منه راحة. قال الشاعر:

وما استغربت عيني فراقاً رأيتُه ... ولا علّمتني غير ما القلب عالمه

الثاني: أن يعلم أن المصيبة ثابتة.

الثالث: أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة.

الرابع: النظر في حال من ابتلى بمثل هذا البلاء، فإنّ التأسي راحة عظيمة، قالت الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مِثْلَ أخي ولكن ... أعزّي النفس عنه بالتأسّي

وهذا المعنى قد حرمه الله عز وجل أهل النار، فإن المخلدين فيها كل واحد

محبوس وحده، فهو يظن أنه لم يبق في النار سواه.

الخامس: النظر في حال من ابتلى أكثر من هذا البلاء فيهون عليه هذا.

السادس: رجاء الخلف إن كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد والزوجة. قيل للقمان عليه السلام: ماتت زوجتك؟ قال: تجدّد فراشي. قال الشاعر:

هل وَصْلُ عـزة إلا وَصْـلُ غـانيـة في وصل غانية مـن وصلهـا خَلَـف

السابع: طلب الأجر بالصبر في فضائله وثواب الصـابـريـن وسرورهـم في صبرهم، فإن ترقى إلى مقام الرضاء فهو الغاية. انتهى كلامه. وقد تقدم معنى ذلك.

وما يلحق بعلاج هذه السبعة أشياء وأمور أخر:

الثامن: أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خيرٌ له.

التاسع: أن تعلم أن تشديد البلاء يخص الأخيار.

العاشر: أن يعلم أنه مملوك وليس للمملوك في نفسه شيء.

الحادي عشر: أن هذا الواقع وقع برضى المالك فيجب على العبد أن يرضى بما رضي به السيد.

الثاني عشر: معاتبة النفس عند الجزع: أن هذا الأمر لا بد منه، فما وجه الجزع مما لا بد منه.

الثالث عشر: إنما هي ساعة فكأن لم تكن، وهذه المعاني قد تقدم ما يشبهها ويناسبها، ويأتي ما هو أتمّ من ذلك وبالله التوفيق.

فصل

ينبغي للعبد أن لا ينكر في هذه الدنيا وقوع هذه المصائب على اختلاف أنواعها، وما استخبر العقل والنقل لُخبراه بأن الدنيا مارستان المصائب، وليس

فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، فكلٌّ ما يظنّ في الدنيا أنه شراب فهو سراب وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب، ومن خاض الماء الغمر لم يخل من بلل، ومن دخل بين الصفين لم يخل من وجل، فالعجب كل العجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع! وأعجب منه مَن يطلب مِن المطبوع على الضرِّ النفعَ. قال بعض الأدباء:

طُبِعَتْ على كدرٍ وأنت تريدها ... صفواً من الأقذاء والأكدار

قال أبو الفرج بن الجوزي: ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلاثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى ابن مريم لا مأوى له إلا البراري في العيش الضنك. ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين يصابر الفقر وقتل عمه حمزة وهو من أحب أقاربه إليه، ونفور قومه عنه، وغير هؤلاء من الأنبياء والأولياء مما يطول ذكره، ولو خُلقت الدنيا للذة لم يكن حظ المؤمن منها. وقد قال النبي ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1] فإذا بان بأنها دار ابتلاء وسجن ومحن، فلا ينبغي إنكار وقوع المصائب فيها.

فصل

ذكر أبو الفرج بن الجوزي في المصائب المختصة بذات الإنسان. قال: رأيت جمهور الناس إذا طرقهم المرض أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع والشكوى، وتارة بالتداوي، وإلى أن يشتد عليهم، فيشغلهم اشتداده عن الالتفات إلى المصالح من وصية، أو فعل خير، أو تأهب للموت، فكم ممن له ذنوب لا يتوب منها، أو عنده ودائع لا يردّها، أو عليه دَيْن أو زكاة، أو في

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه الطبراني والحاكم عن سلمان، والبزار عن ابن عمر.

ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها، وإنما حزنه على فارق الدنيا، إذ لا همّ له سواها، وربما أفاق وأوصى بجور. انتهى كلامه.

وسبب ذلك ضعف الإيمان كما قال تعالى: ﴿فأعْرِضْ عمَّن تولَّى عن ذِكرِنا ولم يُرِد إلاَّ الحياةَ الدُّنيا ذلكَ مَبلَغُهُم منَ العِلمِ﴾[1] وأحدهم لا همّ له إلا الدنيا، ولا يتأسف إلا عليها، والعين المتطلعة إلى الآخرة ضعيفة جداً، وقد عمّ هذا أكثرَ الخلق في زماننا، نعوذ بالله من الخذلان، فينبغي للمتيقظ أن لا يتأسف على ما فات، وأن يتأهب في حال صحته قبل هجوم المرض، فربما ضاق الوقت عن عمل. واستدراك فارط، أو وصية فإن لم تكن له وصية في صحته فليبادر في مرضه، وليحذر الجَوْر في وصيته، فإنه من المحرمات فإنه يمنع المستحق ويعطي من لا يستحق، فيحتاج أن يحارب نفسه وشيطانه، فقد روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهمَّ إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطانُ عند الموت» ويعلم أنه مملوك لله وليس له في نفسه شيء. قال الشاعر:

صرتُ لهمْ عبداً وما ... للعبدِ أن يَعْترضا

ويعلم أيضاً أن هذا الواقع من المصائب في نفسه وماله وولده، وقع برضى مالكه وخالقه، فيجب على العبد أن يرضى بما يرضى به السيد، ويعاتب نفسه إذا جزعت، ويقول لها: أما علمت أن هذا لا بدّ منه، فما وجه الجزع، وإنما هي ساعة كأن لم يكن ما كان، ومن تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء، والله تعالى الموفق.

قال بعض السلف: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحدّ، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وُضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السُّقم، والكبير إلا الهَرَم، والموجود سوى العَدَم. قال الشاعر:

على ذا مضى الناس: اجتماعٌ، وفُرقةٌ ... ومَيْت، ومولودٌ، وبِشْرٌ وأحزانُ

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٩.

ثم قال: ولعمري أن أصل الانزعاج لا ينكر؛ إذ الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا، وإنما ينكر الإفراط فيه والتكليف، كمن يخرق ثيابه ويَلطُم وجهه ويعترض على القَدَر؛ فإن هذا لا يَرُدّ فائتاً، لكنه يدلّ على خور الجازع، ويوجب العقوبة والسلام.

فصل

وليعلم أهل المصائب أنه لولا مِحَنُ الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً؛ فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حِمْية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يَرْحم ببلائه، ويَبْتلي بنَعمائه. كما قيل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي اللهُ بعضَ القوم بالنِّعم

فلولا أنه سبحانه وتعالى يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء، لطغَوا وبغَوا وعتَوا وتجبروا في الأرض، وعاثُوا فيها بالفساد، فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمرٌ ونَهْي، وصحة وفراغ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها: تمرّدتْ وسَعَت في الأرض فساداً مع علمهم بما فُعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال! ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدواء المهلكة، حتى اذا هذبه ونقّاه وصفّاه، أهّله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، ورقّاه أرفع ثواب الآخرة وهي رؤيته.

فصل

قد يحصل للعابد الجاهل بمصيبته من الجزع ما يسوء الناظر إليه، والسامع عنه، من الإعتراض على الأقدار، وما ذاك إلا لإدلاله بعبادته، فإنه قد شوهد أن خلقاً كثيراً من أهل الدين والخير عند موت أحبابهم جرى منهم أمور ينكرها العقّال من الناس، فمنهم من خرق ثيابه، ومنهم من لطم خده، ومنهم من

اعترض على القضاء والقدر.

قال ابن الجوزي: رأيت رجلاً كبيراً أعرفه قد قارب الثمانين، وهو من أهل الدين المحافظين على الجماعة، فمات ولدٌ لابنته، فقال: ما ينبغي لأحد أن يدعو فإنه ما يستجيب له، ثم قال: إن عاندنا فما يترك لنا ولداً، فعلمت أن صلاته وفعله للخير عادة، لا أنه ينشأ عن معرفة إيمان، وهؤلاء الذين يعبدون الله على حرف.

ثم قال ابن الجوزي: وحدثني خالي لعمي محمد بن عثمان قال: كنت مشداً بقربة التلّ، فسمعت عن شيخ قد جاوز الثمانين ولا يصلي، وقد كان قبل ذلك كثير الصلاة مع الجماعة وفعل الخير، ثم ترك ذلك، فدعوته وقلت: يا شيخ لم لا تصلي؟ فقال: وكيف أصلي وكان لي أولاد فماتوا، وكان لي غنم فَفَنُوا، فأنا ما بقيت أصلّي له ولا ركعة. فضربته وطفت به البلد، فكان بعد ذلك يواظب على الجامع، انتهى ما ذكره؛ فلا شيء أنفع من العلم، لأن العالم لو حصل له هلع شديد في مصيبته يعلم أنها زلة منه، فيدري كيف يتنفس، والعابد الجاهل كلما غاص إلى أسفل يظن أنه صعداً إلى فوق، فإذا امتحن الشخص ينبغي له أن يتداوى بالأدوية الشرعية، فإنه يقال: عند الامتحان يكرم الشخص أو يهان، أما علم أنه لا بدّ من الفُرقة؟ وقد روى داود عن الحسن بن جعفر عن أبي الزبير عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما عشت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»[1] فنعوذ بالله من عدم الصبر عند المحنة، ونسأله الثبات في الأمر؛ فإنه والعياذ بالله يخاف على الشخص من سوء الخاتمة إذا سخط الأقدار، ونازع القضاء والقدر أهله؛ فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

---

(١) رواه الطيالسي. ورواه في المواهب عن جابر.

فصل

ينبغي للمصاب بنفسه، أو بولده، أو بغيرهما، أن يجعل في المرض مكان الأنين ذكرهُ الله تعالى، والاستغفارَ والتعبد؛ فإن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يكرهون الشكوى إلى الخلق، وهي وإن كان فيها راحة إلا أنها تدل على ضعف وخَوَر، والصبر عنها دليل قوة وعِزّ، وهي إشاعة سرّ الله تعالى عند العبد، وهي تؤثر شماتة الأعداء ورحمة الأصدقاء. قال الشاعر:

لا تشكُوَنّ إلى صديقٍ حالةً تأتيك في السّرّاء والضّرّاء
فَلِرَحْمَةِ المتوجّعين مرارةٌ في القلب مثلُ شماتة الأعداء

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده إلى إسماعيل بن عمرو قال: دخلنا على ورقاء ابن عمر وهو في الموت، فجعل يهلّل ويكبر ويذكر الله عز وجل، وجعل الناس يدخلون عليه ويسلّمون عليه فيردّ عليهم السلام، فلما كثروا عليه أقبل على ابنه فقال: يا بنيَّ اكفني ردَّ السلام على هؤلاء لا يشغلوني عن ذكر ربي عز وجل.

وعن أبي محمد الحريرّي قال: حضرتُ عند الجنيد قبل وفاته بساعتين فلم يزل تالياً وساجداً، فقلت له: يا أبا القاسم قد بلغ بك ما أرى من الجهد! فقال: يا أبا محمد، أحْوَجُ ما كنتُ إليه هذه الساعة؛ فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا.

وقد روي في حديث أن إبليس لا يكون في حال أشدّ منه على ابن آدم عند الموت، يقول لأعوانه: دونكموه فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

واعلم رحمك الله أن الأعمال بخواتيمها، فإنه ربما أضله في اعتقاده، وربما حيل بينه وبين التوبة، وغير ذلك مما هو محتاج إليه، وربما وقع منه الاعتراض على القضاء والقدَر؛ فينبغي للمصاب بنفسه أو بغيره أن يعلم أو يعلم لغيره أنها صبرُ ساعة، فيتجلّد ويحارب العدو جهد طاقته، فبصدقه تحصل له عليه الإعانة من الله، ويعلم أيضاً أن التشديد عليه أو على غيره في النزع هو في الغالب من كرامة العبد على الله عز وجل، فإن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل

فالأمثل، وقوله ﷺ: «ما أشد مرارة الموت» وقول أبي عبيدة: اخنق خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك.

وقد روى الإمام أحمد عن الوليد بن مسلم الأوزاعي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: ما أحب أن يهوّن على سكرات الموت أنه آخر ما يكفر عن المرء المسلم.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني معمر حدثني شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يستحبون للمريض أن يجهد عند الموت. وبإسناده عن ابن عباس قال: آخرُ شِدَّة يلقاها المؤمن عند الموت.

كانت عائشة رضي الله عنها تقول: مات فلانٌ ولم يعالِج. قال الحافظ ابن ناصر: يعني أنه لم يعالج أنه لم يحصل له في مرضه وعند موته ما يكون كفارة لذنوبه.

وعن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في النزع. فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرضى أو أمنه مما يخاف» فمن خاف الله وحفظه في صحته حفظه في مرضه، ومن راقب اللهفي خطرٍ حَرَسه الله في حركاته وسكناته.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة».

وكما في قصة يونس عليه السلام لما تقدم له عمل صالح قال: ﴿فَلَوْلا أَنَّه كان مِنَ المسَبِّحينَ لَلَبِثَ في بَطنِهِ إلى يومِ يُبْعَثونَ﴾[1] ولما لم يكن لفرعون عمل خير قط لم يجد وقت الشدة متعلقاً فقيل له: ﴿آلآنَ وقد عَصَيْتَ قَبلُ وكنتَ مِنَ الـمُفْسِدِينَ﴾[2] فمن ضيَّع الله في صحته فإنه يضيع في مرضه، والله أعلم.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩١.

فصل

وليعلم المصاب أن الجزع لا يردّ المصيبة بل يضاعفها، وهو في الحقيقة يزيد في مصيبته، بل يعلم المصاب أن الجزع يُشْمِتُ عدوَّه، ويَسوءُ صديقَه، ويُغضب ربَّه، ويَسُرُّ شيطانه، ويُحبِط أجره، ويُضعِف نفسه، وإذا صبر واحتسب أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزّاهم هو قبل أن يُعَزُّوه؛ فهذا هو الثبات في الأمر الديني، قال النبي ﷺ: «اللهم إنا نسألُك الثبات في الأمر»[1]. فهذا هو الكمال، الأعظم لا لطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والتسخط على المقدور.

قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلوّ البهائم، يريد بذلك ما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إنما الصبرُ عند الصَّدْمة الأولى»[2] وقال الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً وإلا سلوت كما تسلو البهائم. بل يعلم المصاب أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لوبقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه على مصيبته؛ فلينظر أي المصيبتين أعظم، مصيبته العاجلة بفوات محبوبه، أو مصيبته بفوات بيت الحمد في جنة الخلد.

وفي الترمذي مرفوعاً: «يودُّ ناسٌ لو أنّ جلودهم كانت تُقْرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء».

وليعلم المصاب الجازع وإن بلغ به الجزع غايته ونهايته فآخر أمره إلى صبر الاضطرار وهو غير محمود ولا مثاب عليه، فإنه استسلم للصبر وانقاد إليه على

---

(١) رواه الترمذي والنسائي عن شداد بن أوس، ضمن حديث.

(٢) رواه البزار، وأبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة، وسعيد بن منصور في سننه عن الحسن مرسلاً بلفظ «الصبر عند الصدمة الأولى».

رغم أنفه. قال يحيى بن معاذ: ابنَ آدم مالك تأسف على مفقود لا يردّه عليك الفَوْت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يـديك الموت؟ فإذا علم الجازع على المصيبة أن الجزع لا يردّ ما فات، وأنه يسرّ الشامت، فأيُّ عقلٍ لمن لم يتفكر في العاقبة، ويذكر مآله إلى مصيبة أصابت غيره أنها تصيبه في نفسه وأنه أمرٌ لا بدّ منه، فليستعد له.

وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكروا لها ذلك. فقالت: ما أُصَابُ بمصيبة فأذكُرُ معها النار إلا صارت في عيني أصغرَ من الذباب.

ومما يسلّي العبدَ قولُ بعض الحكماء: قد مات كل نبيّ، ومات كل نبيه ولبيب وفقيه وعالم، فلا تجزع، ولا يوحشنك طريق الخلائق فيها.

وقال بعض السلف وقد سأله رجل فقال: عظني، فقال: انظر منك إلى آدم هل ترى منهم عين[1] تطرف؟ فقال: حسبك.

فصلٌ

ومما يسلّي أهلَ المصائب: أن المصاب إذا صبر واحتسب، وركن إلى كريم، رجاء أن يخلف الله تعالى عليه، ويعوّضه عن مصابه، فإن الله تعالى لا يخيبه بل يعوّضه فإنه من كل شيء عِوَض إلا الله تعالى فمـا منه عوض، كما قيل:

مـن كـل شيء إذا ضيَّعْتَـه عـوض ومـا مـن الله إن ضَيَّعْتَـهُ عِـوَضٌ

بل يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدثه له؛ فمن رضي فله الرضى، ومن سَخِط فله السَّخَط. فاختر لنفسك خيرَ الحظوظ أو شرَّها؛ فإن أحدثت له سخطاً وكفراً كنت في ديوان الهالكين، وإن أحدثتَ له جزعاً وتفريطاً في ترك واجب أو فعل محرّم كنتَ في ديوان المفرطين، وإن أحدثت له شكاية وعدم صبر

---

(١) لعلها: «عيناً تطرف».

ورضى كنتَ في ديوان المغبونين، وإن أحدثت له اعتراضاً عليه وقَدْحاً في حكمته ومجادلة في الأقدار، فقد قَرَعْتَ باب الزندقة وفُتح لك وولَجته؛ فاحذر عذاب الله يحلّ بك، فإنه لمن خالفه بالمرصاد. وإن أحدثت له صبراً وثباتاً لله كنت في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له رضىً بالله ورضىً عن الله وفَرَحاً بقضائه كنتَ في ديوان الراضين، وإن أحدثتَ له حمداً وشكراً كنت في ديوان الشاكرين الحامدين، وإن أحدثت له محبة واشتياقاً إلى لقائه كنت في ديوان المحبين المخلصين.

وفي مسند الإمام أحمد والترمذي من حديث محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رَضِيَ فله الرِّضَى ومن سَخِطَ فله السَّخَط» زاد الإمام أحمد: «ومن جَزِع فله الجَزَع». فأنفع الأدوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وإن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادَّعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه واحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وأسخط عليه محبوبه. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به.

وكان عمران بن حصين رضي الله عنه يقول في مرضه: أَحَبَّهُ إليَّ أَحَبَّهُ إليه. وقال بعده أبو العالية: وهذا دواء المحبين وعلاجهم لأنفسهم. ولا يمكن كلَّ أحد أن يتعالج به؛ فانظر هذه الطرائق واختر، وفقنا الله وإياك لما يحب.

فصل
نافع لمن نظر فيه
واردٌ فيمن يفرح بالمصائب ويطلبها نظراً إلى ثوابها

روى ابن أبي حاتم بإسناده في تفسيره عن خالد بن يزيد عن عياض عن عقبة أنه مات له ابنٌ يقال له يحيى، فلما نزل في قبره قال له رجل: والله إن كان لسيد الجيش فاحتسبْه، فقال والده: وما يمنعني أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات، فهذا رجل صابر راض محتسب، ما أحسنَ فهمَه وحُسْنَ تعزيته لنفسه وثقته بما أعطاه الله من ثواب الصابرين.

وعن ثابت قال: مات عبد الله بن مطرف، فخرج أبوه مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد ادّهن، فغضبوا، فقالوا: يموت عبد الله وتخرج في مثل هذه مدهناً؟ قال: أفأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك وتعالى عليها خصالاً كل خصلة منها أحبُّ إليَّ من الدنيا كلّها، قال تعالى: ﴿الَّذينَ إذا أصَابَتهُم مُّصيبَةٌ قَالُوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيهِ راجِعُونَ، أُولئِكَ عَلَيْهِم صَلَواتٌ من ربِّهم ورَحْمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ المهْتَدونَ﴾ (١) أفأستكين لها بعد ذلك؟ ثم قال ثابت: قال مطرّف: ما شيء أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا. رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد.

وعن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربيّ ابنٌ كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانباً كبيراً، قال: فمات. فجئت أعزيه فقال: كنت أشتهي موتَ ابني هذا. قال فقلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبيّ قد أنجب ولقنته الحديث والفقه؟ قال: نعم! رأيت في منامي كأنّ القيامة قد قامت، وكأنّ صبياناً بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يوماً حاراً شديداً حرُّه. قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، قال فنظر إليّ وقال: ليس أنت أبي. قلت: فأي شيء أنتم؟ قال: فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا آباؤنا فنستقبلهم فنسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته.

وروى البيهقي بإسناده عن ابن شوذب: أن رجلاً كان له ابن لم يبلغ الحلم، قال فأرسل إلى قومه: إنّ لي حاجة! قالوا نعم، وما هي؟ قال: إني أريد أن أدعو على ابني هذا أن يقبضه الله تعالى وتؤمنون على دعائي، فسألوه ذلك (٢)، فأخبرهم أنه رأى في منامه كأنّ الناس جُمعوا ليوم القيامة، فأصاب الناس عطش شديد، فإذا الوِلْدان قد خرجوا من الجنة معهم الأباريق فأبصرت ابنَ أخ لي، فقلت: يا فلان، اسقني، قال: يا عمّ إنا لا نسقي إلا الآباء. قال: فأحببتُ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) هكذا بالأصل ولعلها «فسألوه في ذلك».

أن يجعل الله ولدي هذا فَرَطاً لي، فدعا، فأمَّنوا على دعائه، فلم يلبث الغلام إلا يسيراً حتى مات.

وقد روى ابن عساكر بإسناده عن سهيل بن الحنظلية الأنصاري ـ وكان لا يولد له ـ فقال: لأن يولد لي ولو سقطٌ فأحتسبه أحبُّ إليَّ من أن يكون لي الدنيا بأجمعها. وكان ابن الحنظلية ممن بايع تحت الشجرة.

وذكر ابن عساكر أيضاً عن الليث بن سعد قال: حدثني يزيد بن أبي حبيب، أن ابناً لعياض بن عقبة حضرته الوفاة، وكان عياض غائباً، فقالت أمّ الغلام: لو كان أبو وهب حاضراً لقرَّت عينُه، فلما حضرت وفاة عياض بن عقبة قال لأخيه أبي عبيد: يهنئك الظفر قد كنتُ أرجو أن تكون قبلي فأحتسبك.

وقال أبو مسلم الخولاني رحمه الله: لأنْ يولد لي مولود يُحْسِن الله نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إليَّ قبضه الله تعالى مني، أحبُّ إليَّ من أن تكون الدنيا وما فيها لي.

وروى عن الإمام القفال قال: كان في جواري رجلٌ يأبى التزوّج؛ فلما كان في بعض الليالي استيقظ من نومه في الليل ونادى: زوّجوني زوّجوني؛ فسئل عن ذلك فقال: لعل الله يرزقني ولداً يقبضه قبل البلوغ وقبل موتي، قيل: وكيف ذلك؟ قال: رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامت والخلق في الموقف وأنا معهم، وقد كظني العطش وإذا قد ظهر أطفال بأيديهم أباريق من فضة مغطاة بمناديل من نور يتخللون الجمع ويسقون واحداً بعد واحد؛ فمددت يدي إليهم وقلت لبعضهم: اسقني، فقد أجهدني العطش، فنظر إليَّ شزراً وقال: ليس لك فينا ولدٌ، وإنما نسقي آباءنا وأمهاتنا. فقلت: من أنتم؟ قالوا: أطفال المسلمين.

وقال أبو الحسن المدائني: دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه في وجعه فقال: يا بنيّ كيف تجدك؟ قال: تجدني في الحق، قال: يا بنيّ، لأن تكون في ميزاني أحبُّ إليَّ من أن أكون في ميزانك. فقال: يا أبه، لأن يكون ما تحبّ أحبُّ إليَّ من أن يكون ما أحبه.

وروى ابن أبي شيبة بإسناده عن ثابت البُنانيّ: أن صلة بن أشيم كان في غَزاة له ومعه ابنٌ له، فقال له: أي بُنيّ تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قُتل، ثم تقدم أبوه فقُتل فاجتمعت النساء، فقامت امرأته معاذة العذرية فقالت للنساء: مرحباً، إن كنتنّ جئتنّ لتهنِّئْنَني مرحباً بكنّ، وإن كنتنّ جئتن لغير ذلك فارجعْن.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، قلت: ثم مَن؟ قال الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحتويها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء. رواه ابن حاجه من حديث طويل.

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد وابن ماجه في سننه عن أبي ذر. قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثقَ منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أُصِبْتَ بها أرغبَ منك فيها لو أنها بقيتْ لك» وقال ابن الجوزي: ثنا ابن ناصر أنبأ جعفر بن أحمد ثنا أبي ثنا هاشم عن ابن المبارك عن الحسن ثنا أبو الأحوص قال: دخلنا على ابن مسعود رضي الله عنه وعنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير، فجعلنا نتعجب من حسنهم، فقال: كأنهم يغبطونني[1]؟ قلنا: إي والله لبمثل هؤلاء يغبط المسلم. فرفع رأسه إلى سقف البيت وقد عشش فيه خطاف وباض. فقال: والذي نفسي بيده لأن أكون قد نفضت يدي من تراب قبورهم أحبُّ إليَّ من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه. ثم قال: ما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها.

وروى هناد بن السريّ في الزهد عن كثير بن تميم الداري قال: كنت جالساً مع سعيد بن جبير، فطلع عليه ابنه عبد الله بن سعيد وكان به من الفقه، فقال: إني لأعلم خير حالاته، فقالوا وما هو؟ قال: أن يموت فأحتسبه.

---

(١) هكذا بالأصل، ولعله «كأنكم تغبطونني».

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان قال سمعت سفيان يقول: ما في الأرض أحبّ إليَّ من سعيد، وما في الأرض أحد يموت أحبّ إليَّ منه، فمات، فرأيته يبكي، قال: قد كنت تَمَنَّى موته، قال أذكر قوله آه جنبي.

وفي تاريخ الرقة للحراني: ثنا أحمد بن بديع ثنا أبي قال سمعت عمر بن ميمون بن مهران يقول: كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة، فلقي أبي شيخاً فعانقه أبي، ومع الشيخ فتى قريباً مني، فقال له أبي: مَن هذا؟ قال إبني. فقال: كيف رضاك عنه؟ قال: ما بقيتْ خَصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة، قال: وما هي؟ قال: كنت أحب أن يموت وأوجر فيه! قال: ثم فارقه أبي، قال فقلت لأبي: مَن هذا الشيخ؟ قال: هذا مكحول.

والمقصود أن هذا المقام عظيم شريف لمن يطلب المصيبة ويفرح بها نظراً إلى ثوابها وما يفعل ذلك أحدٌ حتى يعلم من نفسه القوّة والصبر والجلد والركون إلى دعوى النفس، وما أكثر ما تخلف الوعد وتنقض العهد، فإن الغالب متى ما أظهرت الدعوى وكلت إليها، وطولبت بتصحيح دعواها، فتقصر عند الحقيقة، وتميل عن تقويم الطريقة.

كان سُحنون رحمه الله يقول: قد رضيت بكل ما تقتضيه فابتليني بما شئت، فابتلاه الله بحصار البول، فما صَبَر، فكان يدور على الصبيان ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب؛ فالطريقة الكاملة قوله ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لقاء العدو وسلُوا الله العافية» واعلم أن النية في طلب الولد وفقده وقصد بقائه، إذا صحت النية حصل الثواب الجزيل على النيتين جميعاً؛ لأن الأعمال بالنيات، فإنه ثبت عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما من أهل ولا مال ولا ولد إلا وأنا أُحب أن أقول عليه: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ إلا عبد الله بن عمر فإني أحب أن يبقى في الناس يؤيد ذلك ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» وفي حديث أنس مرفوعاً: «سبعٌ يجري أجرها للعبد بعد موته،

فذكر منها أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته» وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد سماه النبي ﷺ الرجل الصالح، أو العبد الصالح، ولا شك أن العبد إذا حصل له أجر مستمرّ بعد موته هو أولى من حصول أجر في حياته ثم ينقطع بالموت، فإن العبد من أحوج الناس بعد موته إلى الحسنات، وبموته قد انقطع عمله إلا ما أخبر به الصادق المصدوق في هذا الحديث المتقدم، فطلب الولد وبقاؤه أنفع للعبد فيما فهمت، ولكن أولئك لما خالط قلوبهم قوّة الإيمان والتصديق بالقضاء والقدَر، والرضاء به، برزوا بالقول، وقلّ من يصبر على تحمل البلوى عند الحقيقة، والله أعلم.

الباب الثاني
في البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء في ذلك

البُكى أصله بَكُوىٌ على فعول، قال الجوهري: البكاء يمدّ ويقصر، فإذا مَدَدت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإن قَصَرت أردت الدموع وخروجها، وبَكَيْتُ الرجلَ وبَكَّيْتُهُ إذا بكيتُ عليه قال الشاعر:

بكت عَيْني وَحَقَّ لها بُكاها ... وما يُغني البكاءُ ولا العويلُ

هذا من جهة اللغة، وهو رقة ورحمة في قلوب عباد الله، فالبكاء على الميت في مذهب الإمام أحمد وأبي حنيفة: جوازه قبل الموت وبعده، واختاره أبو إسحاق الشيرازي، وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخصوا فيه قبل خروج الروح، واحتجوا بحديث جابر بن عَتيك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب، فصاح به رسول الله ﷺ فلم يجبه فاسترجع وقال: «غلبنا عليك يا أبا الربيع» فصاح النسوة وبكين، فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال رسول الله ﷺ: «دعهن فإذا وَجَبَ فلا تبكيَنَّ باكية» قالوا وما الوجوب يا رسول الله؟ قال: الموت. رواه الإمام أحمد وأبو داود، وهذا لفظه والنسائي وابن ماجه. قالوا: وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يسمَّى ميتاً.

وعن ابن عمر أيضاً أن رسول الله ﷺ لما قدم من أُحُد، سمع نساء من بني عبد الأشهل على هلكاهن يبكين، فقال رسول الله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له» فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال:

« ويحهنّ إنهنّ هاهنا يبكين ما أثقلهن، مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم » رواه الإمام أحمد وابن ماجه.

وهذا صريح في نسخ الإباحة المتقدمة، والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذراً، فإذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء، فلا ينفع البكاء.

احتج أصحابنا ومن قال بقولهم، فمن جوّز البكاء قبل الموت وبعده. قال جابر بن عبد الله أصيب أبي يوم أحد فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، فجعلوا ينهوني ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي فقال النبي ﷺ: « تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » متفق عليه.

وعن ابن عمر قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود، فلما دخل عليه فوجده في غاشية فقال: « قد قضى؟ » قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بَكوا فقال: « ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحُزن القلب، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم » رواه البخاري، وهذا لفظه، ومسلم وعنده: وجده في غشية فقال: أقد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله... الحديث، وهو من رواية يونس بن عبد الأعلى.

وعن أسامة بن زيد قال: كنا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً أو ابناً لها في الموت، فقال للرسول: إرجع إليها فأخبرها أن لله عز وجل ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب، فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينَّها. قال: فقام النبي ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبيّ بنّ كعب وزيد بن ثابت

وانطلقت معهم، فرُفع اليه الصبيّ ونفسه تُقَعْقَعُ كأنها في شَنَّةٍ[1]، ففاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟ قال: « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: شهدنا بنتاً لرسول الله ﷺ، قال: ورسول الله ﷺ جالسٌ على القبر، قال: فرأيت عيناه تدمعان، قال فقال: « هل منكم من رجلٍ لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا، قال فأنزل في قبرها » رواه البخاري.

وعن أنس أيضاً قال قال رسول الله ﷺ: « وُلد لي غلام فسميتُه باسم أبي ابراهيم... فذكر الحديث، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وفي لفظ: فأخذه فوضعه في حجره وقال: يا بني، لا أملك لك من الله شيئاً، فقال عبد الرحمن بن عوف وأنس: يا رسول الله أتبكي وتنهي عن البكاء؟ فقال: « يا ابنَ عوف، إنها رحمة ومن لا يَرحم لا يُرحم، ثم أتبعها بأخرى فقال: إن العين تَدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » رواه البخاوي ومسلم بدون زيادة الألفاظ، وفيه دليل على البكاء قبل الموت.

وعن أنس أيضاً رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير أمره ففُتح له. رواه البخاري. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماتت زينبُ بنتُ رسول الله ﷺ فبكت النساء، فجعل عمر يضربهنّ بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ بيده وقال: « مهلاً يا عمر، ثم إياكنّ ونعيقَ الشيطان ». ثم قال: « إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ومن الرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن

---

(١) تقعقع: أي تضطرب وتتحرّك، أراد كلما صار إلى حال لم يلبث أن ينتقل إلى أخرى تقرّبه من الموت. كذا ذكره ابن الأثير في النهاية. والشنة: القربة، كما في القاموس.

الشيطان » رواه الإمام أحمد .

وعن عائشة رضي الله عنها أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما قالت : فوالذي نفسي بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتي . رواه الإمام أحمد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان في جنازة ، فرأى عمر امرأة فصاح بها ، فقال النبي ﷺ : « دعها يا عمر فإنّ العين دامعة والنفس مصابة والعهد قريب » رواه ابن ماجه .

وعن أسماء بنت يزيد قالت : لما توفي ابن رسول الله ﷺ إبراهيم بكى رسول الله ﷺ فقال .. إما أبو بكر وإما عمر ـ أنت أحق من عظم لله حقه ! فقال رسول الله ﷺ : « تَدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الرب لولا أنه وعدٌ صادق ، وموعود جامع وأن الآخر تابع للأول لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل ما وجدنا وإنا بك لمحزونون » رواه ابن ماجه . وفي لفظ : أتبكي ، أو ما نهيتنا عن البكاء ؟ قال : « ليس عن البكاء نهيت ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين ، صوت عند نغمة لهو ولعب ورنة شيطان ، وصوت عند مصيبة : لطم وجوه وشق جيوب ورنة شيطان ، وهذه رحمة ومن لا يَرحم لا يُرحمَ ، يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حقٌّ ، ووعدٌ صادق وسبيلٌ لا بدّ نأتيه ، وإن آخرنا سوف يلحق بأولنا لَحَزِنَّا عليك حزناً هو أشد من هذا وإنا بك لمحزونون » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ فبكت النساء ، فجعل عمر يضربهنّ بسوطه ، فأخذ رسول الله ﷺ بيده ثم قال : « مهلاً يا عمر » ثم قال « ابكين وإياكن ونعيق الشيطان ، ثم إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل » وذكر تمام الحديث وقد تقدم .

وروى الإمام أحمد أيضاً بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ماتت رُقية بنتُ رسول الله ﷺ فقال « الحقي سلفنا الخير عثمان بن مظعون » وبكت

النساء فجعل عمر يضربهنّ بسوطه فقال النبي ﷺ لعمر: «دعهن يبكين، وإياكنّ ونعيق الشيطان» ثم قال رسول الله ﷺ: «مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة، ومهما كان من اليد واللسان فمن الشيطان» وقعد رسول الله ﷺ على شفير القبر وفاطمة إلى جنبه تبكي فجعل النبي ﷺ يمسح عين فاطمة بثوبه رحمة لها.

فقد ثبت في حديث زينب ورقية بنتي رسول الله ﷺ البكاء بعد الموت، وقد جاء في آثار جمة أنه ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله.

وصح عنه ﷺ أنه قَبَّل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه. وتقدم قصة جعفر وعبد الله بن رواحة وأصحابها.

وكذلك صح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قبَّل النبي ﷺ وهو ميت وبكى وأبكى، وكذلك بكى عليّ على النبي ﷺ فهذه الأحاديث كلها دالة على جواز البكاء قبل الموت وبعده من غير كراهة، وما ذكره أصحاب الشافعي ومن قال بقولهم من الكراهة بعد الموت مستدلين بما تقدم من أحاديث النهي فكلها محمولة على البكاء الذي معه ندب ونياحة. ويؤيد ذلك ما يأتي ذكره: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، وفي لفظ يعذب بما نيح عليه[1].

وأما من ادعى النسخ في حديث حمزة فلا يصح أن معناه لا تبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد. ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد، منها حديث أبي هريرة لأن إسلامه وصحبته كانا في السنة السابعة، ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم في السنة الثامنة، وكذلك البكاء على زينب بنت رسول الله ﷺ كان في الثامنة أيضاً، والبكاء على قبر أمه ﷺ كان عام الفتح، وأما قولهم إنما جاز البكاء قبل الموت حذراً بخلاف ما بعد الموت. جوابه: إن الباكي قبل الموت يبكي حزناً وحزنه بعد الموت أشد، لأنه قبل الموت ربما يرتجى وبعده قد فقدت الرجوى فبكى لفراق لا عودة بعده في

(١) رواه البخاري ومسلم عن عمر بلفظ «إن الميت ليعذب ببكاء الحيّ».

الدنيا ؛ وهذا معنى قوله ﷺ : « إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب » ومنها : قال البخاري : قال عمر : دعهن يبكين على أبي سلمان ما لم يكن نقع أو لقلقة . والنقع : التراب على الرأس . واللقلقة : الصوت .

حدثنا إسحاق بن منصور عن أبي رجاء عبد الله بن واقد عن محمد بن مالك عن البراء بن عازب قال : كنا مع النبي ﷺ في جنازة ، فلما انتهينا إلى القبر فاستدرت فاستقبلته فإذا هو يبكي حتى بلَّ الثرى ، ثم قال : « إخواني لمثل هذا اليوم فأعدُّوا » رواه الإمام أحمد .

وقد ذكر بعض العلماء أن البكاء الذي روي عن النبي ﷺ أنه فعله وأباحه أو أمر به للاستحباب هو البكى الذي هو دمع العين ورقة القلب ورحمته ، والذي نهى النبي ﷺ عنه هو البكاء بالمدّ الذي يستلزم الصراخ والندب والعويل . يشهد لهذا قوله : « ما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » ونهى عن رنة الشيطان وهو رفع الصوت عند المصيبة .

قلت : هذا وإن كان حسناً يعكر عليه ما حكيناه عن الجوهري : أن البكاء يمدّ ويقصر ، فهو لغتان فلا فرق فيه بين المدّ والقصر ، والله أعلم .

فصل

وليحذر العبد كل الحذر أن يتكلم في حال مصيبته وبكائه بشيء يُحْبِط به أجرَه ، ويُسْخِط به ربَّه ، مما يشبه التظلم ، فإنّ الله تعالى عدلٌ لا يجور ، وعالم لا يضل ولا يجهل ، وحكيمٌ أفعاله كلها حِكم ومصالح ، ما يفعل شيئاً إلا لحكمة ، فإنه سبحانه له ما أعطى وله ما أخذ ، لا يُسْأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو الفعال لما يريد ، القادر على ما يشاء ، له الخلق والامر ؛ بل إنما يتكلم بكلام يُرضي به ربه ، ويُكثر به أجرَه ، ويرفع الله به قَدره .

وقد روى ابن أبي الدنيا بإسناده قال : حدثني يونس بن محمد المكي قال : زرع رجل من أهل الطائف زرعاً ، فلما بلغ أصابته آفة فاحترق ، فدخلنا عليه لنسليه

عنه، فبكى. وقال: والله ما عليه أبكي ولكن سمعت الله تعالى يقول: ﴿كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ أصابتْ حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلَكَتْه﴾[1] فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة، فذلك الذي أبكاني.

قال أبو العرب: لما أمر عبد الله بن زياد بالبلجاء أن يمثل بها، جاؤوا ومعهم الحديد والحبال، فقالت: إليك أتكلم بكلام يحفظه عني من سمعه قال: فحمدَتِ الله وأثنتْ عليه ثم قالت: هذا آخر يومي من الدنيا وهو غير مأسوف عليه، وأرجو أن يكون أولَ أيامي من الآخرة وهو اليوم المرغوب فيه، ثم قالت: والله إن علمي بفنائها هو الذي زهَّدني في البقاء فيها، وسهَّل عليَّ بلواءَها فما أحب تعجيل ما أخر الله، ولا تأخير ما عجل الله، والحمد لله على السراء والضراء وعلى العافية وعلى البلاء، ثم قالت: كنت أؤمل في الله ما هو أكثر من هذا. قال ثم إنهم قطعوا يديها ورجليها، فجعل الدم لا يرقأ، فقالت: حياة كريمة وميتة طيبة لأني[2] نلت ما أمّلتِ يا نفس من جزيل ثواب الله فقد نلت سروراً دائماً لا يضرّك معه كدر، وهي حين قطعوا يديها ورجليها فلم تتكلم، فقيل لها ذلك فقالت: شغلني هول المطلع عن ألم حديدكم هذا، ثم أتوا بالنار لتكوى بها فلما رأتها صرخت، فقيل لها لقطع اليدين والرجلين لم تنطقي، فلما رأيت النار صرختِ؟ فقالت: والله ليس من ناركم صرخت ولا على دنياكم أسفت، ولكنني ذكرت بها النار الكبرى فكان الذي رأيتم من ذلك، قال فأمر بها فسملت عيناها، فقالت: اللهم قد طال في الدنيا حزني فأقِرّ في الآخرة عيني. ثم قالت: لئن كنت على بصيرة من أمري إن هذا لقليل في جنب ما أطلب من ثواب الله. قال فما تكلمت بغيرها حتى ماتت رحمها الله تعالى.

وكانت البلجاء من شيعة عليّ رضي الله عنهم، وكان قد بلغ الحسن بن علي أن ابن زياد يتتبع شيعة عليّ فيقتلهم. فقال: اللهم اقتله وأمِتْهُ حتف أنفه. والإسناد، قال أبو العرب: حدثنا عبد الله بن الوليد عن جابر بن خداش بن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

(٢) قوله «لأني» لعله «لانك» فتدبر.

عجلان ثنا سالم بن عمير عن سالم الهلالي فذكره.

وليحذر العبد أيضاً أن يدعو على نفسه، فإن النبي ﷺ قال لما مات أبو سلمة: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمّنون على ما تقولون».

وليعلم أيضاً أن البكاء يضرّ الحيّ والميت، فإنّ الحيّ يخاف على عينيه كما قال الله تعالى في قصة يعقوب عليه السلام: «وابيَضَّتْ عيناهُ مِنَ الحُزن» والميت لا يستريح به؛ فقد ذكر الحافظ أبو شجاع شيرويه الديلمي بإسناده عن علي بن الحسين قال: بينا داود الطائي جالساً مع أصحابه يوماً إذ غفا وهو معهم ثم انتبه فقال: أتدرون ما رأيت في نومتي هذه؟ دخلت الجنة فرأيت فيها صبياناً يلهون بالتفاح يناول بعضهم بعضاً، وصبيٌّ ناحية عنهم جالس حزين يُرى الانكسار عليه بين[1]. فقلت ما بال ذلك الصبي لا يلهو معكم كما تلهون؟ قالوا: ذاك حديث عهد بالدنيا وأمه تكثر البكاء عليه فانكساره لكثرة بكاء أمه عليه. قال فقلت: أين منزلهم؟ قالوا في قبيلة آل فلان قال: فقلت مَن أبويه قالوا فلان وفلانة، قلت فما اسمه؟ قالوا فلان فقال داود لأصحابه فانطلِقوا قال فانطلَقوا فأتوا القبيلة فسألوا عن أبويه فلقيهما أو لقي أحدهما فقال لهما ما رأى في منامه، فجعلت الأم على نفسها أن لا تبكي عليه أبداً.

فصل

والبكاء والأسف على من فرّط في جنب الله أو من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهو داخل تحت المشيئة وعنده من الندامة كأمثال الجبال ومن الحسرات كعدد الرمال، فإن الصحة لا يعرف مقدارها على الحقيقة إلا المرضى، كما أن العافية لا يعرف مقدارها إلا المبتلي؛ فكذلك الحياة لا يعرف مقدارها إلا الموتى، لأنهم قد ظهرت لهم الأمور، وانكشفت لهم الحقائق، وعلموا مقدار الأعمال الصالحة، إذ ليس ينفق هنالك إلا عمل زكي، ولا يرتفع هنالك إلا

(١) لعله «بيناً» على أنه المفعول الثاني.

عبدٌ تقيّ، فالمقصر يودّ لو أنه رُدّ فاستدرك ما فات، ونظر فيما فيه فرّط، والمهمل العمل بالجملة يكون تمنيه الرجوع أكثر، وحرصُه على العودة أشدّ، فالواجب اغتنام الصحة والفراغ المغبون فيهما كثير من الناس، وإنما يحصل للشخص الحزن والبكاء على من أصيب به لذهوله عما بين يديه من سكرات الموت وغصصه، والانفراد في القبر وحيداً ذليلاً مستوحشاً، ثم مساءلة منكر ونكير عليهما السلام، وطول مكثه تحت الثرى إما مُنعَّماً وإما معَذَّباً، ثم من بعد ذلك خروجه من قبره وقيامه لرب العالمين، ثم وقوفه الطويل في المحشر وما يرى من أهوال يوم القيامة، ثم حسابه بين يدي الله تعالى ووزن أعماله وتطاير الصحف والمحاسبة على مثاقيل الذرّ، وأنه وجد ما عمل محصياً محرراً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه بين رجاء وخوف. إما لذات اليمين أو لذات الشمال، فلو استشعر المصاب هذه المصائب العظيمة التي بين يديه وهو غافل عنها، غير مستعدّ لها، لشغلته عن مصابه بأحبابه، ولرجع إلى الصبر والرضاء بما قدّره وأمضاه، فإن قدر على نَفْع، نَفَع ميته به، وإلا فلا يؤذيه بما نهى الشرع عنه من الندب والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب، وغير ذلك من الأفعال والأقوال المكروهة التي ذمها السلف والخلف، كما سنبينه بعدُ إن شاء الله نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

فصل

والحزن لم يأمر الله تعالى به ولا رسوله، لا في المصيبة ولا في غيرها، بل قد نهى الله عنه في كتابه وإن تعلق بأمر الدين، لكن منه محمود ومذموم. كقوله تعالى ﴿وَلا تَهِنوا وَلا تَحزَنوا وأنتمُ الأعْلَوْنَ﴾ (١) وقوله: ﴿ولا تحْزَنْ عليهم﴾ (٢) وقوله تعالى في حق نبيه محمد ﷺ وأبي بكر: ﴿إذ يقولُ لصاحبه لا تحزَن إنَّ اللهَ معَنا﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿فلا يحزُنْكَ قولُهم... ﴾ الآية (٤) ونحو ذلك من

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٤) سورة يس، الآية: ٧٦.

الآيات كثير في القرآن. وما ذاك إلا لأن الحزن لا يجلب منفعة، ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، لكن لا يأثم به صاحبه إذا لم يقترن بجزنه محرَّم، كما تقدم ذكره من قول أو فعل كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا يؤاخذ بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يؤاخذ بهذا ـ وأشار بيده إلى لسانه ـ أو يرحم» فدل على أنه لا يأثم إلا إذا اقترن به ما يجلب الإثم، ويؤيده أيضاً قوله ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب» قال مالك بن دينار: القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما أن البيت إذا لم يُسكَن خَرِبَ. وقال عبد الله بن أحمد: حدثني عليّ بن مسلم ثنا بشار ثنا جعفر ثنا إبراهيم بن عيسى. قال: ما رأيت أطول حزناً من الحسن وما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة. ثم ذكر بسنده عن مالك قال: بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج همّ الآخرة من قلبك. ومنه قوله تعالى: ﴿وقال يا أسَفاً على يوسُفَ وابيضَّت عيناه من الحزن﴾[1] فكل هذه الأدلة تدل على أنه لا يأثم به صاحبه، فالبكاء والحزن على الميت على وجه الرحمة والرقة حَسَن، ولا ينافي الرضا والصبر، بخلاف البكاء عليه والحزن لفوت حظ الحيّ منه، فإذا اقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه وبحمد عليه فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن، فالحزين على مصيبة في دينه. وعلى مصائب المسلمين عموماً. فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر، وتوابع ذلك. ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد، وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه، وكان حَسْب صاحبه الإثم عنه من جهة الحزن، وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله به ورسوله كان مذموماً عليه من تلك الجهة، وإن كان محموداً من جهة أخرى، فإنه إن كان المحزون عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن. فالعاقل يدفعه عن نفسه ولا يضم إلى مصيبته أخرى. وليعلم أنه سيسلو بعد حين والله أعلم.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

الباب الثالث
في تحريم النذب والنياحة وشق الثياب

النذب اسم للبكاء على الميت وتعداد محاسنه، قاله الجوهري، والاسم الندبة بالضم، وقيل: تعداد شمائل الميت فيقال: واكريماه واجبلاه والهفاه. والنوح - قال القاضي عياض: هو اجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات، وذكر في المغني أنه تعداد محاسن الميت بلفظ النداء، إلا أنه يكون بلفظ الواو وربما زيد فيه الألف والهاء مثل قولهم: وارجلاه واجبلاه واانقطاع ظهراه، ونحوه. وقال غيره: قال أهل اللغة: النياحة اسم لاجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات كما ذكر القاضي عياض والتناوح التقابل، ثم استعمل في صفة بكائهن بصوت ورنة وندبة، واعلم رحمك الله أن المطلوب في المصيبة السكون والصبر، والرضاء بقضاء الله تعالى، والحمد والاسترجاع والصدقة عن المصاب به والدعاء له، وأما الندب والنياحة وشق الجيوب ولطم الخدود وقول المنكر، كل هذا ينافي ما ذكر.

وقد نص الإمام أحمد رحمه الله على تحريم الندب والنياحة: قال في رواية حنبل: النياحة معصية.

وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: النوح حرام.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء.

وقال أبو الخطاب رحمه الله في الهداية، ويكره الندب والنياحة وخمش الوجوه وشق الجيوب والتحفي. وهذا قول ضعيف مصادم لما ورد من السنة.

وذكر الشيخ في المغني قال: ونقل حرب عن أحمد كلاماً فيه احتمال إباحة النوح والندب. قال: واختاره الخلال وصاحبه لأن واثلة بن الأسقع، وأبا وائل كانا يسمعان النوح ويبكيان. ثم قال: وظاهر الأخبار تدل على التحريم انتهى كلامه. واستنادهم في ذلك لآثار مروية عن بعض الصحابة والسلف لا ترد ما ورد في الصحاح والمسانيد. فإنهم قالوا قد روى حرب عن واثلة بن الأسقع وأبي وائل: إنما كانا يسمعان النوح ويبكيان. قالوا: وقد ورد في الصحيح من حديث أم عطية قالت لما أنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها النبيُّ إذا جاءك المؤمناتُ يبايعنَك على أن لا يُشركن بالله شيئاً ولا يَسْرقن ولا يزنين﴾[1] إلى قوله: ﴿وَلا يَعصينَكَ في معروف﴾[2] كان منه النياحة فنهانا عن النياحة، فقبضت امرأة منا يدها فقالت: فلانة أسعدتني فإنما أريد أن أجزيها. قال: فما قال لها شيئاً فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها. وفي لفظ في الصحيح قالت أم عطية: يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم أسعدوني في الجاهلية فلا بد لي أن أسعدهم. فقال: إلا آل فلان، والجواب عن ذلك: أن المرأة التي سكت عنها أن ذلك خاص بها لوجهين: أحدهما أنها حديثة عهد بالإسلام فربما كان فيه تنفيرٌ لها عنه، الثاني أنه قال لغيرها لما سألته ذلك قال: لا إسعاد في الإسلام. فإطلاقه لها وحجره على غيرها يدل على الخصوص. وعلى الرواية الأولى: أن امرأة قبضت يدها ولم تبايع إلا بعد الإسعاد فلا إشكال، وقد حكى بعض المبايعات القصة ولم تستثن أحداً، فما ورد في سنن أبي داود من حديث أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً ولا نشق جيباً ولا ننبش شعراً.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

فصل
فيما ورد من تحريم ذلك [النذب والنياحة] وما ورد من الوعيد عليه

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » رواه البخاري ومسلم. وعن أبي بردة عن أبي موسى قال: وجع أبو موسى وجعاً فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله، فأقبلت تصيح برنة فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: إني بريء ممن برىء منه محمد ﷺ إن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة. رواه البخاري ومسلم عن الحكم بن موسى، إلا أن البخاري لم يذكر أنه حدثه به، بل قال: وقال الحكم بن موسى فهو عنده معلق.

قوله « الصالقة » يعني التي ترفع صوتها عند المصيبة، « والحالقة » التي تحلق شعرها، « والشاقة » التي تشق ثوبها.

وعن أم عطية قالت: أخذ علينا رسولُ الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح، فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة، أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان، أو ابنة سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى. رواه البخاري، وهذا لفظه. ومسلم. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أخذ النبي ﷺ على النساء حين بايعهنّ، أن لا يَنُحْنَ، فقلن: يا رسول الله إن نساء أسعدننا في الجاهلية أفنسعدهنّ في الإسلام؟ فقال: « لا إسعاد في الإسلام » رواه الإمام أحمد.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة »[1]. وقال: « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَب » انفرد بإخراجه مسلم.

---

(١) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري.

وفي حديث جابر في قصة إبراهيم ابن النبي ﷺ وقد تقدم ،وفيه ،ألم تنه عن البكاء ؟ قال: لا ، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان »... الحديث رواه الترمذي.

وكذلك تقدمت قصة قتل زيد بن حارثة وأصحابه من حديث عائشة قالت: لما جاء رسول الله ﷺ قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، جلس رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الحزن، قالت عائشة وأنا أنظر من صابر الباب (شق الباب) فأتى رجل فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر - وذكر بكاءهنّ، فأمره يذهب فينهاهنّ، فذهب فأتاه فذكر انهنّ لم يُطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهنّ، فذهب ثم أتاه فقال: والله لقد غلبننا يا رسول الله قالت: فزعمت أن رسول الله ﷺ قال: « إذهب فاحث في أفواههنّ من التراب » قالت عائشة: فقلت أرغم أنفك، والله ما تفعل ما أمرك رسول الله ﷺ، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء. رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه.

وعن عبيد بن عمير عن أم سلمةقالت: لما مات أبو سلمة قلت: غريب وفي أرض غريبة لأبكينّه بكاء يُتحدّث عنه، فكنت قد تهيأت للبكاء عليه إذ أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدني، فاسقبلها رسول الله ﷺ وقال: « أتريدين أن يدخل الشيطان بيتاً أخرجه الله منه مرتين؟ » فكففت عن البكاء فلم أبك. انفرد بإخراجه مسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « النياحة على الميت من أمر الجاهلية فإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت فإنها تبعث يوم القيامة عليها سربال من قطران ثم يعلى عليها بدرع من لهب النار » رواه ابن ماجه من رواية عمر بن راشد الهمامي وقد ضعفه غير واحد. وقد روي في صحيح مسلم بأتمّ من هذا وأبْيَن.

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ لَعَن الخامشة وجهها والشاقة ثوبها والداعية

بالويل والثبور. رواه ابن ماجه ـ والثبور الهلاك ـ ومنه قوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنالِكَ ثُبوراً﴾ [1] أي صاحوا واهلاكاه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة. رواه أبو داود من رواية عطية العوفي وقد تكلم فيه.

فصل
فيما ورد من عذاب الميت بالنياحة

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الميتُ يُعذَّبُ في قبره بما نيحَ عليه» وفي رواية يعذب بما نيح عليه. ولم يذكر «في قبره» رواه البخاري ومسلم.

وعن المغيرة بن شعبة قال بعث النبي ﷺ يقول: «إنه من يُنَحْ عليه يعذب بما نِيح عليه» رواه البخاري ومسلم.

وعن أسيد بن أبي أسيد عن موسى بن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «الميت يعذب ببكاء الحيّ: إذا قالت النائحة واعضداه واناصراه واكاسباه جُبِذَ الميت وقيل له: أنت عضدها أنت ناصرها أنت كاسبها؟» فقلت: سبحان الله يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرى﴾ [2]. فقال: أحدّثك عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ وتقول هذا فإينا كَذَب؟ فوالله ما كذبت على أبي موسى ولا كذب أبو موسى على رسول الله ﷺ. رواه الإمام أحمد.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كذبا عليّ ليس ككذب على أحد؛ من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُنَح عليه يعذب بما نيح عليه» رواه البخاري، وهذا لفظه، ومسلم.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١٣.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٨.

وعن النعمان بن بشير قال: أُغمي على عبد الله بن رواحة فجعلتْ أخته عمرة تبكي وتقول: واجبلاه واكذا واكذا تعدّد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلا وقد قيل لي أنت كذلك! فلما مات لم تبك عليه. رواه البخاري.

وروى الترمذي في جامعه عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ميّت يموت فيقوم باكيهم فيقول واجبلاه واسيّداه أو نحو ذلك إلا وُكّل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت؟» قال الترمذي: حديث حسن غريب - قوله «يلهزانه» اللهز الدفع بجميع اليد في الصدر.

فصل

وليعلم أن البكاء المجرّد ليس فيه منفعة للميت البتة وإنما ينفعه عمله كما في صحيح البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يَتْبَع الميتَ ثلاثٌ، أهلُه، ومالُه، وعملُه، فيرجع إثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله».

وفي الصحيح: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له»[1] فلا منفعة للميت بالبكاء والانزعاج. قال أبو الفرج بن الجوزي أما بعد: فإني رأيت عموم الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحدّ كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت. وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم. كما قيل:

على ذا مضى الناس اجتماعٌ وفُرقةٌ ومَيْتٌ ومولودٌ وبِشْرٌ وأحزانُ

وما أحسن ما روي عن بعض السلف أن رجلاً جاءه وهو يأكل طعاماً. فقال له: قد مات أخوك، أعظم الله أجرك فيه. فقال: اقعد وكُلْ، فقد علمت

(١) رواه البخاري في الأدب، ومسلم، وأبو داود، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

ذلك، فقال من أعلمك وما سبقني إليك أحد؟ قال قوله تعالى: ﴿كلُّ نَفسٍ ذائقةُ الموت﴾ [1].

ولعمري إنّ أصل الانزعاج لا ينكر إذ الطبع مجبول على الجزع من حلول المنايا، وإنما ينكر الإفراط فيه والتكليف، كمن يخرق ثيابه ويلبس الثياب المرذولة عند موت قريبه، ويلطم وجهه، ويعترض على القدر، وهذا ومثله وأكثر منه لا يردُّ فائتاً، لكنه يدل على خور الجازع ويوجب العقوبة مع ما يفوته من الأجر والثواب، قال بعض الحكماء: إذا كان الصبر محموداً عند المصائب ومرغوباً فيه عند حلول النوائب، فالجزع مذموم بكل مقال، وصاحبه ملوم في كل حال؛ فتعجُّلُ المحمود عند العقلاء أحسنُ، وتجنُّبُ المذموم من الخصال أزينُ.

فصل

وفي بعض ما تقدم من أحاديث النهي هذه كفاية لمن تدبّرها، وكيف لا تكون هذه الخصال القبيحة منهيٌّ عنها وهي مشتملة على التسخط على الرب عز جول، الفعال لما يشاء، الحاكم بما يريد، المتصرف في عبيده بما يختار من موت وغرق وحرق، وغير ذلك مما قضاه وقدّره وأمضاه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، بل فعل النوح، وشق الثياب، ولطم الخدود، وخمش الوجوه، ونبش الشعر ونتفه، والتحفي، وتسويد الوجه والبدن، والدعاء بالويل والثبور، وغير ذلك من الأقوال والأفعال المنكرة التي ورد الشرع بالنهي عنها، وذمّ فاعلها وأنّ فاعلها شرع في الدين ما لم يأذن به الله ولا رسوله، هو منافٍ للرضا والصبر، ويضر بالنفس والبدن، ولا يردّ من قضاء الله وقَدَره شيئاً، وقد بلغني عن أناس أعرفهم أصيبوا بمصيبة أزعجوا أنفسهم لأجل مصابهم ببعض ما ذكر فأورثهم ذلك مرضاً وحُمّى، فإذا استسلم المصاب وانقاد ووكل الأمر لمن بيده الخلق والأمر، وعلم أن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسل، فتبع الرسول

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

ﷺ فيما أمره به وفيما نهاه عنه، وكان مما جاء به تحريم هذه الأفعال والأقوال المنكرة التي تقدم ذكراها. بل العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول ما يسخط ربنا، فإذا سمع المصاب ذلك فأطاع وانقاد حصلت له السعادة الأبدية باتباعه الرسول في أقواله وأفعاله، لقوله تعالى: ﴿وما آتاكُمُ الرَّسولُ فخُذوهُ وما نهاكُم عنه فانتَهُوا... ﴾الآية[1].

فصل

والذي ينبغي أولاً لمن غلب على الظنّ أنه يصاب بالموت في مرضه أن يعامل بأحسن المعاملات بما ينفعه في قبره ويوم معاده، فيذكّره الآخرة، ويأمره بالوصية والتوبة، ويلقنه شهادة أن لا إله إلا الله لتكون آخرَ كلامه. ويكون قبل ذلك قد نَهى عن لطم الخدود وشق الثياب وتمزيقها، ونتف الشعر ورفع الصوت بالندب والنياحة وغير ذلك من قول وفعل منكر، ويكون مع ذلك في هذه الحالة رجاؤه بالله أكثر من خوفه، وهو كثير الحمد والاسترجاع والرضا عن الله عز وجل.

وقد روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن محمد بن مسلمة قال: بلغني أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله أوصني ولا تكثر عليّ. قال: «لا تتهم الله عز وجل في شيء قضاه لك». وروى أيضاً بإسناده قال لعائشة رضي الله عنها: ما كان أكثر كلام رسول الله ﷺ في بيته إذا خلا؟ قالت: كان أكثر كلامه إذا خلا في بيته «ما يُقْضَى من أمرٍ يَكنْ».

فهذا رسول رب العالمين يقول هذه المقالة وهو أعرف الخلق وأعلمهم بالله؛ فإذا وطن العبد نفسه على أن ما يقضى من أمر يكن لا محالة فإتعاب النفس والبدن فيما لا يجدي شيئاً ليس من حصافة العقل. ويعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر، فالبناء إلى نقض، والجمع إلى التفريق ومن رام بقاء ما لا يبقى كان

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

كمن رام وجود ما لا يوجد، فلا ينبغي أن يطلب من الدنيا ما لم توضع له.

فصل

وأما قوله ﷺ: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» و «إن الميت يعذب بالنياحة عليه» وقد تقدمت هذه الأحاديث، فاختلف السلف والخلف في ذلك؛ فقالت طائفة: الله يتصرف في خلقه بما يشاء وأفعال الله لا تعلل. ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه؛ لأنّ الله تعالى خالق الجميع والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل عملوه. وقالت طائفة أخرى: هذا الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ وقد أنكرتها عائشة رضي الله عنها واحتجت بقوله تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزرَ أخرى﴾[1] ثم أحاديث لم نذكرها بعد وهي مما استدلت بها عائشة رضي الله عنها (ومنها) عن عروة قال ذكر عند عائشة أن ابن عمر رضي الله عنهما يرفع ذلك إلى النبي ﷺ: «إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله». فقالت: وهل إنما قال النبي ﷺ: إنه ليعذب بخطيئته أوبذنبه وإنّ أهله ليبكون عليه الآن، وذلك مثل قول النبي ﷺ: قام على القليب يوم بدر وفيه قتلى بعض المشركين: فقال ما قال: إنهم ليسمعون ما أقول وقد ذهل. إنما قال: إنهم ليعلمون أنّ ما كنت أقول لهم حق. ثم قرأ: ﴿إنّ اللهَ يُسمِعُ مَنْ يَشَاء ومَا أنْتَ بمُسمِعٍ مَن في القبورِ﴾[2] يقول: تبوؤا مقاعدهم من النار» رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه. هكذا ساقه بطوله الحافظ الضياء.

وعن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة. قال: توفيت بنت لعثمان بمكة وجئنا لنشهدها، وحضر ابن عمر وابن عباس، وإني لجالس بينهما أو قال جلست إلى أحدهما ثم جاء الأخير فجلس إلى جنبي: فقال عبد الله بن عمر لابن عباس: ألا تنهى عن البكاء فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٨.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٢.

أهله عليه» فقال ابن عباس: قد كان عمر يقول بعض ذلك. ثم حدث قال: صدرت مع عمر من مكة حتى اذا كنا بالبيداء إذا هو بركب، حتى أتى ظل سمرة قال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟ فنظرت فإذا صهيب فأخبرته فقال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب فقلت له ارتحل فالحق أمير المؤمنين، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: واأخاه واصاحباه. فقال عمر: يا صهيب، أتبكي عليّ وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه». قال ابن عباس فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت: يرحم الله عمر، والله ما حدّث رسول الله ﷺ إنّ الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه». وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرى﴾ (١) قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: ﴿وأنّه هُوَ أضحكَ وأبْكَى﴾ (٢) قال ابن أبي مليكة: والله ما قال ابن عمر شيئاً. رواه البخاري، وهذا لفظه ومسلم.

وفي صحيحي البخاري ومسلم أن عائشة رضي الله عنها ذُكر لها أن عمر وابنه عبد الله يقول: إن الميت ليعذب ببكاء الحيّ. قالت: إنكم لتحدّثوني عن غير كاذبَيْن ولا متهمَيْن ولكن السمع يخطىء، وفي لفظ قالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن أما إنه لم يكذب ولكنه نسي وأخطأ، إنما مر رسولُ الله ﷺ على يهودية يُبْكى عليها فقال: «إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذَّب في قبرها».

وقالت طائفة أخرى: قوله إن الميت ليعذب بنوح أهله، محمولٌ على من أوصى به أو كانت من عادتهم ذلك ولم ينههم. يعني يوصي قبل موته أن لا يُحدثوا قولاً ولا فعلاً منكراً. وهذا كان مشهوراً عند العرب، وهو كثير في أشعارهم كقول طرفة:

إذا مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُه ... وشُقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤٣.

وقال لَبيد :

فقـومـا فقُـولا بـالـذي قـد علمتما ولا تخمِشا وجهـاً ولا تحلقـا شَعَـرْ
وقُـولا هــو المرء الذي لا حليفــه أضاع ولا خان الصديـقَ ولا غَـدَرْ

وقالت طائفة أخرى: وهو محمول على من سنتُه وسنة قومه البكاء والنَّوْح وقد اشتهر أن هذا معروف منهم؛ فإذا لم ينههم دخل في الوعيد، لأن ترك نهيه عن البكاء دليل على رضائه به منهم. وهذا قول عبد الله بن المبارك، وهذا القول والذي قبله هو قول واحد، وقد حكى بعض أهل العلم: أن هذين القولين متباينين ولم يظهر لي ذلك والله أعلم. وقال أبو البركات ابن تيمية رحمه الله: هذا القول هو أصح الأقوال كلها وأرجحها لأنه إذا غلب على ظنه فعلهم له ولم يوصهم بتركه فقد رضي به، وصار كمن ترك النهي عن المنكر مع القدرة عليه، فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: وقد حصل بهذا القول إجراء الخبر على عمومه في أكثر الموارد، وإنكار عائشة رضي الله عنها لذلك بعد رواية الثقات لا يُعوَّل عليه. فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره، ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد جداً خصوصاً في حق خمسة من أكابر الصحابة، وقد تقدم ذكره عن أكثر من خمسة من الصحابة. وقوله في اليهود لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الصحابة في أوقات أخر، ثم هي محجوجة بروايتها عنه أنه قال: إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه؛ فإذا لم يمتنع زيادة الكافر عذاباً بفعل غيره مع كونه مخالفاً لظاهر الآية، لم يمتنع ذلك في حق المسلم أن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر، والله تعالى أعلم.

فصل

واعلم رحمك الله أن هذه الأحاديث لا تحتاج إلى شيء من هذه التعسفات، وليس فيها بحمد الله إشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن، ولا لقاعدة من قواعد

الشرع، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره، فإن النبي ﷺ لم يقل: إن الميت ليعاقب ببكاء أهله عليه أو بنوح أهله عليه، وإنما قال إنه ليعذب بذلك. ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه، والعذاب هو الألم الذي يحصل له وهو أعم من العقاب، والأعم لا يستلزم الأخص. وقد قال النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب». وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، ويحصل للميت الألم في قبره بمجاورة أهل البدع والفسق والعصيان، ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره.

ونص الإمام أحمد على أن الموتى يتأذون بفعل المعصية عندهم؛ فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم، من لطم الخدود، وتمزيق الثياب، وخمش الوجوه وتسويدها، وقطع الشعر ونتفه، ودعا بدعوى الجاهلية، وكل هذا موجود في غالب جهال أهل زماننا، فاذا وجدت هذه الأفعال والأقوال على هذا الوجه حصل للميت الألم في قبره بذلك، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه وهذا معنى ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية.

فصل

قد يستحوذ الشيطان على المريض، فيوسوس له بأنك ستفارق المحبوبات وتخرج من الدنيا إلى مكان فظيع مُوحِش، وتلقى بين أطباق الثرى وكيف يؤلمك. فربما أسخطه على ربه وكرّهه لقاء الله عز وجل، وربما أنطقه بكلام يتضمن نوع إعراض وتسخط. ثم يوسوس لأقاربه بأنه لا بد أن يفوتكم من برّه وإحسانه ما يزيد عن الوصف، أو أنه كان قد نشأ منشأ حسناً، وقد بدأ يترقى إلى المناصب العالية، فيهيج هؤلاء على البكاء المحرّم وفعل ما لا يجوز فعله، ويهيج المريض على الحزن على فراق الدنيا. فينبغي لكلا الطائفتين أن يتداووا بالأدوية الشرعية، وقد تقدم في الباب الأول ما فيه كفاية من الأدوية الإلهية فلا حاجة إلى تكرارها، ولكن يجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن الأغلب فيمن يفارقه أنه يؤثر فراقه خصوصاً إن كان شيخاً

كبيراً، أو أنه شاب أو كهل يحجر على من ذكرته من قرابة أو ولد ونحوه، أو له خُلق شديد وأخص منه إن كان ذا مال، وقد رأيت في زماننا من كان من أصحاب الأموال وهو محسن لأهله وأقاربه، فمرض فأوصى بوصايا لأقاربه لمن ليس بوارث في الحال، فلما مات خلف مالاً جزيلاً، فاشتغل الوارث وغيره بالمال عن الحزن عليه، فأخذوا في الخصام عليه وتفرقته. فهذا وهو محسن إليهم بماله وما أخذوه فهو سريع الذهاب؛ وأما برُّه إليهم لو بقي حصل لهم أضعاف ذلك. فلا ينبغي للعبد أن يحزن لفراق من لا يحزن لفراقه. وذكر أبو القاسم بن عساكر قال: أنشدني محمد بن الأشعث لنفسه في ذمّ الحزن من حيث هو:

قلم القضاء جرى بكل مكوَّن ... يا صاحب الأحزان ماذا تحزن!
إن كان سخطك ليس يجلب راحة ... فرضاك بالبلوى أحق وأحسن

والثاني: الرجاء لملاقاة من هو أحب إليه منه، وما من مؤمن يموت فيؤثر الرجوع إلى الدنيا ولو أنها جميعها له إلا الشهيد، فإنه يحب الرجوع ليقاتل مرة أخرى لما يرى من عظم أجر الشهادة كما سيأتي ذكره بعد. وقد روى الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: «ما من نفس مؤمنة مسلمة يقبضها ربها عز وجل تحب أن تعود إليكم وأنّ لها الدنيا وما فيها».

فصل
فيما ذكر في النعي

وهو إعلام الناس بموت الشخص على ما يفعله أهل زماننا بالكبير أو بالمشهور ويرسلون منادياً يُعْلم الناس به، قال العلامة ابن القيم في الهُدى: وكان من هديه ﷺ ترك نعي الميت بل كان ينهى عنه ويقول: «هو من عمل الجاهلية» انتهى كلامه.

وقال الحافظ ضياء الدين رحمه الله في أحكامه: باب كراهة النعي، وساق في الباب ثلاثة أحاديث، منها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ

قال: « إياكم والنعي فإن النعي من عمل الجاهلية » قال عبد الله: أذان بالميت. رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

وعن حذيفة قال: إذا مت فلا تؤذنوا بي أحداً إني أخاف أن يكون نعياً، فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النعي. رواه الإمام أحمد وابن ماجه والترمذي وهذا لفظه وحسنه.

وعند ابن ماجه كان حذيفة إذا مات له الميت قال: لا تؤذنوا به أحداً إني أخاف أن يكون نعياً، إني سمعت رسول الله ﷺ بأُذُنَيَّ هاتين ينهى عن النعي. وروى أحمد أيضاً هذه الزيادة كما رواها ابن ماجه، لكن لم يقل بأذنيّ هاتين.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أخبرنا ابن عون قال قلت لإبراهيم: أكان النعي يكره؟ قال: نعم. قال إبراهيم: إذا توفي الرجل يركب [1] رجل دابته ثم صاح في الناس: أنعي فلاناً.

وبإسناده إلى ابن عون قال: سمعت بالكوفة أن شريحاً كان لا يؤذن بجنازة أحد، فذكرت ذلك لمحمد بن سيرين فقال: إنّ شريحاً كان مكياً، ما أعلم به بأساً أن يُؤذن الرجل صديقه، ويؤذن الرجل جَمعه.

وذكر بإسناده حدثنا حماد عن إبراهيم أنه قال: لا بأس إذا مات الرجل أن يؤذن صديقه وأصحابه إنما يكره أن يطاف في المجالس فيقال: أنعي فلاناً فعل الجاهلية.

وقد روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: « ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول واجبلاه واسنداه أو نحو ذلك إلا وكل الله به ملكان يلمزانه أهكذا كنت » قال الترمذي: حديث حسن.

والمقصود أن هذه الأحاديث دالة على النهي، وأنه من فعل الجاهلية، لكن الأحاديث التي ذكرناها، منها ما يدل على أن النعي إعلام الناس بأنّ فلاناً قد

---

(١) هكذا بالأصل ولعله « ركب » كما يقتضيه السياق.

مات، ومنها ما يدل على أن النعي هو تعداد صفات الميت، فالظاهر أنّ كلاهما نعي والله أعلم. وما يفعله الناس اليوم في زماننا من إعلام الناس بالميت والمناداة له. فهو من البدع المنهى عنها. كما ورد في الحديث؛ فإنه مفض إلى تأخير الميت لأجل اجتماع الناس له تأخيراً زائداً عن الحدّ، ويتركون السنة التي من شأنها الإسراع بالجنازة كما ثبت في سنن أبي داود: أن أبا طلحة بـن البراء مرض فأتاه النبيّ ﷺ يعوده فقال: « إني أرى طلحة قد حدث فيه الموت فأذنوني به وعجلوا، فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله ».

وإن كان المراد النعي بالذي هو تعداد صفات الميت فيقال: الذي ينبغي أن يقال: لا بأس بالكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط، فلا يحرم ولا ينافي الصبر ولا يكون من النهي عنه، بل قد نص الإمام أحمد رحمه الله أن الكلمات اليسيرة من الصدق لا تنافي الصبر الواجب، يؤيد ذلك ما ثبت في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه، فقال: « ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم » فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه؛ فلما دفن رسول الله ﷺ قالت فاطمة: أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ ؟ وعن أنس أيضاً أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه، ووضع يده على صدغيه، وقال: وانبيّاه، واخليلاه، واصفيّاه رواه الإمام أحمد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصفّ بهم، وكبّر عليه أربع تكبيرات. رواه البخاري ومسلم. وفي لفظ لهما فقال: استغفروا لأخيكم. وقد تقدّم قول النبي ﷺ : وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون.

وهذا ونحوه من الأقاويل التي تقدّمت ليس فيها تسخّط على الرب تبارك وتعالى بما قضاه وقدّره، ولا ينافي الصبر الواجب، ولا يأثم به قائله، والله أعلم.

الباب الرابع
فيمن أصيب بفقد ثلاثة من الولد فأكثر

قال البخاري: باب فضل من مات له ولد فاحتسب. وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث ثنا عبد العزيز عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم من الناس يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» ورواه مسلم من وجه آخر عن أنس.

قوله «لم يبلغوا الحنث» أي لم يبلغوا سنّ التكليف الذي يكتب فيه الحنث.

وروى البخاري من حديث سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحِلّة القسم» ورواه مسلم من هذه الطريق أيضاً. قال العلماء: «تحلة القسم» ما ينحل به القسم وهو اليمين. وجاء مفسراً في الحديث أن المراد به قوله تعالى: ﴿وإن مِنكُم إلاَّ واردُها﴾ (٢) وبهذا قال أبو عبيد وجمهور العلماء. والقسم مقدّر أي: والله إن منكم إلا واردها. وقيل: المراد قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحشُرنَّهم والشَّياطينَ﴾ (٣) وقال ابن قتيبة: معناه تقليل مدة ورودها: قال: وتحلة القسم في هذا في كلام العرب، وقيل تقديره: ولا تحلة القسم أي لا تحلة أصلاً ولا قدْراً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٨.

يسيراً تحلة القسم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وإنْ منكُم إلاَّ واردُها﴾[1] المرور على الصراط وهو على جهنم. وقيل: الوقوف عندها أعاذنا الله وإياكم منها.

وروى مسلم أيضاً هذا الحديث معنى تحلة القسم، عن أبي بكر بن أبي شيبة وعمرو بن الناقد وزهير بن حرب ثلاثتهم عن سفيان بن عيينة به. ورواه أيضاً من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهريّ به. ورواه أيضاً حدثنا يحيى بن يحيى قرأت على مالك عن شهاب عن ابن المسيب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلّة القسم».

ورواه الترمذي من حديث مالك به وقال: حسن صحيح. قال الترمذي في الباب: عن معاذ وعمر وكعب بن مالك وعتبة بن عبيد وأمّ سليم وعائشة وأنس وأبي ذرّ وابن مسعود وأبي ثعلبة الأشجعي وابن عباس وعتبة بن عامر وأبي سعد وقرّة بن إياس.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق أخبرنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله الجنة وآباءهم بفضل رحمته». قال: يقال لهم ادخلوا الجنة: قال: يقولون حتى يجيء أبوانا. قال ثلاث مرات فيقولون مثل ذلك. قال «فيقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم» وروى البخاري من حديث ذكوان عن أبي سعيد أن النساء قُلْن للنبي ﷺ: اجعل لنا منك يوماً، فوعظهن وقال: «أيُّما امرأةٍ مات لها ثلاثة من الولد كنَّ لها حجاباً من النار، قالت امرأة: واثنان. قال: واثنان» وقال شريك عن ابن الأصبهاني ثنا أبو صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال أبو هريرة: لم يبلغوا الحنث. وقد روى الحديث محمد بن سيرين وأبو رزين وأبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة.

وأخرج مسلم حديث أبي سعيد من حديث شعبة به وعنده: فقالت امرأة:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

واثنين واثنين واثنين يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين واثنين واثنين» وهذا الذي علقه البخاري عن شريك عن ابن الأصبهاني قد رواه هو ومسلم من حديث غندر عن شعبة عن ابن الأصبهاني عن أبي حازم عن أبي هريرة وقال فيه: لم يبلغوا الحنث وقال عثمان بن إبراهيم المؤذن: حدثنا عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يموت لهماثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث إلا أدخلهم الله وأبويهم الجنة. قال: يكونون على بـاب مـن أبـواب الجنة فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم». ورواه النسائي من حديث إسحاق بن يوسف الأزرق عن عوف الأعرابي.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لإحداكنّ ثلاثة من الولد فنحتسبه إلا دخلت الجنة» فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: «أو اثنين».

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب النساء فقال: «ما منكنّ امرأة يموت لها ثلاثة إلا أدخلها الله الجنة» فقالت أجلهن امرأة: يا رسول الله وصاحبة الاثنين؟ فقال: «وصاحبة الاثنين في الجنة».

وروى أحمد أيضاً من حديث أمّ سليم بنت ملحان وهي أم أنس بن مالك قالت قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته» قالها ثلاثاً. قلت: يا رسول الله واثنان! قال «وإثنان» وروى المثنى عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب عن أم مبشر أن رسول الله ﷺ قال: «من هلك له ثلاثة من الولد فصبر واحتسب أُدخِلَ الجنة» فقلت: يا رسول الله وإثنان! قال «وإثنان».

وروى مسلم في صحيحه من حديث طلق بن معاوية عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتت امرأة بصبيّ لها فقالت: يا نبيّ الله ادع الله فلقد دفنت ثلاثة. فقال: «دَفَنْتِ ثلاثة» قالت: نعم قال «لقد احتظرت بحِظارٍ شديد

من النار».

وقال البخاوي في تاريخه قال علي بن هاشم حدثني نصر بن عمر بن يزيد بن قبيصة قال حدثني أبي عن قبيصة بن برمة قال: كنت عند النبي ﷺ جالساً إذ أتته امرأة فقالت: يا رسول الله أدع الله لي فإنه ليس يعيش لي ولد. قال: «وكم مات لك؟» قالت: ثلاثة. قال: «لقد احتظرت من النار بحظار شديد».

وقال سعيد بن منصور حدثنا عبيد الله بن زياد ثنا أبي عن زهير بن أبي علقمة قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ في ابنٍ لها مات وكان القوم عنفوها. فقالت: يا رسول الله قد مات لي إبنان منذ دخلت في الإسلام سوى هذا. قال: «لقد احتظرت من النار حظاراً شديداً» قال جماعة من الحفاظ: إسناد صحيح لكن لا صحبة لزهير هذا فيكون مرسلاً.

أما قوله ﷺ لقد احتظرت بحظار شديد من النار، اي امتنعت بمانع وثيق، وأصل الحظر المنع، وأصل الحظار بكسر الحاء وفتحها ما يجعل حول البستان وغيره من القضبان وغيرها كالحائط.

وفي هذه الأحاديث دليل على كون أطفال المسلمين في الجنة. وقد نقل جماعة من العلماء إجماع المسلمين على ذلك، قال الماوردي: أما أولاد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فالإجماع محقق في الأطفال على أنهم في الجنة، وأما أطفال من سواهم من المسلمين فجماهير العلماء على القطع لهم بالجنة. قالوا: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإيمانٍ أَلحَقْنَا بِهِمْ ذرِّيَّتَهُم﴾ (١) وتوقف بعض المتكلمين منهم وأشار أنه لا يقطع لهم كالمكلفين، وهو خطأ. ولكنهم مستندين إلى حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيح: توفي صبيٌّ من الأنصار فقالت عائشة: طوبَى له، عصفورٌ من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» وفي

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

الحديث الآخر: إن الغلام الذي قتله الخِضرَ طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً، أجاب العلماء عن ذلك بأن النبي ﷺ: إنما نهى عائشة عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبي وقاص في قوله: أعطه إني لأراه مؤمناً قال أو مسلماً. قال النووي رحمه الله في شرح مسلم: فيحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة، فلما علم قال ذلك في قوله ﷺ «ما من مسلم يموت له ثلاث من الولد لم يبلغوا الحِنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» وغير ذلك. انتهى كلامه.

وقد تقدم عدّة من الأحاديث تدل على ذلك كما سيأتي ما هو أتم من ذلك وأبين. وما ورد من الأحاديث في الثلاثة من الولد ثم سُئل عن الاثنين فقال: واثنين، فمحمول على أنه أُوحي اليه عند سؤال الاثنين، وكذلك عند سؤال الواحد في بعض الألفاظ والله تعالى أعلم.

وروى الإمام أحمد بإسناده عن شرحبيل بن شفعة قال: سمعت عتبة بن عبدٍ السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يُتَوفَّى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تَلَقّوْه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل» ورواه ابن ماجه من حديث جرين بن عثمان الحمصي به.

وروى أحمد من حديث المغيرة ثنا جرير ثنا شرحبيل بن شفعة عن بعض الصحابة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يقال للولدان يوم القيامة ادخلوا الجنة فيقولون يا ربنا. حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا قال فيقول الله تعالى مالي أراكم محنبطين ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم».

وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون عن هشام عن ابن سيرين: بينا امرأة كانت تأتينا يقال لها مارية كانت ترزأ في ولدها، فلقيت عبد الله بن معمر القرشي ومعه رجل من أصحاب النبي ﷺ فحدث ذلك الرجل أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: ادع الله أن يبقيه لي فقد مات لي قبله ثلاثة فقال: «منذ أسلمتِ؟» قالت: نعم، فقال: «جنة حصينة» وروى أيضاً منفرداً به، لكنه من

حديث ابن لهيعة عن أبي عسانة أنه سمع عقبة بن عامر يقول عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أنكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على الله وجبت له الجنة» وروى أيضاً في مسنده من حديث صعصعة بن معاوية قال: أتينا أبا ذرّ قلت: ما لك؟ قال: لي عملي، قلت: حدثني، قال: نعم! قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة من أولادهما لم يبلغوا الحنث إلا غفر لهما» ورواه النسائي عن إسماعيل بن مسعود عن بشر بن المفضل عن يونس بن عبيد عن الحسن عن صعصعة.

وثَمَّ طريق أخرى عن أبي ذرّ حدثنا عبد الملك بن عمرو ثنا قرّة عن الحسن عن صعصعة بن معاوية قال: لقيت أبا ذرّ بالربذة، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله ابتدره حجبة الجنة» وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا حِنثاً إلا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم».

فصل

فيمن أصيب بفقد الأربعة من الولد

قال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي حدثني بشر بن المفضل عن داود بن أبي هند عن عبد الله بن قيس عن الحارث ابن أقيس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يموت بينهما أربعة أولاد إلا أدخلهم الله الجنة» قالوا يا رسول الله وثلاثة؟ قال: «وثلاثة»، قالوا يا رسول الله وإثنان؟ قال «وإثنان، وإن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها، وإن من أمتي لمن يدخل بشفاعته الجنة أكثر من بمصر»[1]. وروى ابن ماجه منه، وإن من أمتي الخ عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان عن داود بن أبي هند به.

---

(١) كذا بالأصل، ولعله يريد بالمصر: البلد، يريد بذلك الكثرة. والله أعلم.

وروى داود بن أبي هند عن عبد الله بن قيس الأسدي عن الحارث بن أقيس، قال: كنا عند أبي بردة ليلة فحدّث ليلته عن النبي ﷺ يقول: «ما من مسلمين يموت لهما أربعة أفراط إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته» قالوا يا رسول الله وثلاثة؟ قال «وثلاثة» قالوا وإثنان؟ قال «وإثنان» وذكر تمام الحديث. وقد ذكر بعضهم أنه رواه الإمام أحمد ولكني لم أره.

وروى النسائي من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن بكير ابن الأشج: حدثني عمران بن نافع عن حفص بن عبيد الله عن جده أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة» وروى الهيثم بن جميل عن الأحوص عن عاصم الأحول عن أنس قال: توفي للزبير ولد فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله سَخِّ أنفسنا عن أولادنا. فقال: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجاباً من النار».

وروى عبد الحكيم بن منصور عن يونس على ابن سيرين عن عبيدة السلماني عن الزبير بن العوام عن النبي ﷺ قال: «من مات له ثلاثة من الأولاد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجاباً من النار».

وروى الإمام أحمد من حديث لقمان بن عامر عن أبي أمامة عن عمرو بن عنبسة قال: قلت له حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا زيادة. قال: سمعته يقول: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدوّ أصاب أو أخطأ كان له بعَدْل رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها» وكذا رواه عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن أنس عن أبي طيبة عن عمرو بن عنبسة السلمي فذكر نحوه. ورواه الوضين عن عطاء عن محفوظ بن علقمة عن ابن عائذ عن عمرو بن عنبسة به.

وقال عبد الرزاق سمعت هشام بن حسان عن ابن سيرين عن يزيد بن أبي بكرة حدثتني حبيبة ـ يعني بنت سهل ـ ويقال بنت أبي سفيان أنها كانت عند عائشة رضي الله عنها فجاء النبي ﷺ فقال: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد إلا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم» وكذا روى محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبان بن صمغة عن محمد بن سيرين عن يزيد بن أبي بكرة عن حبيبة أنها كانت في بيت رسول الله ﷺ فجاء فجلس فقال: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أطفال لم يبلغوا الحنث إلا جيء بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة فيقال ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا» قال ابن سيرين: فلا أدري في الثانية أو الثالثة، فيقال لهم ادخلوا أنتم وآباؤكم. فقالت عائشة أسمعت؟ قالت: نعم.

وقال الترمذي وروى الأبار قلت: ـ هو أبو حفص اسمه عمر بن عبد الرحمن ـ عن الأعمش عن ذرّ عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبي أبزي عن أبيه عن محمد بن وهب أن النبي ﷺ قال لامرأة: «هل لك من فَرَط» قالت: ثلاثة. قال: «جنة حصينة».

وروى عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة عن يزيد بن الحكم عن عثمان بن أبي العاص أن النبي ﷺ قال «لقد استجنّ بجنة حصينة من النار رجلٌ سلف بين يديه ثلاثة من صلبه في الإسلام».

وعن أم ذرّ قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت فقال: أبشري ولا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يموت بين امرأين مسلمَيْن ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً» وقد مات لنا ثلاثة من الولد، رواه الحافظ أبو موسى المديني.

وقال مالك في الموطأ عن محمد بن أبي بكر عن أبيه عن أبي النضر السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّةً من النار، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله أو إثنان، قال «أو

ثنان». قال أبو عمر بن عبد البر: هكذا رواه القعنبي ويحيى بـن يحيى عن مالك، وقال الآخرون: عن مالك بإسناده عن أبي النضر. قال: وهذا مجهول في الصحابة والتابعين انتهى كلامه.

(قلت): كذا قال ابن عبد البر، وليس بمجهول كما قال، فإن مسلم رحمه الله قال في كتاب الكنى والأسامي: أبو النضر عبد الأعلى بن هلال السلمي عن عرباض بـن سارية، وروى عنه عامر بن خصيف فهو تابعي.

وروى إسماعيل بن يحيى التيمي عن موسى الجهني عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها. قالت: قال النبي ﷺ: «من قدّم ثلاثة من ولده صابراً محتسباً حجبوه بإذن الله من النار».

وروى البخاري في تاريخه من طريق أبان بن صمغة عن ابن سيرين حدثتنا حبيبة خادمة عائشة. أنها كانت في بيت عائشة قاعدة. فدخل رسول الله ﷺ فقال: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أطفال إلا أدخلهما الله الجنة» وفي الأربعين لنصر بن عبد الرزاق: ذكر عن عليّ بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «إني رأيت البارحة عجباً رأيتُ رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة فجاءه وضوءه فاستنقذه، ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطُه فثقّلوا ميزانه» وهو مقتطع من حديث طويل يأتي.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دفن من صلبه ثلاثة من الولد كنت أنا وهو في الجنة كهاتين» رواه بسنده الحافظ ابن عساكر.

(قلت) وهذه الأحاديث ـ على اختلاف ألفاظها واتفاق معانيها غالباً وسيأتي بعد ذلك ما هو مثلها وما هو أتم وأبين إن شاء الله ـ كلها تدلّ على أنها وقعت من النبي ﷺ في مجالس متعدّدة، ويدل على اهتمامه واعتنائه ورحمته وشفقته بأمته، إذ كل حديث من هذه الأحاديث فيه تسلية للأمة عن أولادها،

بل تدل بفحوى الخطاب على أن الشارع ﷺ أراد تسلية الوالدين عن أولادهما بما أعدّ الله لهما من الثواب الجزيل على المصيبة، والصبر عليها، فإن اتفق مع ذلك الرضى بها وكتمانها عن الخلق وطلبها وتلقيها بالقبول كان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الباب الخامس
فيمن أصيب بفقد ولدين

قال مسلم في صحيحه: حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه أبي السليل بن نفير عن أبي حسان وهو خالد بن علان، قال: قلت لأبي هريرة رضي الله عنه: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدّثي عن رسول الله ﷺ بحديث يطيب أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم، قال: «صغارهم دعاميص الجنة فيلقى أحدهم أباه أو قال أبويه بثوبه أو قال بيده كما آخذ أنا بصَنِفَة ثوبك هذا فلا يتناهى ـ أو قال ينتهي ـ حتى يدخله وإياه الجنة» ورواه الإمام أحمد.

أما قوله ﷺ: «صغارهم دعاميص الجنة» هو بالدال والعين والصاد المهملات، واحدهم: دعموص، بضم الدال أي صغار أهل الجنة. قال الشاعر:

إذا التقى البحران عم الدعموص نفى أن يسبح أو يغوص

وأصل الدعموص: دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي هذا الصغير في الجنة لا يفارقها. وأما قوله «صنفة ثوبك» هي بفتح الصاد وكسر النون، وهي طَرَفُه، ويقال لها أيضاً: صنيفة. وأما قوله فلا يتناهى أو قال ينتهي حتى يدخله الله وإياه الجنة: يتناهى وينتهي بمعنى واحد، أي لا يتركه، والله تعالى أعلم.

وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو هشام الرفاعي ثنا ابن فضيل ثنا بشير بن مهاجر عن ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يأتي الأنصار ويعودهم ويسأل عنهم، فبلغه أن امرأة من الأنصار مات ابنٌ لها فجزعت عليه، فأتاها فأمرها رسول الله ﷺ بتقوى الله عز وجل والصبر. قالت: يا رسول الله، إني امرأة رقوب لا ألد ولم يكن ولد غيره. فقال رسول الله ﷺ: «الرقوب التي يبقى ولدها». ثم قال: «ما من امرىء مسلم ولا امرأة مسلمة يموت لها ثلاثةٌ من

الولد إلا أدخلها الله عز وجل الجنة » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وإثنان قال « وإثنان » ورواه البزار في مسنده عن أحمد ابن عمر عن جعفر بن عون عن بشير بن المهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه به وعنده فقالت: يا رسول الله كيف لا أجزع وأنا رقوب لا يعيش لي ولد. فقال: إنما الرقوب التي يعيش ولدها. وعنده. فقال عمر وهو على يمين رسول الله ﷺ: وإثنان. قال « وإثنان » وهو على شرط مسلم.

وقال الإمام أحمد ثنا عفان ثنا وهيب ثنا عبد الله بن عثمان عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر أن أبا ذر رضي الله عنه حضره الموت وهو بالربذة، فبكت امرأته. فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكي أنه لا يَدَ لي بنعشك وليس عندي ثوب يسع لك كفناً. فقال: لا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده في نفرٍ يقول: « ليموتن رجل منكم مسلم بفلاة من الأرض يشهده عصبة من المؤمنين » وكل من كان في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية ولم يبق منهم غيري، وقد أصبحت بالفلاة أموت فراقبي الطريق، فإنك سوف تَرَيْن ما أقول فإني والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ » قالت وأنّى ذلك وقد انقطع الحاج؟ قال: راقبي الطريق، فبينما هي كذلك إذ هي بقوم تجذبهم رواحلهم كأنهم الرخم، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها. فقالوا: ما لك؟ قالت: امرأ من المسلمين تكفنوه وتؤجرون فيه. قالوا: من هو؟ قالت: أبو ذر؛ ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ووضعوا أسياطهم في نحورها يبتدرونه. فقال: أبشروا أنتم النفر الذين قال رسول الله ﷺ فيكم ما قال، أبشروا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من امرأين مسلمين هلك بينهما ولدان أو ثلاثة فاحتسبا وصبرا فيريان النار أبداً ». ثم قال: « قد أصبحت اليوم وحيث ترون ولو أن ثوباً من ثيابي يسعني لم أُكَفَّن إلا فيه فأنشدكم لا يكفيني رجل منكم كان أميراً أو عزيفاً أو بريداً، فكل القوم كان قد نال من ذلك شيئاً إلا فتى من الأنصار كان مع القوم، قال: أنا صاحبك، ثوبان في عيبتي من غزل أمي وأحد ثوبيّ هذين اللذين عليّ. قال: أنت صاحبي فكفني » تفرد به أحمد.

وقال أحمد ثنا حماد بن مسعدة ثنا جريج عن أبي الزبير عن عمرو بن نبهان عن أبي ثعلبة الأشجعي قال قلت: مات لي يا رسول الله ولدان في الإسلام. قال: « من مات له ولدان في الإسلام أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهما ». قال فلما كان بعد ذلك لقيني أبو هريرة فقال أنت الذي قال لرسول الله ﷺ في الولدين ما قال؟ قلت: نعم. قال: لأن يكون ما قاله لي أحَبَّ إليَّ مما غُلِقَتْ عليه حمص وفلسطين.

وروى الإمام أحمد أيضاً في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب النساء فقال لهن: « ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة إلا أدخلها الله عز وجل الجنة » فقالت أجلهن امرأة: يا رسول الله وصاحبة الاثنين في الجنة؟ قال « وصاحبة الاثنين في الجنة ».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله. قال: اجتمعن في يوم كذا وكذا فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ يعلمهنّ مما علمه الله ثم قال: « ما منكنّ من امرأة تقدّم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كانوا لها حجاباً من النار » فقالت امرأة: واثنين واثنين واثنين؛ فقال رسول الله ﷺ « واثنين واثنين واثنين » رواه البخاري ومسلم ولفظه لمسلم.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: أوجب الثلاثة. قال معاذ: وذو الاثنين يا رسول الله. قال: وذو الاثنين. رواه الإمام أحمد.

عن ذكوان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إن النساء قلن: غلبنا عليك الرجال يا رسول الله فاجعل لنا يوماً نأتيك فيه، فواعدهنّ ميعاداً فأمرهنّ ووعظهنّ وقال: « ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار ». فقالت امرأة: واثنين، فإنه مات لي إثنان، فقال رسول الله ﷺ: « وإثنين ». هذا لفظ البخاري، وقد تقدم لفظ مسلم. ورواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة وابن مسعود، وقد تقدم.

الباب السادس
فيمن أصيب بفقد ولد واحد

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق ثنا حماد بن مسلم عن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة فأخرجني. فقال: ألا أبشرك، قال: قلت بلى. قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: يا ملك الموت قبضتَ ولدَ عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسمُّوه بيتَ الحمد. وهكذا رواه الترمذي عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن أبي سنان عيسى بن سنان عن أبي طلحة الخولاني به. وقال حسن غريب، ورواه ابن حبان ورواه أبو القاسم بن عساكر ولفظه: إذا مات ولد العبد قال الله عز وجل لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم، قال: فماذا قال؟ قالوا: استرجع وحَمِدَك. قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسمُّوه بيت الحمد. ورواه البيهقي موقوفاً على أبي موسى ولفظه. قال: إذا قبض الله ولداً لرجل ـ قال والله أعلم بما قال العبد ـ قال فيقال للملائكة أقبضتم ولد فلان؟ فذكر نحو الذي قبله.

وقال أحمد حدثنا يزيد بن هرون أنبأ العوام عن محمد بن أبي محمد مولى لعمر ابن الخطاب عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من أولادهما لم يبلغوا الحِنث إلا كانوا لهما حصناً حصيناً من النار» فقال أبو ذر: مضى لي إثنان يا رسول الله. قال: «وإثنان». فقال أبيّ بن كعب أبو المنذر وسيد القراء: مضى لي واحد يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وواحد وذلك في الصدمة الأولى» ورواه

الترمذي وقال غريب وابن ماجه جميعاً عن نصر بن علي عن إسحاق بن يوسف عن العوام بن حوشب عن أبي محمد مولى عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود مرفوعاً فذكره. وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدُّون فيكم الرقوب؟» قلنا: الذي لا ولد له. قال: «لا ولكن الرقوب الذي يقدّم من ولده شيئاً». ورواه مسلم من حديث الأعمش. ورواه البيهقي ولفظه. أن امرأة قالت: أنا رقوب لا يعيش لي ولد. فقال: «إنما الرقوب التي يعيش ولدها، أما تحبين أن تَرَيْنَهُ على باب الجنة وهو يدعوك إليها؟» قالت: بلى! قال: «فإنه كذلك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ثنا شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابنٌ له فقال له النبي ﷺ: أتحبه؟ فقال: يا رسول الله «أحبَّك الله كما أحبُّه». ففقده النبي ﷺ فقال ما فعل ابن فلان؟ قالوا يا رسول الله مات. فقال النبي ﷺ لأبيه: «أما تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟» فقال رجل: يا رسول الله أله خاصة أو لكلنا؟ قال «بل لكلكم» ورواه النسائي من حديث شعبة بمثله.

وفي رواية أخرى من حديث هلال بن زيد بن أبي الزرقاء عن أبيه عن خالد ابن ميسرة عن معاوية بن قرّة عن أبيه. قال: كان نبي الله ﷺ إذا جلس جلس إليه نفر من أصحابه ومنهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه، فهلك فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة بذكر ابنه فحزن عليه[1] ففقده النبي ﷺ فقال: ما لي لا أرى فلاناً؟ فقالوا: يا رسول الله بُنَيُّهُ الذي رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ فسأله عن بُنَيِّه فأخبره بأنه هلك، فعزاه عليه. ثم قال: «يا فلان، أيما كان أحبَّ إليك، أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غداً إلى باب من

(١) كذا في الأصل «بذكر ابنه فحزن عليه» ولعله: يذكر ابنه فيحزن عليه.

أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» قال: يا رسول الله، بل يسبقني إلى باب الجنة يفتحها لي أحبٌّ إليّ. قال: «فذلك لك» رواه النسائي، وهذا لفظه. ورواه الإمام أحمد والبيهقي وزادا فقال رجل: يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا؟ قال: «بل لكلكم» فذكر مثل الذي قبله.

ورواه البيهقي من طريق أخرى وفيه: فقام رجل من الأنصار. فقال: يا نبيَّ الله جعلني الله فداك، أهذا لهذا خاصة أو من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له؟ قال: «بل من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له».

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يحيى بن إسحاق من كتابه أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن حسان بن كريب أن غلاماً منهم توفي، فوجد عليه أبوه أشدّ الوجد. فقال حوشب صاحب النبي ﷺ: ألا أخبرك بما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في مثل ابنك: إن رجلاً من الصحابة كان له ابن قد دبّ أو أدرك وكان يأتي مع أبيه إلى النبي ﷺ ثم توفي فوجد عليه أبوه قريباً من ستة أيام لا يأتي النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: «لا أرى فلاناً»! فقالوا: يا رسول الله إن ابنه توفي فوجد عليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان أتحب لو أن ابنك عندك الآن كأنشط الصبيان نشاطاً؟ أتحب أن ابنك عندك أجرى الغلمان جرية؟ أتحب أن ابنك عندك كهلاً كأفضل الكهول. أو يقال لك: ادخل الجنة ثواب ما أخذ منك؟» وقد ورد هذا الحديث بعدّة طرق عن أنس بن مالك وبريدة بن الخصيب الأسلمي وغيرهما.

وروى الطبراني في معجمه من حديث إبراهيم بن عبيد بن رفاعة الزرقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «أن رجلاً من الأنصار كان له ابنٌ يروح إذا راح إلى النبي ﷺ فسأله عنه، فقال: «أتحبه» فقال: يا نبيّ الله نعم، أحبك اللهُ كما أحبُّه. فقال: «إن الله أشدَّ لي حُبّاً منك له». فلم يلبث أن مات ابنه ذاك، فراح إلى نبيّ الله وقد أقبل بَثُّه[1]، فقال له نبيُّ الله: «أجزعْت؟» قال: نعم!

(١) أقبل بثه: أي ظهر حزنه. والبث: أشدّ الحزن.

قال: « أو ما ترضى أن يكون ابنك مع ابني إبراهيم يلاعبه تحت ظل العرش؟ » قال: بلى يا رسول الله. هذا حديث غريب.

وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعاهد الأنصار ويعودهم ويسأل عنهم، فبلغه أن امرأة من الأنصار مات ابنٌ لها فجزعت عليه فأتاها فأمرها ﷺ بتقوى الله عز وجل والصبر، فقالت: يا رسول الله إني امرأة رقوب لا ألد ولم يكن لي ولد غيره. فقال رسول الله ﷺ: « الرقوب التي يبقى ولدها »، ثم قال: « ما من امرىء مسلم ولا امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة من الولد إلا أدخلهما الله عز وجل الجنة ». فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وإثنان قال « وإثنان ».

ورواه البزار في مسنده ولفظه. فقالت: يا رسول الله، كيف لا أجزع وأنا رقوب لا يعيش لي ولد. فقال: « إنما الرقوب التي يعيش ولدها... وذكر تمام الحديث ».

ورواه أحمد من حديث معاذ بن جبل وفيه. قال: وإثنان. قال: « وإثنان »، قالوا: وواحد. قال: « وواحد ». وقد تقدم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صَفِيَّهُ من المال والولد فصبر إلا أن أُدخِلَه الجنة » رواه ابن عساكر وإسناده فيه ابن لهيعة، والكلام فيه معروف.

وروى أيضاً من حديث المنهال بن خليفة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من أهل الأساطين[1] معروفاً بذلك ففقده النبي ﷺ فقال: ما فعل فلان. فقالوا: ابنه شكى وهو يمرّضه، فأرسل إليه رسول الله ﷺ يسأله عن ابنه فوجده قد مضى، وجاء الرجل مع رسول رسول الله ﷺ إلى رسول الله

(١) أي من الملازمين للمسجد. والأساطين: عمد المسجد، جمع أسطوانة.

ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما حبسك عنا؟» قال: إني كنت أُمَرِّضُه حتى مضى. فقال رسول الله ﷺ: «أتحبُّه؟» قال: نعم. قال: «أجزعت عليه؟» قال: نعم شديداً، قال: «فما يسرُّك أن يكون بارِكاً على باب من أبواب الجنة، يقول يا أبه أنا ذا فأتني!» قال: بلى يا نبي الله. فقال المسلمون عند ذلك: يا رسول الله فمن أصابه منا مصيبة كان ذلك له. قال: «نعم إذا صبر واحتسب».

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الأمراض والكفارات عن محمد بن خالد بن السلمي عن أبيه عن جده ـ وكانت لجده صحبة ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سبقت للعبد من الله عز وجل منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله ثم صبَّره حتى يُبلِّغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل.

وروى أيضاً بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» ورواه الترمذي ومالك في الموطأ.

وعن أنس بن مالك. قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «إذا وجهت إلى عبدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصِب له ميزاناً أو أَنْشُرَ له ديواناً» رواه ابن عديّ في الكامل.

فصل

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن الحسين ثنا داود بن المحبر ثنا سوادة بن الأسود قال سمعت أبا خليفة العبديّ قال: مات ابنٌ لي صغير فوجدت عليه وجداً شديداً وارتفع عني النوم، فوالله إني لذات ليلة في بيتي على سريري وليس في البيت أحدٌ غيري وإني لمفكر في إبني، إذ ناداني مناد من ناحية البيت: السلام عليكم ورحمة الله يا أبا خليفة. فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله. قال:

ـ ورعبت رعباً شديداً ـ قال: فتعوذ ثم قرأ آيات من آخر سورة آل عمران حتى انتهى إلى هذه الآية ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾[1]. قال: يا أبا خليفة. قلت: لبيك قال: ماذا تريد؟ تريد أن تخص بالحياة في ولدك دون الناس أنت أكرم على الله أم محمد ﷺ وقد مات ابنه إبراهيم. وقال «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخِط الربّ» أم ماذا تريد؟ تريد أن يرتفع الموت عن ولدك وقد كتب على جميع الخلق؟ أم ماذا تريد؟ تريد أن تسخط الله في تدبير خلقه؟ والله لولا الموت ما وسعتهم الأرض، ولولا التأسي ما انتفع المخلوقون بعيش. ثم قال: ألك حاجة؟ قلت: من أنت رحمك الله. قال: امرؤٌ من جيرانك من الجنّ.

قال الحافظ أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد ثنا محمد بن عبدوس ثنا أبو هاشم ثنا محمد بن كاسه. قال: لما مات ذر بن عمر بن ذرّ وكان موته فجأة، أتاه أهل بيته يبكونه فقال: ما لكم إنا والله ما ظلمنا ولا قهرنا ولا ذهب لنا بحق ولا أُخطِئَ بنا ولا أريد غيرنا وما لنا على الله معتب؛ فلما وضعه أبوه في قبره. قال: رحمك الله يا بنيّ، لقد كنت بي باراً ولقد كنت عليك حدباً وما بي إليك من وحشة ولا إلى أحد بعد الله فاقة ولا ذهبت لنا بعزّ ولا أبقيت علينا من ذلّ، وقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذرّ. لولا هول المطلع ومحشره لتمنيتُ ما صرتَ إليه. فليت شعري يا ذرّ ماذا قيل لك؟ وماذا قلت؟ ثم قال: «اللهم وعدتني الثواب بالصبر على ذرّ، اللهم فعلى ذر صلواتك ورحمتك، اللهم إني قد وهبت ما جعلتَ لي من أجر على ذرّ صلةً مني فلا تعرنه قبيحاً وتجاوز عنه فإنك أرحم به مني، اللهم إني قد وهبت إساءته إليّ فهب له إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم» فلما ذهب لينصرف .قال: انصرفنا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك.

ورواها من وجه: أن ذرّ لما مات قال أصحابه: الآن يضيع الشيخ ـ يعني ـ والده؛ فإنه كان باراً به فسمعها الشيخ فبقي متعجباً، ثم التفت إليهم وقال:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٨.

أضيعُ واللهُ حيٌّ لا يموت، ثم سكت حتى دفن. فلما واروه في التراب وقف على قبره ليسمعهم. فقال رحمك الله ياذرّ ما علينا بعدك من خصاصة، وما بنا إلى أحد مع الله حاجة وما يسرني أن أكون المقدم قبلك، ولولا هول المطلع لتمنيت أن أكون مكانك، ثم رفع رأسه وقال اللهم قد وهبت حقي فيما بيني وبينه له اللهم فهب حقك فيما بينك وبينه له. وساق نحواً من القصة الأولى فبقي القوم متعجبين مما جاء منهم، ومما جاء منه من الرضا والتسليم.

وعن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلاً جزع على ولده وشكى ذلك إلى الحسن. فقال له: كان ابنك يغيب عنك قال: نعم! كانت غيبته أكثر من حضوره. قال: فأنزله غائباً فإنه لم يغب عنك غيبة خير لك فيها نفعاً أعظم من هذه. قال: يا أبا سعيد هوّنت عليّ وجدي على ابني.

وعن سلمة قال: لما مات ابنُ عمرَ بنِ عبد العزيز كشف أبوه عن وجهه وقال: رحمك الله يا بُنيّ فقد سررت بك يوم بُشّرتُ بك، ولقد عَمَّرت مسروراً بك، وما أتت عليّ ساعة أنا فيها أسرُّ من ساعتي هذه، أما والله إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: قال أبو الوفاء بن عقيل: مات ولدي عقيل وكان قد تفقه وناظر وجمع أدباً حسناً فتعزيت بقصة عمرو بن عبدود الذي قتله علي بن أبي طالب. فقالت أمه ترثيه:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ما زلت أبكي عليه دائم الأبد
لكنّ قاتله من لا يقاد له من كان يدعى أبوه بيضة البلد

فأسلاها وعزاها جلالة القاتل. فنظرت إلى أن قاتل ولدي الحكيم المالك. فهان القتل والمقتول لجلالة القاتل وعِظَمه.

فصل

وهذه الأحاديث والآثار أكثر ورودها في الولد الذي لم يبلغ الحنث، ولكن الولد الصالح البالغ أشدَّ مصيبة على والديه وأكثر حزناً وجزعاً منهما على الولد الصغير خصوصاً إذا كان قد برز في العلم أو له برٌّ وإحسان إلى والديه وأقاربه وأصحابه، أو له صفات جميلة وأفعال حميدة. وأين يقع الولد الصغير موقع الكبير في النفع لوالديه ولغيرهما إذا كان متصفاً بما ذكر، فهل يستريب عاقل أن الحزن عليه أشدّ، فكذلك أجره وثوابه أعظم وأكثر.

فإن قيل: البالغ: قد جرى عليه القلم وهو من المكلفين فنهايته يخلص نفسه يعتقها أو يوبقها.

قيل: الجزاء على الكبير إنما يحصل على الصبر على المصيبة والاسترجاع والحمدلة، بل هو داخل في قول النبي ﷺ «أدخل الجنة ثواب ما قد أخذ منك».

وروى ابن منده من حديث ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة النسائي عن حسان بن كريب: أن غلاماً منهم توفي بحمص فوجد عليه أبوه، فقال له حوشب صاحب رسول الله ﷺ: ألا أخبرك؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول في مثل ابنك إن رجلاً من الصحابة كان له ابن قد أدرك. وكان يأتي مع أبيه إلى رسول الله ﷺ ثم توفي فوجد عليه قريباً من ستة أيام... الحديث، وهذا الحديث ذكر فيه أنه أدرك، وذكر فيه دخول الجنة ثواب ما أخذ منه، وقد تقدم من رواية الإمام أحمد، لكن لم يذكر في روايته أنه أدرك.

وقد روى الحافظ أبو القاسم بن عساكر بإسناده عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله. قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات له ابن أو ولد سلم أو لم يسلم رضي أو لم يرض لم يكن له ثواب دون الجنة» وفي لفظ آخر: «من مات له ابنٌ صبر أو لم يصبر احتسب أو لم يحتسب لم يكن له ثواب إلا الجنة» وقد روى ابن

عساكر هذا الحديث بعدّة طرق وإن كان قد تكلم في بعضها أو في أكثرها ففيها بشارة عظيمة لأكثر الناس في زماننا هذا لأن بموت الولد في غالب أهل زماننا يحصل لوالديه جزع وهلع وعدم تصبر؛ وما ذاك إلا لقلة الزواجر الشرعية، فإن الوعد والوعيد يحصل للعبد به تسلية عظيمة، فنسأل الله تعالى أن لا يمتحنا وإن امتحننا أن يثبتنا.

وقال أبو القاسم بـن عساكر: أخبرنا أبو العز أحمد بن عبد الله العكبري ببغداد أنبأنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري أنبأ أبو الحسن علي بن محمد الوراق أنبأ أبو حفص عمر بن أيوب السقطي ثنا أبو الوليد بشر بن الوليد القاضي ثنا الفرج بن فضالة ثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بـن سمرة. قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال: «إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه برُّه بوالديه فردَّ مَلَكَ الموت عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلاً من أمتي يلتهب عطشاً كلما دنا من حوض منع منه وطرد، فجاءه صيامه شهر رمضان فأسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين حِلَقاً حِلَقاً كلما دنا إلى حَلْقة طرد، فجاءه غُسْلُه من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي، ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير، فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي بيده ووجهه وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار وظلاً على رأسه، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه. فقالت: يا معشر المؤمنين إنه كان وَصُولاً لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصار فيهم، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاءه أمرهُ بالمعروف ونهيُه عن المنكر

فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله عز وجل حجابٌ فجاءه حُسْنُ خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قِبَل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه، ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتي قائم على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حُسْنُ ظنه بالله عز وجل فسكّن رعدته ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصرط ويحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلاته عليَّ فأنقذتـه وأقامته على قدميه، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلّقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له أبواب الجنة وأدخلته الجنة».

هذا الحديث قد ذكر جماعة من الحفاظ أن لوائح الصحة ظاهرة عليه، وأنّ القلب يركن إلى متنه، وقد أومأت إليه فيما تقدم وبكل حال في هذا الحديث بشارة عظيمة للأمة عامة، وفيه تطيب خاطر الوالدين على الأطفال خاصة، سواء كان الطفل ولد قبل إسلام والده أو بعده، فإنه ﷺ، قال: «رأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه» ويؤيد ذلك ما ثبت أن النبي ﷺ قال: كل مولود يولد على الفطرة. قال تعالى: ﴿فِطرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها﴾ [1]. فالولدان الذين يُتَوفَّون على ما فطرهم الله عليه من التوحيد هم من السعداء الذين يدخلون الجنة بلا عملٍ عملوه ولا خيرٍ قدموه بل برحمة الله لهم ومنته عليهم. بل أعظم من هذا أنهم يشفعون في آبائهم، ولهذا يكونون في البرزخ في كفالة أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

كما ثبت في الصحيح في حديث المنام الطويل من حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ جاءه جبريل وميكائيل فانطلقا به فأراه عجائب. وفيه والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم والصبيان حوله أولاد الناس؛ وفي لفظ البخاري: والولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة، فقيل يا رسول الله وأولاد المشركين، قال: وأولاد المشركين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذمّ فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة يبين ذلك ﴿فأقِمْ وجهَكَ للدِّين حنيفاً فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ﴾ [1] ولهذا نصب على المصدر الذي دلّ عليه الفعل الأول عند سيبويه وأصحابه، فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفاً هو فطرة الله التي فطر الناس عليها كما في نظائره مثل قوله تعالى: ﴿كتابَ اللهِ عليكُم﴾ [2] و ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتي قَد خَلَتْ﴾ [3] فهو عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره دلَّ عليه الفعل المتقدم كأنه قال: كتب الله عليكم ذلك، وسنّ الله ذلك لكم. انتهى كلامه.

وقد تكلمنا على الأطفال وأشبعنا الكلام فيهم في كتاب مفرد؛ فمن رام كشفه فليطلبه، ولكن لا يليق التطويل بما ليس نحن بصدده بأكثر من هذا، فهذا تنبيه على الأطفال أنهم وُلِدوا على الفطرة، وقد ذكرنا في الفطرة نحواً من عشرة أقوال في المصنف المشار إليه، والله أعلم.

فصل
في التأسي ببعض ما كان يفعله الصحابة والتابعون إذا نزلت بهم المصائب

فقد ثبت في صحيح البخاري عن أنس. قال: اشتكى ابنٌ لأبي طلحة قال: فمات وأبوه أبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً وجعلت

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٨٥.

ابنها في جانب البيت فلما جاء أبو طلحة، قال: كيف الغلام؟ قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقة قال: فبات، فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ ثم أخبره بما كان منها فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لهما في ليلتهما». فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن. وفي لفظ أنها قالت لأهلها لما مات ولدها لا يكلم لأبي طلحة أحدٌ قبلي، فلما دخل سأل عن الصبي. فقالت: إنه قد هدأ مما كان، وقدَّمت له طعاماً فأكل، ثم تصنعت له حتى واقعها، ثم قالت: يا أبا طلحة أرأيت قوماً أودعوا قوماً وديعة ثم طلبوها منهم أفما يجب أن يؤدّوها إليهم؟ قال: بلى. قالت: فاحتسب ابنك. فغضب لما صنعت به؛ فلما كان الصباح ذهب إلى رسول الله ﷺ يشكوها إليه، فتبسم رسول الله ﷺ. وقال: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما» فجاءت بغلام حنكه رسول الله ﷺ وسماه عبد الله، وهو الذي كان من سلالته الإخوة القرّاء، والأول هو أبو عميرة الذي كان رسول الله ﷺ يداعبه ويقول له: «يا عمير ما فعل النغير» أي ما فعل عصفورك؛ فهذه امرأة قد تصبرت ورضيت وتثبتت واحتسبت فأخلف الله لها خيراً من الذي أصيبت به، فإذا نظر من أصيب بمصيبة إلى امرأة قد فعلت عند المصيبة أمراً لا يكون إلا عند السرور والأفراح فليتأسَّ الشخص وليتعلم أوصاف السابقين الأولين، ويعلم أن الرجال أولى بهذا الصنيع والصبر من النساء، ولم تصب امرأة في الوجود بما أصيبت به فاطمة رضي الله عنها التي هي سيدة نساء أهل الجنة؛ فإنها أصيبت بموت أبيها رسول الله ﷺ ولم تقل في هذه الحال العظيمة إلا قولاً صدقاً محفوظاً عنها فإنها قالت: يا أبتاه من ربه ما أدناه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه، يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، فالذي ينبغي لنا التأسي بسادات المسلمين من الرجال والنساء.

مات لرجل من السلف ولَدٌ، فعزّاه سفيان بن عيينة، ومسلم بن خالد، وآخرون، وهو في حزن شديد حتى جاءه الفضيل بن عياض. فقال: يا هذا

أرأيت لو كنت في سجن وابنك فأفرج عن ابنك قبلك أما كنت تفرح؟ قال: بلى! قال: فإن ابنك خرج من سجن الدنيا قبلك. قال: فسُرِّيَ عن الرجل، وقال: تعزيتُ. رواه الحافظ ابن عساكر.

وقال مالك: إنه بلغه عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما يزال المؤمن يصاب في ولده وخاصته حتى يلقى الله وليست عليه خطيئة».

وقد تقدم ما رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي موسى الأشعري. والمقصود أن من سمع بهذا الحديث وكان قد أصيب بمصيبة حصل له تسلية.

ومن التأسي بمن أصيب في نفسه فصبر وعزى نفسه وتكلم بما حفظ عنه: لما حضرت معاوية الوفاة قال: أقعدوني فأقعدوه فجعل يذكر الله ويسبحه، ثم قال: الآن تذكر ربك يا معاوية بعد الانحطام والانهزام، ألا كان ذلك وغصن الشباب ريان! وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال منشداً:

هو الموت لا منجا من الموت والذي ... أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال: اللهم يا رب ارحم الشيخ العاصي والقلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وجُدْ بحلمك على من لا يرجو غيرك ولا يثق بأحدٍ سواك، ثم قال لابنه: يا بُنيّ إذا وافاني أجلي فاعمد إلى المنديل الذي في الخزانة فإن فيها ثواباً من أثواب رسول الله ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره، فاجعل الثوب مما يلي جسدي، واجعل أكفاني فوقه، واجعل القراضة في فمي وأنفي وعيني، فإن نفعني شيء فهذا، فإذا وضعتموني في قبري فخلوا معاوية وأرحم الراحمين.

ولما حضرت أبا هريرة رضي الله عنه الوفاة بكى. فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: يبكيني بُعْدُ السفر وقلة الزاد وضعف اليقين والعقبة الكؤود التي المهبط منها إما إلى الجنة وإما إلى النار. ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال: أجلسوني، فأجلسوه. فقال: اللهم أنا الذي أمرتني فقصَّرت، ونهيتَني فعصَيْت،

فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت، لا إله إلا أنت. وقال سليمان التيمي: دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت له: هذا الجزع كله لماذا وقد كنت بحمد الله على حالة صالحة؟ فقال: وما لي لا أجزع ومن أحق مني بالجزع، والله لو أتتني المغفرة من الله عز وجل لأهمني الحياء منه مما أفضيت به إليه.

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جعل يقول: والله لوددت أني عبدٌ لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها ولم ألي.

وذكر محمد الطائي الهمذاني في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين، ذكر بإسناده إلى المزني قال دخلت على الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه فقلت: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولسوء فعلي ملاقياً، وبكأس المنية شارباً، وعلى الله عز وجل وارداً، فوالله ما أدري أروحي تسير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزّيها. ثم بكى وأنشد:

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو من الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما
فلولاك لم يقوَ بإبليس عالم ... وكيف وقد أغوى ضعيفك آدما

وقال بعض الصالحين لخادمه وقد حضرته الوفاة: يا غلام، شدّ كتافي وعفّر خدي في التراب، ففعل الغلام به ذلك. ثم قال: دنا الرحيل، ثم قال: اللهم لا براءة لي من ذنب، ولا عذر أعتذر به، ولا قوّة فأنتصر بها، ثم قال: أنت لي، أنت لي. ثم صاح صيحة فمات، فسمعوا صوتاً يقول: اشتكى العبد لمولاه فقبله.

فصل

ومن المطالب العالية والبشارات الهائلة لمن أصيب بمصيبة، وقد تقدم غالبه، ثم نذكر من لم يقدّم من ولده شيئاً.

قال الإمام أحمد: ثنا بهز ثنا حماد بن سلمة ثنا يعلى بن عطاء عن شيخ من أهل دمشق عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس بخ بخ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يموت للرجل فيحتسبه». وقد روى هذا الحديث بعدة طرق عن سفينة مولى رسول الله ﷺ عن الحشحاش العنبري وهو صحابي بنحو من هذا؛ لكن لفظ بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان، ورواه ابن سعد في الطبقات من حديث سلام الأسود ولفظه كما تقدم، وفيه «والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه» ورواه ابن أبي عاصم.

وقال أبو القاسم بن عساكر: قرأت على أبي محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي عن أبي بكر أحمد بن علي الحافظ أنبأ الحسن بن أبي بكر أنبأ أبو الحسين أحمد بن عثمان ثنا ابن أبي العوام ثنا أبي إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل حدثني أبي عن أبيه كهيل عن هانىء ابن بنت الحضرمي ثنا عبد الله بن عباس، قال: توفي ابن لصفية ابنة عبد المطلب فبكت عليه، فقال لها رسول الله ﷺ: «تبكين يا عمة! مَن تُوفِّي له ولدٌ في الإسلام كان له بيت في الجنة» فسكتت.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتَسَبه إلا الجنةَ».

وقال الترمذي في جامعه حدثنا نصر بن علي الجهضمي وأبو الخطاب زياد بن يحيى البصري. قالا ثنا عبد ربه بن بارق قال سمعت جدي أبا سماك بن الوليد يحدث أنه سمع عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان له فَرَطان من أمتي أدخله الله بهما الجنة». فقالت عائشة رضي الله عنها: فمن كان له فَرَط من أمتك. قال: «ومن كان له فرط يا موفقة». قالت: فمن لم يكن له فَرَط من أمتك؟ قال: «فأنا فَرَط أمتي لن يصابوا بمثلي». قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد ربه بن بارق.

وقد روى عنه غيرُ واحد من الأئمة. قال الحافظ الضياء: عبد ربه بن بارق، تكلم فيه يحيى بن معين. وقال الإمام أحمد: ما به بأس.

وقد روينا في جزء ابن عرفة مرفوعاً «الموت كفارة لكل مسلم»[1].

والمقصود أن من لم يصب في أولاده أو لم يكن له أولاد؛ فالنبي ﷺ فَرَطُه، لكن أهل المصائب أيضاً يشاركونهم في النبي ﷺ فيحصل لهم أجر من جهتين؛ وقد يحصل للشخص أجرٌ من جهات عديدة من موت وحريق ونهب وغير ذلك مما يكفر الله به السيئات ويرفع به الدرجات.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان - عن أنس بن مالك.

الباب السابع
في ذكر السّقط وثوابه وزيارة القبور

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان ثنا خالد الطحان ثنا يحيى التيمي عن عبد الله ابن مسلم عن معاذ رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن السّقط ليجرّ أمّه بسَرَرِه إلى الجنة إذا احتَسَبَتْه». ورواه ابن ماجه أيضاً والدارمي من حديث يحيى بن عبد الله التيمي به.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ «إن السقط ليراغم ربه عز وجل إذا أدخل أبويه النار، فيقال: أيها السّقط المراغم ربه أدخل أبويك الجنة» رواه ابن ماجه.

وروى ابن ماجه أيضاً من حديث يزيد بن رومان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لسِقْطٌ أُقدِّمُهُ بين يدي أحَبُّ إليَّ من فارس أُخْلُفُه خلفي». ورواه عبد الله بن الإمام أحمد.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نودي في أطفال المسلمين أن اخرُجوا من قبوركم. فيخرجون من قبورهم ثم ينادى أن امضُوا إلى الجنة زُمَراً. فيقولون: ربنا ووالدانا معنا، فينادي فيهم الثانية أن امضُوا إلى الجنة زمراً. فيقولون: يا ربنا ووالدانا معنا. قال: فيتبسم الرب جلّ وعلا في الرابعة فيقول: ووالداكم معكم فيثب كل طفل إلى أبويه فيأخذون بأيديهم فيدخلونهم الجنة، لهم أعرف بآبائهم وأمهاتهم يومئذ من أولادكم الذين في بيوتكم». رواه ابن شاهين والحافظ ابن عساكر في ذكر ثواب السقط.

وروي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم ثنا محمد بن الوزير ثنا خلاد بن منصور الواسطي ثنا داود بن أبي هند. قال: رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامت، وكأن الناس يدعون إلى الحساب، قال: فَقَرُبت إلى الميزان فوضعت حسناتي في كفة وسيئاتي في كفة فرجحت السيئات على الحسنات؛ فبينا أنا كذلك مغموم إذ أتيت بشيء كالمنديل أو كالخرقة البيضاء فوُضعَت مع حسناتي فرجحت على السيئات، فقيل: تدري ما هذه؟ قلت: لا قال: سِقْطٌ كان لك؛ قلت: فإنه قد مات لي صبية ابنة لي. فقيل لي: تيك ليست لك لأنك كنت تتمنى موتها. وروى يزيد بن أبي مريم عن أبيه عن سهل بن الحنظلية الأنصاري ـ وكان ممن بايع تحت الشجرة ـ وكان لا يولد له، أنه قال: لأن يولد لي ولو سِقْطٌ فأحتسِبَه أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً.

فصل
في زيارة القبور

زيارتها مستحبة وهي تذكّر الآخرة وتفرح الموتى، بما يحصل لهم من الأحياء من قراءة واستغفار ودعاء وصدقة ونحو ذلك. فزيارة القبور فيها نفع للأحياء والأموات؛ فالحيّ يذكر الآخرة، والموت الذي ما ذكر في قليل من متاع الآخرة إلا كثرة ولا في كثير من متاع الدنيا إلا قلّله، ويقرأ على نفسه آيات الصبر وقصر الأمل مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُم لذِكرِ اللهِ وما نزَلَ مِنَ الحقِّ... ﴾الآية[1] وقوله تعالى: ﴿أفَحَسِبتُم أنَّما خلقناكُم عَبَثاً وأنّكُم إلينا لا تُرْجَعونَ﴾[2]. وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل». وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك».

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

فإذا تذكر ذلك حصل له الخشوع والإقلاع وتذكر من سلف من الأهل والأقارب، هذا في الزيارة النافعة لا كما يفعل في زماننا هذا من البدع في الزيارة يوم الخميس والسبت فتتزين النساء ويتبهرجن ويجلسن على القبور، وقد نهى في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خيرٌ له من أن يجلس على قبر». وقال: «لا تجلسوا على القبور ولا تُصَلُّوا إليها». لكن اختلف العلماء في الجلوس ما هو؟ فأكثر العلماء على أنه الجلوس المعروف. وقال مالك: هو التغوّط عليها. وروى في الموطأ: أن علياً كان يتوسد القبور ويضطجع عليها، وأن ابن عمر كان يجلس على القبور، وأن عثمان بن حكيم قال: أخذ خارجة بن زيد بيدي فأجلسني على قبر، وأخبرني عن عمه يزيد بن ثابت أنه قال: إنما كره ذلك لمن أحدث عليها.

والمقصود أن النساء يخرجن إلى المقابر وتحضر الشباب الفسقة فيجلسون على سكك المقابر، ويختلطون بهم في الغالب وربما تصعد السوقة بملاذر المأكل وغيرها للبيع والشراء وربما تحدثوا بما لا يليق. فهؤلاء قبحهم الله تعالى وأبعدهم عن بابه وختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم لأنهم يشاهدون منازل الآخرة ـ يعني المقابر ـ وهم معرضون عما يراد بهم. وقد نص الإمام أحمد رحمه الله: على أن الموتى يتأذون بفعل المعصية عندهم. وفي زماننا هذا نفعل المعاصي في الترب فيحصل للموتى الأذى بذلك، كما نص أحمد على ذلك لأنهم رحمهم الله تعالى قد تيقنوا شؤم عاقبة الذنب، وعاينوا عين اليقين نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

ونص الإمام أحمد: على أن الزيارة للقبور يوم الجمعة قبل طلوع الشمس فإن الأموات يرون زائرهم.

وقال الغزالي في إحياء علوم الدين: الزيارة تكون يوم الجمعة ويوم السبت قبل طلوع الشمس.

ويستحب الإكثار من ذكر الموت كما ثبت في الترمذي وحسَّنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر ذكر هاذم اللذات». - يعني الموت -.

ويستحب للشخص إذا دخل المقابر أن يسلّم على أهل المقابر، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها. قالت: كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع. فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

وفي مسلم أيضاً من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر، فكان قائلهم. يقول: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية».

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة. فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»... الحديث.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه، فقال: «السلام عليكم أهل القبور يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر» ورواه الترمذي وهذا لفظه، وقال: حديث حسن غريب.

ورواه ابن ماجه من حديث عائشة رضي الله عنها ولفظه: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، أنتم لنا فَرَط وإنا بكم لاحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تَفْتِنَّا بعدهم».

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها «ولا تشربوا مُسْكراً». رواه مسلم.

وللإمام أحمد والنسائي: « نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر ولا يقول هجراً ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ». رواه مسلم. وفي لفظ له: زار قبرها فبكى وأبكى من حوله، فقال: « استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي؛ فزوروا القبور فإنها تذكر الموت ».

وعن علي رضي الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة ». رواه الإمام أحمد. ورواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود، وفيه « فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة ». ورواه أحمد أيضاً من حديث أبي سعيد مرفوعاً وفيه: « فزوروها فإن فيها عبرة ». وفيه دليل لمن جوّز زيارة القبور للنساء.

وللعلماء فيها ثلاثة أقوال (أحدها) تحريمها عليهن، لحديث « لعن الله زوّارات القبور »[1] (الثاني) يكره (والثالث) يباح لما تقدم؛ فالنساء لا يدخلن في خطاب الرجال على الصحيح عند الأصوليين.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ألا أحدّثكم عن رسول الله ﷺ وعني؟ قلنا: بلى. قالت: لما كانت ليلتي. التي كان رسول الله ﷺ فيها عندي، وضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت. فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويداً وفتح الباب فخرج ثم أجافه رويداً وجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم في المستدرك عن حسان بن ثابت، ورواه أيضاً الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

ثم انطلقت على أثره حتى أتى البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فانحرفت، فأسرع، فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر، فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل. فقال: ما لك يا عائش حشياً رابية. قلت لا شيء. قال: لَتُخْبريني أو لَيُخْبِرني اللطيف الخبير. قالت قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فأخبرتُه قال، فأنتِ السوادُ الذي رأيت أمامي، قلت، نعم! فلهزني في صدري لهزة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله. قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم! قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم. قالت، قلت كيف أقول يا رسول الله. قال قولي: «السلام على أهل الديار من المسلمين والمؤمنين يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله للاحقون»: رواه مسلم.

الباب الثامن
في تطييب خاطر الوالدين على الأولاد

قال الله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتَّبَعَتْهُمْ ذرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحَقْنا بهم ذُرِّيَّتَهُم﴾ (١) وقد ذكر البغوي في تفسيره بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتَقَرَّ بهم عينه. ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿والذين آمنوا واتَّبَعْتُهُم ذُرِّيَّتُهُمْ بإيمان ألحقنا بهم ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ . الآية. ففي هذه الآية والحديث دليل على تطييب خاطر الوالدين على أطفالهم، وهذا الذي ينبغي أن يطيبوا أنفسهم ويقرُّوا أعينهم فإنهم وإن كانوا كباراً فهم من أهل التوحيد والإسلام، وإن كانوا صغاراً فهم ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنهم ماتوا على الفطرة السليمة وهم من السعداء الذين يدخلون الجنة بلا عمل عملوه ولا خيرٍ قدَّموه، بل برحمة الله ومِنَّته عليهم، ولهذا يكونون في برزخهم في كفالة أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء كما في دعاء الميت إذا كان صغيراً «واجعله في كفالة إبراهيم». وكما ثبت في صحيح البخاري من حديث سمرة بن جندب ـ وقد تقدم ـ عن النبي ﷺ في حديث المنام قال فيه: «فأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل: يا رسول الله وأولاد المشركين» قال: «وأولاد المشركين» وفي رواية للبخاري أيضاً «والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس». وعن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

رسول الله ﷺ : « ما مِن مولودٍ يولد إلا على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدع، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿فِطرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تَبديلَ لخلْقِ الله ذلك الدِّينُ القَيِّم﴾ (١) ... الحديث رواه البخاري ومسلم، ولفظه للبخاري. وقال أبو بكر القطيعي: حدثنا بشر بن موسى ثنا ابن خليفة ثنا عون عن خنساء. قالت حدثتني عمتي. قالت قلت: يا رسول الله، مَن في الجنة؟ قال: النبيُّ في الجنة، والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والوئيد في الجنة (٢)، وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف فذكر مثله. وقال الفراء في كتاب معاني القرآن عند قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفسٍ بما كَسَبَتْ رَهينةٌ إلا أصحابَ اليَمينِ﴾ (٣) قال عليٌّ رضي الله عنه هم الوِلدانُ. قال الفراء: وهو شبيه بالصواب؛ لأن الولْدان لم يكتسبوا ما يرتهنون به. وفي قوله تعالى ﴿يَتَساءلونَ عَنِ المُجرِمينَ﴾ (٤) ما يقوّي أنهم الولدان لأنهم لم يعرفوا الذنوب؛ فلهذا يقولون: ﴿ما سَلَكَكُمْ في سَقَر﴾ (٥) الآية. ولكن روى العقيلي بإسناده عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿إلاَّ أصحابَ اليمينِ﴾ (٦).

قال: هم أطفال المسلمين، فظاهر هذه الرواية التخصيص بهذه الأمة والرواية الأولى عامة في كل مولود. وقال البغوي في تفسيره ﴿إلاَّ أصحابَ اليَمينِ﴾ اختلفوا فيهم، فعن علي أنهم أطفال المسلمين، وهذا يوافق مَا رواه العقيلي عنه، ولم يَحْك عنه خلافه، ثم قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم الملائكة. وقال مقاتل: هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق وعنه أيضاً: هم الذين

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، عن رجل لم يذكر اسمه.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٤٠.

(٥) سورة المدثر، الآية: ٤٢.

(٦) سورة المدثر، الآية: ٣٩.

أعْطوا كتبهم بأيمانهم. وعنه أيضاً: هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم. وقال الحسن: هم المسلمون المخلصون.

وحكى القرطبي في تفسيره في هذه الآية الكريمة. أقوالاً كثيرة، ولم يذكر أنهم لا أطفال المسلمين ولا المشركين إلا أنه ذكر في آخر كلامه عن الفرّاء أنه قال: هم الوِلْدان لأنهم لا يعرفون الذنوب. وقد حكيت قول الفرّاء قريباً وأنه أسنده إلى عليّ رضي الله عنه، لكن حكى القرطبي في غير هذا الموضع: أن الأطفال إن ماتوا صغاراً فهم في الجنة. أعني جميع الأطفال؛ لأنّ الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذرّ أقرّوا له بالربوبية وهو قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيَّاتِهِم وأشهَدَهُم على أنفسهم ألَسْتُ بربِّكُم قالوا بَلى شَهِدْنا﴾ (١). الآية، ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقرّوا له بالربوبية، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقياً أو سعيداً على الكتاب الأول.

فصل
في معنى الفطرة التي نشأ عليها كل مولود من بني آدم من ذكر وأنثى

قال الله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها﴾ (٢) الأية. وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». وقد تقدم في ذلك كلاماً مختصراً، ولكن نبيِّن معنى الفطرة لغة وإعراباً، قال أبو البقاء في إعرابه: فطرة الله، أي: إلزموا واتَّبِعوا دين الله الذي خلق الناس عليها. انتهى كلامه.

وقال الطبري: فطرة الله، مصدر معنى: فأقم وجهك؛ لأن معنى ذلك فطر الله الناس على ذلك.

وقال النحاس: سميت الفطرة ديناً لأن الناس يخلقون له، وفطر الناس عليها أي لها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

وكذلك معنى قول الزجاج.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﴿فِطْرَةَ الله﴾ أضافها إليه على الوجه الممدوح، ولهذا نصبت على المصدر الذي دل عليه الفعل عند سيبويه، وقد تقدم كلامه رحمه الله قريباً.

وقال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد: الفطرة في كلام العرب البداءة. انتهى.

فصل

وقد اختلف بعض العلماء والمفسرون في المعنى المراد بالفطرة على أقوال:

(أحدها) أن المراد بالفطرة الإسلام، قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما، وهي إحدى الروايات عن الإمام أحمد: ولما ذكر ابن عبد البرّ النزاع في هذه المسألة في التمهيد قال: وقال آخرون: الفطرة هاهنا الإسلام. قال: وهو المعروف عند عامة السلف وأهل التأويل. ثم قال: وأما قوله تعالى (فِطرَةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها﴾ [1] فقد أجمعوا على أن قالوا: دين الإسلام. وليس كما قال؛ فإنّ القرطبي وغيره من المفسرين ذكروا في الآية أقوالاً كثيرة:

قال القرطبي: وفي معنى الفطرة أقوال متعدّدة منها دين الإسلام، وهو المعروف عند عامة السلف ثم قال: ومعنى هذا أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه. وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا فهم في الجنة، أولاد مسلمين كانوا، أو أولاد كفار.

وقال النقاش في تفسيره: وقد اختلف أهل التأويل والأخبار في الفطرة فقيل: على ملة إبراهيم، ثم ذكر قريباً مما ذكره القرطبي: وقد احتج من نصر هذا القول بحديث أبي هُريرة مرفوعاً «ما من مولودٍ يولَدُ إلا على الفطرة». واستدلال أبي

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

هريرة بالآية في تمام الحديث، وبحديث عياض بـن حماد المجاشعي مرفوعاً يقول « خلقت عبادي حنفاء ». وفي بعض ألفاظه حنفاء مسلمين. ويؤيد هذا ما في الصحيحين « خمسٌ من الفطرة » وفي صحيح مسلم « عَشْرٌ من الفطرة » ورواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث عمار بـن ياسر « خَمْسٌ من سنن الإسلام » وفي لفظ « عَشْرٌ من سنن الإسلام ».

الثاني: أن المراد بالفطرة: البداءة التي بدأهم الله عليها من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة. وقد تقدم حكاية هذا القول، وأنه حكاه أبو عمر ابن عبد البر.

الثالث: ليس المراد بالفطرة عموم الناس، إنما المراد بقوله ﴿فطر الناس﴾ ـ المؤمنون ـ إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار، كقوله تعالى ﴿ولقد ذَرَأْنا لجهنم كثيراً مِن الجنِّ والإنس﴾[1]... الآية.

الرابع: أن المراد بالفطرة الخِلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم. واحتج من قال بهذا القول بقوله تعالى: ﴿وما لِيَ لا أعبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإليهِ تُرجَعونَ﴾[2] وقد تقدم أن بسط هذا الكلام له موضع آخر، وأنه في كتاب مفرد على الكلام في أطفال المشركين.

والمقصود أن الولدَانَ يُتَوَفَّوْنَ على ما فطرهم الله عليه من التوحيد والإسلام، فهم من سعداء الآخرة الذين استحقوا دخول الجنة بلا عمل عملوه ولا خير قدموه، بل برحمة الله عليهم ولطفه بهم ﴿ذلكَ فَضلُ الله يؤتيهِ مَن يشاءُ والله ذو الفضلِ العظيمِ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة يس، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢١.

الباب التاسع
فيمن مات له طفل رضيع أنه يكمل رضاعه في الجنة

قال الإمام أحمد: ثنا أسود بن عامر ثنا إسرائيل عن جابر عن عامر عن البراء بن عازب رضي الله عنه. قال: صلّى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، ومات وهو ابـن ستة عشر شهراً، وقال: «إنَّ له في الجنة مَن يُتِمُّ رَضاعَه، وهو صِدِّيق» ورواه أبو يعلى الموصلي وجابر الجعفي، ضعيف.

وقال البخاري: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة حدثنا عدي بن ثابت أنه سمع البراء أنه قال: لما توفي إبراهيم يعني ابن النبي ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «إن له مُرْضِعاً في الجنة» انفرد به البخاري. وإنما كان كذلك لأنه مات وهو مرضع ابن سبعة عشر شهراً، أو ستة عشر، وقيل أكثر من ذلك، وقيل أقل، فالله تعالى أعلم بالصواب.

وفي بعض الروايات «إن ابني مات في الثدي، وإن له مرضعاً في الجنة» فإن كان هذا خاصاً به عليه السلام فلا كلام، والأصل عدم الاختصاص، إلا أن يقوم دليل عليه ولم نجده؛ وإن كان عاماً في حق أولاد المؤمنين كما ذكر في بعض الآثار ولا يحضرني الآن ولكن متنه «إن في الجنة شجرة تحمل الثدي يرتضع منها الوِلْدان» فهي بشارة عظيمة للمؤمنين في ولدانهم، وفيه تطييب خاطر الوالدين، والله تعالى أعلم.

فصل

وقد روى المعافى بن الحسين في كتاب «**أنس المنقطعين**» له في الأطفال الرضع، أن النبي ﷺ قال: «يجيء أطفال المسلمين يوم القيامة عند عرض

الخلائق للحساب، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب بهؤلاء إلى الجنة، فيقفون على أبواب الجنة ويسألون عن آبائهم وأمهاتهم. فيقال: آباؤكم وأمهاتكم ليسوا بأمثالكم لهم ذنوب وسيئات يطالبون بها، فيصيحون صيحة واحدة عظيمة باكين، فيقول الله سبحانه وتعالى وهو أعلم: يا جبريل، ما هذه الصيحة؟ فيقول: إلهي أنت أعلم بهم، هؤلاء أطفال المسلمين يقولون: لا ندخل الجنة حتى يدخل آباؤنا، فيقول الله عز وجل: يا جبريل، تخلل الجمع وخذ آباءهم وأمهاتهم واجعلهم معهم في الجنة».

الباب العاشر
في أنه يصلّى على كل مولود مسلم ويُدعى لوالديه

وهذا باب عظيم لأن فيه بشارة عظيمة لكل من أُصيب في أولاده، أو في واحد منهم؛ لأنه أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلّيَ عليهم وأن ندعوَ لوالديهم كما سنذكره إن شاء الله تعالى. وجمهور العلماء على أنه يصلّى على الطفل الصغير وإن كان سِقطاً قد نفخ فيه الروح، وذهب بعض السلف إلى أنه لا يصلى على الصغير ما لم يحتلم. وسنذكر ما يدفع هذا القول ويضعفه.

قال البخاري: حدثنا أبو اليمان ثنا شعبة. قال ابن شهاب: يصلَّى على كلِّ مولود يُتَوَفَّى وإن لِغَيَّةٍ[1] من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام، يدّعي أبواه الإسلام، أو أبوه خاصة وإن كانت أمه على غير دين الإسلام، إذا استهل صارخاً صُلِّيَ عليه، ولا يُصَلَّى على من لم يستهل من أجل أنه سِقط، وأبو هريرة كان يحدث عن رسول الله ﷺ؛ قال: «وما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة...» الحديث.

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها. قالت: مات إبراهيم ابن النبي ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهراً فلم يُصَلِّ عليه رسول الله ﷺ. في إسناده محمد ابن إسحاق والكلام فيه معروف، وهو يعضد من قال من السلف بعدم الصلاة على الأطفال؛ لكن الحديث فيه كلام. وقد روى أبو داود أيضاً ضدّ هذه الرواية من حديث البُهي. قال: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ، صلّى عليه رسول الله ﷺ في المقاعد، هذا مرسل ـ والبهي ـ هذا اسمه عبد الله بن بشار مولى مصعب بن الزبير تابعي يعدّ من الكوفيين، وقد تقدم ما رواه الإمام أحمد من

---

(١) قال في القاموس: وولد غية ـ ويكسر ـ زنية.

حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى على ابنه إبراهيم... الحديث.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هاشم بن القاسم ثنا المبارك أخبرني زياد بن خير عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: «الراكب يسير خلف الجنازة، والماشي أمامها قريباً منها عن يمينها أو عن يسارها، والسّقط يُصَلَّى عليه ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة» ورواه أبو داود والنسائي والترمذي. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن ماجه مرفوعاً ولفظه. قال: «الراكب يسير خلف الجنازة والماشي يمشي خلفها وأمامها وعن يمينها وعن يسارها، والطفل يُصَلَّى عليه ويُدْعى لوالديه بالمغفرة والرحمة» فذكر ابن ماجه بدل السقط، الطفل.

وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا على أطفالكم فإنهم من أفراطكم».

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «الطفل لا يصلى عليه ولا يورثُ ولا يرث حتى يستهل» رواه الترمذي من رواية إسماعيل بن مسلم المكي. قال الترمذي: هذا حديث قد اضطرب الناس فيه فروي مرفوعاً وروي موقوفاً وهو أصح من المرفوع. قال الحافظ الضياء: إسماعيل بن مسلم المكي قد تكلم فيه غير واحد من الأئمة.

وروى ابن ماجه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استهل الصبيُّ صُلِّيَ عليه ووُرِّث» الاستهلال: هو رفع الصوت حين خروجه من الأحشاء، والله أعلم. وهو من رواية الربيع بن يزيد وقد ضعفه غير واحد من الأئمة. قال الحافظ الضياء: وقيل يصلى على الطفل إذا نفخ فيه الروح استهل أو لم يستهل. قلت: وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد أنه يصلى عليه إذا نفخ فيه الروح وهو أن يستكمل أربعة أشهر: قال الشيخ مجد الدين: وإن أسقط لدون أربعة أشهر فلا يُصَلَّى عليه لأنه ليس بميت إذ لم ينفخ فيه الروح. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصلاة على السقط ما لم ينفخ فيه الروح مبنية على بعثه، وللعلماء فيه قولان: فإن

قلنا: إنه يبعث، صُلِّيَ عليه، وإلا لم يُصَلَّ عليه، والله أعلم انتهى كلامه.

قال أحمد بن أبي عبدة: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل: متى يجب أن يُصَلَّى على السِّقط؟ قال: إذا أتى عليه أربعة أشهر؛ لأنه قد نفخ فيه الروح، ولكن حديث المغيرة بن شعبة المتقدّم الذي رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه: «والسقط يصلى عليه» وفي رواية ابن ماجه «والطفل يصلى عليه». ولم يفرق بين أن يكون له أربعة أشهر أو أقل أو أكثر، لكن لم أعلم أن أحداً ذهب إلى الصلاة على السقط مطلقاً إلا سعيد بن المسيب وهو ظاهر الحديث، لكن قيل إن السقط ليس بميت لأنه لم ينفخ فيه الروح، يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح». الحديث؛ فإذا نفخ فيه الروح وجبت الصلاة عليه، وبُعِثَ يوم القيامة. وقد اختلف الناس في هذه الآثار فمنهم من أثبت الصلاة عليه ومنع صحة حديث عائشة وغيره من الأحاديث، كما قال الإمام أحمد وغيره، وهذه المراسيل من حديث البراء يشدّ بعضها بعضاً. ومنهم من ضعَّف حديث البراء لأجل جابر الجعفي وضعف هذه المراسيل. قال: حديث ابن إسحاق أصح منها.

قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا عقبة بن مكرم ثنا بشر بن أبي بكر ثنا محمد عبيد الله الفزاري عن عطاء عن أنس: «أن رسول الله ﷺ صلَّى على ابنه إبراهيم فكبر عليه أربعاً».

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي: حدثنا محمد بن عمر ـ يعني الواقدي ـ قال حدّثني أسامة بن زيد الليثي عن المنذر بن عبيد عن عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت عن أمه سيرين. قالت: حضرتُ موت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فلما صحتُ أنا وأختي ما ينهانا، فلما مات نهانا عن الصياح، وغسّله الفضل بن عباس ورسول الله ﷺ كإنسان ثم حمل؛ فرأيت رسول الله ﷺ على شفة القبر

والعباس إلى جنبه، وترك في حفرته الفضل وأسامة بـن زيد وأنا أبكي عند قبره ما ينهاني أحد وخسفت الشمس ذلك اليوم. فقال الناس: لموت إبراهيم. فقال النبي ﷺ: «إنها لا تخسف لموت أحد ولا لحياته». ورأى رسول الله ﷺ فرجة في اللَّبِن فأمر بها أن تسدّ فقيل لرسول الله ﷺ. فقال: «أما إنها لا تضرُّ ولا تنفع ولكن تقرّعين الحيّ وإن العبد إذا عمل عملاً أحب اللهُ أن يتقنه» ومات يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر. وهكذا رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الرحمن بـن حسان بن ثابت عن أبيه ثم قال: هذا حديث غريب. ثم ساقه من طرق أخرى من حديث الزبير بن بكار حدثني محمد بن طلحة عن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن حارثة عن عبد الرحمن بن حسان فذكر نحوه، وفيه مدرج يومَ وفاته وشهرَه وسنتَه، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه من كلام الواقدي. ولكن قيل: إن في بعض طرق هذا الحديث أنه صلَّى عليه، ولكن لم أره في هذين الطريقين، فالله تعالى أعلم بذلك.

وقال الحافظ: أبو يعلى الموصلي حدثنا إبراهيم الشامي ثنا حماد عن ثمامة بـن عبد الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ صلَّى على صبيٍّ أو صبيَّة. وقال: «لو نجا أحدٌ من ضمة القبر لنجا هذا الصبيّ».

وقد روى أبو داود مرسلاً عن عطاء بن أبي رباح أن النبي ﷺ صلى على ابنه إبراهيم وهو ابن سبعين ليلة قال البيهقي ـ بعد أن ذكر مرسل البهي وقد تقدم ذكره ومرسل عطاء هذا وغيرهما من أحاديث الصلاة على الأطفال ـ قال: فهذه الآثار وإن كانت مراسيل فبعضُها يشدّ بعضاً وقد أثبتوا صلاة رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وذلك أولى من رواية من روى أنه لم يُصَلِّ. يعني حديث عائشة المتقدم المتصل، وقد روي متصلاً أنه صلى عليه، من حديث البراء بن عازب ـ وقد تقدم ـ لكنه حديث لا يثبت لأنه من رواية الجعد ولا يحتج بحديثه. وقال الخطابي وغيره: اختلف في السبب الذي لأجله لم يصلِّ. فقال بعضهم: إنما ترك الصلاة على ابنه لأنه قد استغنى ببنوة رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه التي هي شفاعة له، كما استغنى الشهيد بشهادته عن الصلاة عليه.

وقال غيره: إنما لم يصل عليه لأنه يوم مات إبراهيم عليه السلام كسفت الشمس؛ فاشتغل بصلاة الكسوف عن الصلاة عليه، والله أعلم.

رجعنا إلى كلام الخطابي ثم إنه ذكر مرسل عطاء وقال: هذا أولى الأمرين وإن كان حديث عائشة أحسن اتصالاً، وقد اعتل من لم ير الصلاة على الأطفال بترك صلاة رسول الله ﷺ الصلاة على ابنه، واشتغاله بنفل صلاة الكسوف، والجواب ـ والله أعلم ـ عن ذلك: أن صلاة الكسوف كانت واجبة في حقه لأنه لو لم يصلها لم نعلمها نحن، وأيضاً ولو لم يقع ذلك لم نعلم كيفية صلاة الكسوف، فصلاته صلاة الكسوف على هذه الصفة دليلٌ على أن الله أوحى إليه أن يشرعها لنا على هذه الصفة، ويجب أن يبين كل ما أنزل إليه من ربه، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزل إليك من رَبِّك﴾ [1] ... الآية.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

الباب الحادي عشر
في استحباب اصطناع الطعام لأهل المصيبة

وهذا الفعل من أحاسن الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ : أنّ أهل الميت لا يتكلفون طبخ طعام لأحد من الناس بل أمره ﷺ للناس أن يصنعوا طعاماً لأهل الميت ويرسلونه إليهم، هذا من أعظم مكارم الأخلاق والشيم، والحمل عن أهل الميت إعانة لهم، وجبراً لقلوبهم؛ لأنهم في شغل بمصابهم عن إصلاح طعام لأنفسهم. فكيف للناس والاهتمام بأمرهم؛ فإذا صنع الناس لهم الطعام المعروف وحملوه إليهم حصلت الراحة لأهل الميت من وجهين:

أحدهما شغلهم بمصابهم ثم بتجهيزه وغسله وتكفينه والصلاة عليه وحمله ومواراتهفي حفرته، ثم من بعد ذلك إذا تفرغوا من هذه الأمور وحصل لهم سكون ودعة فإنّ هذه كافية لهم عن شغلهم بالناس.

الثاني: عدم الخسارة فإن عدمها فيها تسلية لأهل الميت، فإنّ في زماننا هذا ما يتوارى الميت في حفرته حتى يخسر عليه دراهم كثيرة، فَلأن لا يجتمع عليه خسارتان أولى.

وقد وردت السنة بصنع الطعام لأهل الميت سواء فقد ميتهم في السفر أو في الحضر، وسواء حصلت عليهم خسارة أو لم تحصل، فقد حصلت البشارة لمن صنع لهم طعاماً وحمله إليهم أنه اتبع سنة رسول الله ﷺ وامتثل أمره؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: جاء نعي جعفر رضي الله عنه حين قتل. قال النبي ﷺ : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم ما يشغلهم » ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

وعن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر رضي الله عنه رجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «إن آل جعفر قد شغلوا بشأن ميتهم فاصنعوا لهم طعاماً» رواه الإمام أحمد وابن ماجه وهذا لفظه.

وروي عن عبد الله بن أبي بكر أنه قال: ما زالت السنة فينا حتى تركها من تركها.

الباب الثاني عشر
في الذبح عند القبور وكراهة صنع الطعام من أهل المصيبة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عقر في الإسلام» رواه الإمام أحمد في حديث طويل هذا منه. وأبو داود، وروى الترمذي نحوه. وقال حديث حسن صحيح غريب. ورواه ابن حبان البستي، وفي رواية عبد الرزاق: كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شيئاً. أما العقر عند القبور هو الذبح عندها وهذا الفعل عندها فإنه من فعل الجاهلية وهو فعل محرَّم على هذه الأمة.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا عقر في الإسلام». قال الخطابي: هو ما كان عليه أهل الجاهلية من عقر الإبل على قبور الموتى، كانوا إذا مات الشريف الجواد عقروا عند قبره، وكانوا يقولون: إن صاحب القبر كان يعقرها للأضياف يقريهم أيام حياته فيكافأ عليه بمثل صنيعه. انتهى كلامه. وقال قوم: كانوا يعقرون الإبل عند القبور لتطعمها السباع والطير عند قبر الميت فيدعى مطعماً حياً وميتاً. وقيل: بل كان مذهبهم أن صدى الميت يصيب من ذلك الطعام، فجاء الإسلام فمحا ذلك كله.

وأما هذه البدعة الخبيثة فهي موجود قريب منها في غالب قرى البرّ، وهو أن الشخص إذا توفي في بلده فإنّ أهل القرى التي حوله يأتون لأجل العزاء فيذبحون لهم من مال الميت المنتقل إلى ورثته من أيتام صغار وغيرهما، بل قد يذبحون البقرة أو نحوها من بهيمة الأنعام لا يكون للأيتام غيرها على ما شاهدته وبلغني، فنسأل الله أن يقيّض لهذه البدعة من ولاة أمور المسلمين من يبطلها.

حدثنا ابن هاشم ثنا الدبري عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس

رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا إسعاد ولا عقر في الإسلام» قد تقدم الكلام على العقر في الإسلام، وقوله لا إسعاد: فهو من إسعاد النساء في المناحات، وهو أن تقوم المرأة في المأتم وتقوم معها أخرى فيقال قد أسعدتها فهي مُسْعِد. ويروى في حديث آخر أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن فلانة أسعدتني أفأسعدها؟ فقال: لا. ونهى عن النياحة بالإسعاد. وقال إنها مأخوذة من وضع الرجل يده على ساعد صاحبه إذا تماشيا في حاجة. وأما صنع أهل الميت طعاماً للناس فمكروه، لأن فيه زيادة على مصيبتهم، وشغلاً لهم إلى شغلهم وتشبيهاً بصنع أهل الجاهلية، فإنهم يتكلفون طبخ الطعام كما يفعله أهل البرّ في زماننا وقد تقدم، فهذا من النياحة التي نهى عنها رسول الله ﷺ لما ثبت في مسند الإمام أحمد من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه. قال: كنا نعدّ الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة. رواه ابن ماجه ورواه سعيد بن منصور في سننه ولفظه: إن جريراً وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: هل يناح على ميتكم؟ قال: لا. قال: فهل تجتمعون عند أهل الميت وتجعلون الطعام؟ قال: نعم، قال: ذاك النوح. وقال الشيخ موفق الدين رحمه الله في المغني: وإن دعت الحاجة إلى ذلك جاز فإنهم ربما جاءهم من يحضر ميتهم من القرى والأماكن البعيدة ويبيت عندهم، فلا يمكنهم إلا أن يضيفوه. انتهى كلامه. قلت: وإذا دعت الحاجة إلى صنع الطعام من أهل الميت لمن يفد من القرى ونحوها. إنما ذاك بشرط أن لا يكون من مال الأيتام، خصوصاً إذا لم يكن لليتيم سوى ذلك الحيوان. فأما وفود أهل البادية على أهل الميت في قريتهم فالضيافة على أهل القرية إما واجبة أو مستحبة، وليست على أيتام الميت، والله تعالى أعلم.

الباب الثالث عشر
في الثناء الحسن على الميت وذكر محاسنه والسكوت عن مساويه

واعلم أن من أطلق الله ألسنة الناس فيه بالخير والثناء الحسن والذكر الصالح وغير ذلك من الأقوال الصالحة، غلب على الظن أنه من أهل الخير وغير مستنكر إذا أحب الله عبداً أن يلقي على ألسنة المسلمين الثناء الحسن عليه، وفي قلوبهم المحبة له. قال الله تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ سَيَجعَلُ لَهُم الرَّحمنُ وُدّاً﴾[1]. وثبت أن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إن الله يحب فلاناً فأحِبَّهُ. قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه. قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» وذكر في البغضاء مثل ذلك. رواه البخاري ومسلم.

وقد شاهدنا في عصرنا هذا وبلغنا عن عصر غيرنا أن أقواماً من العلماء وأهل الحديث والتجار والسوقة كثر الثناء عليهم وصرفت قلوب الناس إليهم، وحصلت الحفلة العظيمة في جنائزهم من كثرة المشيعين لها، وحضرها الألوف من الناس. وربما كثر الله الخلق في تشييع هؤلاء من الجنّ والملائكة، وربما سمع ضجة عظيمة من جهة السماء في حال حضور الناس في الجنازة، ولقد أخبرني شيخنا العلامة شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الخطيب المقدسي بالجامع المظفري تغمده الله تعالى برحمته. قال لي: سمعت هذه الضجة من السماء مراراً لبعض الأموات كهيئة البشائر ثم قال: وحدثني بها جماعة من أصحابنا أنهم سمعوا ذلك في بعض جنائز المتهمين بالصلاح، والله تعالى أعلم بذلك.

وذكر قاسم بن أصبغ قال: حدثنا أحمد بن زهير ثنا محمد بن يزيد الرفاعي

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٦.

قال: مات عمرو بن قيس الملائي في ناحية فارس فاجتمع لجنازته من الخلق ما لا يحصى كثرة، فلما دفن نظروا فلم يروا أحداً.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مُرَّ بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال رسول الله ﷺ: «وَجَبَتْ» ومُرَّ بجنازة فأثنوا عليها شراً، فقال نبيُّ الله ﷺ: «وَجَبَتْ» فقال عمر رضي الله عنه: فداك أبي وأمي يا رسول الله: مرّ بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقلت وجبت، ومرّ بجنازة فأثنوا عليها شراً فقلت وجبت، فقال رسول الله ﷺ: «من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرّاً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض... ثلاثاً» وفي لفظ «وَجَبَتْ وَجَبَتْ... ثلاثاً»: رواه البخاري ومسلم. وفي رواية للبخاري فقيل: يا رسول الله قلت لهذا وجبت ولهذا وجبت. قال: «شهادة القوم المؤمنين شهداء الله في الأرض».

ولما مات الإمام أحمد بن حنبل. قال الهيثم بن خلف: دَفَنَّا أحمد بن حنبل يوم الجمعة بعد العصر سنة إحدى وأربعين ومائتين وما رأيت جمعاً قط أكثر من ذلك. وقال ابن أبي صالح القنطري: شهدت أربعين عاماً ما رأيت جمعاً قط مثل هذا، ثم قال عبد الوهاب الوراق: ما بلغنا أن جمعاً في جاهلية ولا إسلام مثل الجمع في جنازة أحمد، حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح فإذا هو نحو من ألف ألف، وأما النساء فهو من ستين ألف امرأة وكلهم يشهدون له بالصلاح والولاية، ويرجون بالصلاة عليه البركة، ويثنون عليه بأنواع الخير رحمة الله عليه.

فصل

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن» وفي رواية «ويحبه الناس عليه». قال العلماء: معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير هي دليل للبشرى المؤخرة إلى الآخرة لقوله تعالى ﴿بُشْرَاكُمُ اليومَ جنَّاتٍ﴾[1] وهذه البشرى

(١) سورة الحديد، الآية: ١٢.

المعجلة دليل على رضى الله تعالى عنه ومحبته له ومحبته إلى الخلق.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» وفي لفظ «فاشهدوا له بالخير». قال الله تعالى: ﴿إنما يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ من آمَنَ باللهِ واليوم الآخِرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يَخْشَ إلاَّ اللهَ فَعَسَى أولئِكَ...﴾[1] الآية. رواه الترمذي وقال: حديث حسن وشهادة الناس له بعد الموت بالخير هي الشهادة التي كانوا يشهدون له بها في حال الحياة، والله تعالى أعلم.

فصل
في الكف عن ذكر مساوي الأموات

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا». رواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا موتانا فتؤذوا أحياءنا» رواه أحمد.

وعن أبي رافع أسلم مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن غَسَّلَ ميتاً فكتم عليه غفر الله له أربعين مرة». رواه الحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم.

قال ابن السماك: إنما سيفك بين لحييك تأكل به كل مرّ عليك، قد أذيت أهل الدور في الدور حتى تعاطيت أهل القبور، أما أهل القبور فما ترى لهم وقد جرى البلاء على وجوههم وأنت هاهنا تنبشهم، ويحك ما عندك من نبشهم إلا أخذ الخرق عنهم، إذا ذكرت مساويهم فقد نبشتهم. إنه لينبغي لك أن تترك القول في أخيك لخلال ثلاث، أما الأولى فلعلك تذكره بأمر هو فيك، والثانية

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٨.

لعلك تذكره بأمر قد عافاك الله منه فهذا جزاؤه إذ عافاك! أما تسمع إذ يقال ارحم أخاك واحمد الذي عافاك!

وفي أبي داود في الأدب والترمذي في الجنائز من حديث معاوية بن هشام عن عمران بن أنس المكي عن عطاء عن ابن عمر مرفوعاً «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم».

وقد روى أبو داود مرفوعاً: أن النبي ﷺ قال: «من عَيَّرَ أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يفعله».

وأما من جهة الأموات فقد روى ابن أبي الدنيا بإسناده أن النبي ﷺ قال: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير، إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه».

الباب الرابع عشر
في فرح العبد وتسليته بكونه من أمة محمد ﷺ

إعلم أن لله علينا من النعم ما لا يحصيها إلا الله تعالى الذي هدانا للإسلام وجعلنا من أمة خير الأنام، فإنّ كل نبيّ من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فُضِّل بشيء فنبيُّنا فُضِّل به وزاد عليه، وهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مُشَفَّع؛ وأول من يقرع باب الجنة وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّلُ الناس مشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يأتي معي من أمتي يوم القيامة مثل السيل والليل فيحطم الناس فتقول الملائكة: لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع سائر الأنبياء» رواه البزار.

وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم» رواه الترمذي عن الطفيل بن أبي عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت أمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر» رواه الترمذي. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعون ألفاً» رواه مسلم.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت، فلما رفع قال: إن ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم؟ قلت: ما شئت يا رب هم خلقك وعبادك، فاستشارني الثانية فقلت: له كذلك ثم استشارني

الثالثة فقلت: له كذلك، فقال: إني لم أخزك في أمتك وبشرني أن أول من يدخل الجنة زمراً من أمتي سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ثم أرسل إليّ ربي عز وجل ادْعُ تُجَبْ وسَلَ تعْطَهْ، فقلت لرسوله: أو معطني ربي عز وجل سؤلي؟ قال: ما أرسل إليك إلا ليعطيك، وقد أعطاني ربي غير فخر أنه غفر لي من ذنبي ما تقدّم وتأخر وشرح صدري، وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب وأنه أعطاني الكوثر نهر في الجنة يسيل من حوضي، وأنه أعطاني العزة والنصرة والرعب، وأنه أعطاني بأني أول الأنبياء دخولاً إلى الجنة وطيب لي ولأمتي الغنيمة، وأحلّ لنا كثيراً مما شدّد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. فلم أجد شكراً إلا هذه السجدة» رواه أبو بكر الشافعي.

وقوله ولا تجوع أمتي ـ أي لا تجوع كلها فإن جاعت في أرض شبعت في أخرى، وكذلك: ـ لا تُغلب ـ أي كلها فإن غُلبت في موضع غَلَبت في موضع آخر، والله أعلم.

الباب الخامس عشر
في استحباب التعزية لأهل المصيبة والدعاء لميتهم

يقال: عزى الرجل عزاء إذا صبر على ما نابه، والتعزية التصبر، وعزّيته: أمرتُه بالصبر، والعزاء ـ بالمدّ ـ اسم أقيم مقام التعزية، ذكره النووي. وقال الأزهري: أصل التعزية التصبر لمن أصيب بمن يعزى عليه. وقال غيره: التعزية التسلية وهو أن يقال له تعزَّ بعَزاء الله، وعزاء الله قوله تعالى ﴿الَّذينَ إذا أصابتْهُم مُصيبةٌ قالوا إنّا للهِ وإنّا إليهِ رَاجِعونَ﴾ (١)... الآية. ومعنى قوله تعزَّى بعزاء الله، أي: تصبر بالتعزية التي عزاك الله بها كما في كتابه. أو يقال: لك أسوة في فلان فقد مضى حميمه وأليفه فحسن صبره. وأصل العزاء: الصبر، والله أعلم.

عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزّي أخاه بمصيبة إلا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة» رواه ابن ماجه وصححه الشيخ وقال: رواته كلهم ثقات.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من عزّى مصاباً فله مثلُ أجره» رواه ابن ماجه والترمذي وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عليّ ابن عاصم، وذكر أنه روي موقوفاً. وعلي بن عاصم ضُعِّف.

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عزى ثكلى كُسِيَ بُرْداً في الجنة» قال الترمذي: إسناد هذا الحديث ليس بالقوي.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

والمقصود من التعزية تسلية أهل المصيبة وقضاء حقوقهم والتقرب إليهم بقضائها قبيل الدفن وبعده لشغلهم بمصابهم.

ويستحب تعزية أهل الميت وهي مسألة متفق عليها، ولم أعلم أن أحداً خالف فيه إلا سفيان الثوري رحمه الله قال: لا تستحب التعزية بعد الدفن لأنها خاتمة أمره، والمعروف المستقرّ عند أهل العلم استحباب التعزية قبل الدفن وبعده لما تقدم من الأحاديث قريباً مثل عموم قوله عليه السلام: «من عزى مصاباً فله مثل أجره»، «من عزى ثكلى كُسِيَ برداً في الجنة» فكل هذه عمومات تدل على الاستحباب مطلقاً.

ويستحب تعزية جميع أهل المصيبة كبارهم وصغارهم ويخص خيارهم والمنظور إليهم من بينهم ليستن به غيره. وذا الضعف منهم عن تحمل المصيبة لحاجته إليها ولا يعزى الرجل الأجنبي شواب النساء مخافة الفتنة، ويجوز للمرأة البرزة ونحوها.

وثبت أن عائشة رضي الله عنها. نهت عن الضحك في المصيبة لأن فيه إشماتاً بالمسلم وكسراً لقلبه. ولهذا رأى الإمام أحمد رجلاً يضحك في جنازة فهجره. وقال: أي موعظة اتعظ هذا، أو نحوه.

فصل
فيما يفعله غالب أهل زماننا من الجلوس عند القبر يوم الدفن للتعزية وكذلك في اليوم الثاني والثالث

قال أبو الخطاب: يكره الجلوس للتعزية. وقال ابن عقيل: يكره الاجتماع بعد خروج الروح لأن فيه تهييجاً للحزن. وقال الإمام أحمد رحمه الله: يكره التعزية عند القبر إلا لمن يعزي، فيعزي إذا دفن الميت أو قبل أن يدفن. وقال أحمد: إن شئت أخذت بيد الرجل في التعزية وإن شئت لم تأخذ. وإذا رأى الرجل قد شق ثوبه على المصيبة عزاه **ولم يترك حقاً لباطل**، وإن نهاه فحسن. قلت: إن كان الاجتماع فيه موعظة للمعزى بالصبر والرضاء وحصل له من الهيئة الاجتماعية

تسلية بتذاكرهم آيات الصبر وأحاديث الصبر والرضاء فلا بأس بالاجتماع على هذا الصفة؛ فإن التعزية سنة سنها رسول الله ﷺ، لكن على غير الصفة التي تفعل في زماننا من الجلوس على الهيئة المعروفة اليوم لقراءة القرآن تارة عند القبر في الغالب، وتارة في بيت الميت وتارة في المجامع الكبار؛ فهذا بدعة محدثة كرهه السلف كما تقدم؛ لكن فيه تسلية لهم وإشغال لهم عن الحزن، والله أعلم.

فصل

وأما قول أصحابنا وغيرهم من الفقهاء ففي غالب كتبهم يذكرون أنه لا بأس أن يجعل المصاب على رأسه ثوباً يعرف به وبعض أصحابنا المقادسة يرخي عذبة من غير عادة. قالوا: لأن التعزية سنة وفي ذلك تيسير لمعرفته حال التعزية. وأنكر هذا الفعل شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: لا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك، ولا نقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين. وثَمَّ آثارٌ صريحة تأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى تُقَوِّي هذا القول. وقد كره إسحاق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه، والله أعلم.

فصل

وقد ذكر الشيخ موفق الدين وغيره من أصحابنا في غالب الكتب: أن التعزية تجوز قبل الدفن وبعده، وأنه يقول في تعزية المسلم بالمسلم: **أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك ورحم ميتك**، وفي تعزيته بكافر **أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك**. وتوقف أحمد رحمه الله عن تعزية أهل الذمة، وهي تخرج على عيادتهم في أمراضهم وفيها روايتان: (إحداهما) يعودهم؛ لأنه روي أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي ﷺ، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه؛ فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه. فقال: أطع أباك أبا القاسم، فأسلم، فقام النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه[1] من النار» رواه البخاري، ولكن

(١) هكذا رواه البخاري «أنقذه من النار» وفي رواية أبي داود «أنقذه بي من النار».

الحكمة في العيادة منتفية في التعزية وهو رجاء إسلامه، والله تعالى أعلم. والرواية الثانية: لا يجوز، لأن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوهم بالسلام» قال (...)[1] يجوز تعزيتهم عن مسلم، يقال له: أحسن الله عزاءك وغفر لميتك، وعن كافر: أخلف الله عليك ولا نقص عددك. ويقصد زيادة عددهم لتكثر جزيتهم. وقال أبو عبد الله بن بطة: لا بأس أن يقول في تعزية الكافر: **أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أُعطيَ أحدٌ من أهل ملتك**. وقد روى أبو عبدالله المرزباني بإسناده عن الحسن نحواً مما قال ابن بطة، ولكن لفظه: **جزاك الله على مصيبتك بأعظم مما جازى به أحداً من أهل ملتك**. وروى أبو موسى المديني بإسناده عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعوتم لأحد من اليهود أو النصارى فقولوا: أكثر الله مالك وولدك».

فصل

ولم يرد في التعزية شيء محدود إلا أنه يروى أن النبي ﷺ عزّى رجلاً فقال: «**رحمك الله وآجرك**» رواه الإمام أحمد، وعزى أحمد أبا طالب فوقف على باب المسجد فقال: **أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك**.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده. قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول: «إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل ما فات فبالله فثقوا وإياه فارجو فإن المصاب من حُرِم الثواب» رواه الشافعي في مسنده.

وروى الحاكم في مستدركه. وقال: صحيح الإسناد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا، فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح، فتخطى رقابهم فبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «إن في الله عزاء من كل مصيبة

---

(١) هكذا بياض بالأصل.

وعوضاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك؛ فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ونظره إليكم في البلاء فانظروا، فإنما المصاب من لم يجبر» وانصرف. فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ قال: أبو بكر وعلي: نعم، هذا أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام.

وروى الحاكم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: لما توفي رسول الله ﷺ جاءتهم الملائكة يسمعون الحس ولا يرون الشخص. قالت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا فإنما المحروم من حُرِم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحسنه الحاكم.

وسيأتي كلام السلف رحمهم الله في التعازي بألفاظ مختلفة، فتارة مطوَّلة وتارة وجيزة بليغة كما سأذكره قريباً إن شاء الله.

فصل

ومن بلغه وفاة أحد من المؤمنين فليحسن الاسترجاع والتثبت؛ فقد روى الطبراني بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «إن للموت فزعاً فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عِلّيين، واخلف عقبه في الآخرين، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتِنَّا بعده».

وفي حديث أبي سلمة: لما مات شق بصره فأغمضه النبي ﷺ ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» فصاح ناس من أهله فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون. ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين. واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونَوِّر له فيه رواه مسلم.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بلغه وفاة أبي بكر رضي الله

عنه. قال: رضينا عن الله قضاه، وسلمنا له أمره، إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا يوسف بن عطية الصفار. قال: جلست إلى عطاء بن أبي ميمونة وهو يعزّي رجلاً فقال: حدثنا أنس بن مالك أن رجلاً كان يجيء بصبيٍّ له معه إلى رسول الله ﷺ، وأنّ الغلام مات فاحتبس أبوه عن النبي ﷺ فسأل عنه رسول الله ﷺ فقالوا: مات صبيه الذي رأيت معه فقال: «أفلا آذنتموني فقوموا إلى أخينا نعزيه، فلما دخل عليه إذا الرجل حزين وبه كآبة فعزّاه. فقال: يا رسول الله، كنت أرجوه لكبر سني وضعفي؛ فقال رسول الله ﷺ: أما يسرّك أن يكون يوم القيامة بإزائك يقال له: ادخل الجنة، فيقول: رَبِّ وأبواي، ولا يزال يشفع حتى يشفّعه الله عز وجل فيكم ويدخلكم جميعاً الجنة!»

فصل

فيما نقل إلينا من ألفاظ التعزية عن السلف والخلف

فقد روى الطبراني في كتاب الدعاء بإسناده عن محمود بن لبيد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه مات ابنٌ له فكتب إليه رسول الله ﷺ يعزيه بابنه فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر؛ فإن أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة، متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير الصلاة والرحمة والهدى إن احتسبته بالصبر ولا يحبط جزعك أجرك فتندم على ما فاتك من ثواب مصيبتك؛ فإنك لو اطلعت على ثواب مصيبتك لعرفت أن المصيبة قد قصرت عن الثواب ـ وهذه الزيادة في بعض طرقه ـ ثم قال: وما هو نازل بك فكأن قد والسلام: ورواه الحاكم في المستدرك وقال: غريب حسن. ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في كتاب الأدعية وعنده: فليذهب أسفك ما هو نازل بك. ولفظ الحاكم: فإن أنفسنا وأموالنا وأهلينا

وأولادنا من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة نمتع به إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى، وباقي الحديث كما ساقه الطبراني، والله أعلم.

ورأيت في جزء لا أعرف مؤلفه وليس له أول. قال زيد بن أسلم: مات ابن لداود عليه السلام فجزع عليه، فعزوه فيه فقيل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: كان أحب إليّ من ملء الأرض ذهباً، فقيل له: فإن لك من الأجر على قدر ذلك. وفي الإسرائيليات: أن سليمان بن داود عليهما السلام مات له ولد فجزع عليه حتى عرف ذلك في مصابه، فتحاكم إليه ملكان في صورة رجلين، فقال أحدهما: إن هذا بذر بذراً في طريق الناس فمررت فأفسدته. فقال سليمان للآخر: لم بذرت في الطريق؟ أما علمت أنه لا بدّ للناس من ممرّ؟ فقال: ولم تحزن أنت على ابنك وهذا طريق الناس إلى الآخرة.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما. قال: أرسلتِ ابنةُ النبي ﷺ إليه: أن ابناً لي قد قُبِض فأتنا؛ فأرسل يُقْرىء السلام ويقول: « إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب » رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

وقال وهب بن منبه قرأت في بعض كتب الله تعالى يقول: لولا أني جعلت الميت ينتن على أهله ما دفن ميت، ولولا أني جعلت الطعام يفسد لاحتجبه الملوك، ولولا أني آتي بالعزاء بعد المصيبة ما عمرت الدنيا. وقال الحسن البصري رحمه الله: ما من جزعتين أحب إلى الله من جزعة مصيبة موجعة محرقة ردّها صاحبها بحسن عزاء وصبر. وجزعة غيظ ردّها صاحبها بحلم.

وقد روي عن شمر أنه كان إذا عزى مصاباً قال: اصبر لما حكم ربُّك. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني عبد الله بن محمد بن إسماعيل التيمي أن رجلاً عزى رجلاً على ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم مصيبتين عليك، والسلام.

وعزى ابن السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر فبِهِ يعملُ من احتسب وإليه يصير من جزع.

وقال عمر بن دينار: قال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظنّ السيء.

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: كان سعيد بن جبير يعزيني على أبي فرآني أطوف بالبيت متقنعاً فكشف القناع عن رأسي. وقال الاستتار من الجزع.

وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمه الله: أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابنٌ فجزع عليه جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعي يقول له: يا أخي، عزِّ نفسك بما تعزِّي به غيرَك، واستَقبح من فعلك ما تستقبحُه من غيرك، واعلم أن أمضَّ المصائب فَقْدُ سرورٍ وحرمان أجْر فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر، فتناولْ حظَّك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد تناءى عنك ألهمك الله عند المصائب صبراً وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً ثم أنشده:

إني معزّيك لا أني على ثقة ... من الخلود ولكن سنةُ الدِّينِ
فلا المعزّى بباقٍ بعد ميِّته ... ولا المعزِّي ولو عاشا إلى حينِ

ومات ابنٌ للشافعي رحمه الله فجاءوا يعزُّونه فأنشد:

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزيةُ مال أو فراقُ حبيبِ

دخل بعض الأعراب على بعض ملوك بني العباس وقد توفي له ولد اسمه العباس فعزاه فيه فقال:

اصبرْ نَكُن بك صابرين فإنما ... صبرُ الرعيةِ عند صبر الرَّاسِ
وخيرٌ من العباس أجْرَك بعدَه ... واللهُ خيرٌ منك للعبَّاسِ

وذكر أبو علي الحسن بن أحمد بن البنا بإسناده أن شخصاً من الحكماء أنشده:

إذا دام ذا الدهرُ لم يُحزَن على أحدٍ ... ممن يموتُ ولم يُفرَحْ بمولودِ

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا الحسين ثنا عبد الله ثنا محمد بن مسلمة القاسمي وكان قد قارب المائة قال: وعظ عابدٌ جباراً فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وحمل إلى متعبده، فجاء إخوانه يعزونه. فقال: لا تعزوني ولكن هنوني بما ساق الله إليَّ ثم قال إلهي، أصبحت في منزلة الرغائب، أنظر إلى العجائب، إلهي أنت تتودّد بنعمتك إلى من يؤذيك فكيف لا تتودّد إلى من يُؤذَى فيك.

وذكر عن سليمان بن حبيب قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل عليه هشام فعزاه عنه فقال عمر: وأنا أعوذ بالله أن يكون لي محبةٌ في شيء من الأمور تخالف محبة الله عز وجل؛ فإنّ ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي، وإحسانه إليّ. وفي رواية أخرى قال: لما مات ابنه عبد الملك وأخوه سهل ومزاحم مولى عمر بن عبد العزيز في أيام متتابعة دخل عليه الربيع بن سبرة فقال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين فما رأيت أحداً أصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة، والله ما رأيتُ مثل ابنِك ابناً، ولا مثلَ أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى قطّ، فطأطأ رأسه، فقال لي رجل معه على الوساد، لقد هيجت عليه. قال: ثم رفع رأسه فقال: كيف قلت؟ فأعدت عليه ما قلت، فقال: لا والذي قضى عليهم بالموت ما أحبَّ أن شيئاً من ذلك لم يكن.

وعن بشر بن عبد الله قال: قام عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال: رحمك الله يا بنيّ فقد كنتَ سارّاً مولوداً، وبارّاً ناشئاً، وما أحب أني دعوتك فأجبتني.

ولما توفيت الياقوتة بنت المهدي، جزع عليها جزعاً لم يسمع بمثله، فجلس للناس يعزونه وأمَرَ أن لا يُحجب عنه أحد، فأكثر الناس في التعازي واجتهدوا في البلاغة فأجمعوا أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شبة؛ فإنه قال: أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزئت أجراً، وأعقبك خيراً، ولا أجهد بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة؛ ثواب الله خيرٌ لك منها، ورحمة الله خير لها منك، وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى ردّه، وفي رواية قال: يا أمير

المؤمنين الله خيرٌ لك منها، وأنا أسأل الله أن لا يحزنك ولا يفتنك.

وقد روى مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد عن القاسم قال: هلكت امرأة لي، فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني بها فقال: إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد وكانت له امرأة وكان بها مُعْجَباً ولها محبّاً، فماتت فوجد عليها وجداً شديداً، وتأسف عليها تأسفاً شديداً، حتى خلا في بيت وأغلق على نفسه واحتجب، وإنَّ امرأةً سمعت به فجاءته.فقالت: إنّ لي إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزيني إلا مشافهته، فذهب الناس ولزمت بابه. وقالت: ما لي منه بُدٌّ. فقال له قائل: إن هاهنا امرأة أرادت أن تستفتيك. قال: ائذنوا لها، فدخلت: فقالت: إني استعرت من جارة لي حلياً وكنت ألبسه وأعيره. فلبث عندي زماناً، ثم إنهم أرسلوا إليَّ فيه، أفأردُّه إليهم؟ قال: نعم، والإله. قالت: إنه مكث عندي زماناً! قال: فذاك أحق لردّك إياه إليهم. قالت: أفتتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك فأبصر ما هو فيه ونفعه الله تعالى بقولها.

وعزى عمرو بن عبيد ليونس بن عبيد على ولد له مات. فقال: إن أباك كان أصلك، وإن ابنك كان فرعك، وإن امرءاً ذهب أصله وفرعه لحريٌّ بأن يقل بقاؤه.

وعزى صالح المريّ رجلاً قد مات ولده. فقال: إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة في نفسك فنعم المصيبة مصيبتك، وإن كانت لم تحدث لك عظة في نفسك؛ فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك.

وعزى رجل رجلاً. فقال: يا أخي، العاقلُ يصنع في أوّل يوم ما يفعله الجاهل بعد عام.

وعزى رجل رجلاً فقال: عليك بتقوى الله والصبر فيه فإنه يأخذ المحتسب وإليه يرجع الجازع.

وعزى رجل رجلاً. فقال: إن من كان لك في الآخرة أجراً، خيرٌ ممن كان

لك في الدنيا سروراً.

وعن ابن جريج. قال: من لم يتعزّ عند مصيبته بالأجر والاحتساب، سلا كما تسلو البهائم.

قال بعض السلف وقد عزى مصاباً: إن صبرت فهي مصيبة واحدة، وإن لم تصبر فهما مصيبتان.

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن ميمون بن مهران. قال: عزّى رجلٌ عُمَر ابن عبد العزيز رحمة الله عليه على ابنه عبد الملك؛ فقال عمر: الأمر الذي نزل بعبد الملك أمرٌ كنّا نعرِفه، فلما وقع لم نُنْكره.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده قال: مات ابن رجلٍ فحضره عمرُ بن عبد العزيز، فكان الرجل حَسَن العزاء. فقال رجل من القوم: هذا والله الرِّضا؛ فقال عمر بن عبد العزيز: أو الصبر، قال سليمان الصبر دون الرضا، الرضا: أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راض بأيّ ذلك كان، والصبر: أن يكون بعد نزول المصيبة فيصبر.

وذكر الحافظ ابن عساكر: قال إبراهيم بن خالد: كتب محمد بن إدريس الشافعي إلى رجل من إخوانه من قريش يعزيه بابن أصيب به: اعلم يا أخي أنّ كل مصيبة لا يجبر صاحبها ثوابها فهي المصيبة العظمى، فكيف رضيت يا أخي بابنك فتنة، ولم ترض به نعمة؟ وكيف رضيت به مفارقاً، ولم ترض به خالداً؟ وكيف رضيته على التعريض من الفساد، ولم ترض به على اليقين من الصلاح؟ بل كيف لك بمقت منعم ولم تعرف له نعمة؟ يُرِيك ما تحب، ويرى منك ما يكره، ارجع إلى الله عز وجل وتعزّ برسول الله ﷺ وتمسَّك بدينك، والسلام.

وذكر أيضاً بإسناده قال: كتب رجلٌ إلى أخ له يعزيه بابنه: (أما بعد) فإنّ الله تعالى وهب لك موهِبَةً جعل عليك رزقه ومَؤنته، وأن تخشى فتنته، فاشتدَّ لذلك فرحُك؛ فلما قبض مَوهِبته وكفاك مَؤنته، اشتد لذلك حُزنك؛ أُقسم بالله إن كنت تقياً لَهُنِّئتَ على ما عُزِّيت عليه، ولعُزِّيتَ على ماهُنِّئْتَ عليه؛ فإذا أتاك

كتابي هذا فاصبر نفسك عن الأمر الذي لا صَبر لك على عقباه، واصبر نفسك عن الأمر الذي لا غِنى بك عن ثوابه، واعلم أن كل مصيبة لم يُذْهِب فرحُ ثوابها حُزنَها، فذلك الحزنُ الدائم. والسلام.

عن عبد الله بن صالح العجلي. قال: كتب ابن السماك إلى رجل يعزيه عن مولود له مات: (أما بعد) فإن استطعت أن يكون شكرك حين قبضه الله عز وجل منك، أكثر منه حين وهبه لك، فافعل؛ فقد أحرز لك هبته حيث قبضه؛ ولو بقي لم تسلم من فتنته، أرأيت حزنك على فراقه وتلهُّفك على ذهابه! أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك، أما هو فقد خلص من الكدر وبقيت أنت معلقاً بالخطر، والمصيبة إن جزعت فهي واحدة إن صبرت، ومصيبتان إن لم تصبر، فلا تجمع الأمرين على نفسك، والسلام.

وكتب رجلٌ إلى بعض إخوانه يعزِّيه بابنه: (أما بعد) فإن الولد على والده ما عاش حزن وفتنة، فإذا قدّمه فصلاةٌ ورحمة؛ فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته، ولا تضيع ما عوضك الله من صلاته ورحمته.

وقال موسى بن المهدي لإبراهيم بن مسلم وعزاه بابنه: أسرَّك وهو بلية وفتنة، وأحزنك وهو صلوات ورحمة؟

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دفن ابناً له فضحك عند قبره! فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أُرغِم الشيطان.

ومات للحافظ ابن عساكر ولدٌ لم يحتلم وكان ولداً حسناً. قال الحافظ: فحمدت الله ولم أظهر لموته جزعاً ولا قلقاً، ولم أحالف لذهابه هلعاً ولا أرقاً، ولم أترك لحزنه مجلس التحديث، ولم أمتنع لأجله من الانبساط والحديث، وما كان ذلك إلا بتوفيق الله وإعانته، وحُسْن عصمته من الجزع وصيانته، فله الحمد إذ لم يُحْبط أجري فيه بجزعي، ولم يُذهِب صبري عنه بهلعي، لأنّ المحروم مَن حُرِم عظيم الثواب، والملومَ من جَزِع لأليم المصاب، وأعجب من تصبري، لما عزاني بعض إخواني حضني على الصبر. وقال لي: مررت بك يوم ثانيه وأنت

تحدَّث الجماعة فتعجبت من انشراح صدرك للتحديث تلك الساعة، فقلت له: إنّ الجزع لا يَرُدّ فائتاً ولا ذاهباً، والحزن لا يرجع هالكاً ولا عاطباً والبكاء لا يجدي صرفاً لمسلم ولا نفعاً، والقلق لا يفيد دركاً لخطب ولا دفعاً والاحتيال لا يوجب لها ضرّاً ولا نفعاً، وإذا كان الأمر بهذه الصفة، والحال هكذا عند أهل المترفة، فالصبر أحى بذوي الحِجى، وأليق بأولي الدِّين والنُّهى.

الباب السادس عشر
في وجوب الصبر على المصيبة

قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا اصْبِرُوا وصابِرُوا ورَابِطُوا واتَّقُوا الله لعلكم تُفلِحُونَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا استَعِينُوا بالصبرِ والصَّلاةِ إنَّ الله مع الصابرينَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ولَنَبلُوَنَّكُم حتى نَعْلَمَ المجاهدين منكم والصابرين وَنَبْلُوَا أخبارَكُم﴾ (٣) والآيات التي فيها الأمر بالصبر كثيرة جداً معروفة.

قال الإمام أحمد: ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في القرآن في تسعين موضعاً.

اعلم أن حقيقة الصبر عند أرباب التصوّف خُلُقٌ فاضل من أخلاق النفس يمنع به من فعل ما لا يَحسُن ولا يَجمل، وهو قوة من قُوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

قال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلّد لا يرى منه إلا الصبر. وقد تقدم حديث أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وإرسال بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ إن ابني قد احتضر فاشهد، فأرسل يقرىء السلام. ويقول: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب» الحديث. أمرها بالصبر.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر. فقال: اتق الله واصبري؛ فقالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي - ولم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

تعرفه ـ فقيل لها: إنه النبي ﷺ: فأتت باب النبي ﷺ فلـم تجد عنده بوابين. فقالت: لم أعرفك. فقال: «إنما الصَّبرُ عند الصَّدمة الأولى» رواه البخاري ومسلم. وفي رواية تبكي على صبيٍّ لها. فقال: «إنما الصبر عند أوَّلِ صدمة» وهذا يشبه قوله عليه الصلاة والسلام «ليس الشديد بالصُّرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1] فإنَّ مفاجأة المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها؛ فإن صبر للصدمة الأولى انكسرت حدَّتها؛ وضعُفت قوتها، فهان عليه استدامة الصبر، كذلك الغضب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ. قال: «يقول الله عز وجل ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها: «أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء؛ فجعله الله رحمة للمؤمنين؛ فليس من عبد يقع الطاعون فيمكـث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد» رواه البخاري ورواه الإمام أحمد من حديث عائشة أيضاً بلفظه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا. انتهى كلامه.

فالصبر واجب من حيث الجملة، ولكنه يتأكد بحسب الأوقات فهو في زمن الطاعون آكدُ منه في غيره، فإنه إذا صبر على الإقامة في البلد الذي وقع فيه الطاعون، وصبر عند موت أولاده أو أقاربه أو أصحابه وصبر أيضاً عند مصيبته بنفسه، وعلم يقيناً أن الآجال لا تقديم فيها ولا تأخير، وأن الله تعالى كتب الآجال في بطون الأمهات كما ثبت في الصحاح كتب رزقه وأجله وشقيٌّ هو أو

---

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة.

سعيد فلا زيادة ولا نقص إلا في صلة الأرحام ففيها خلاف معروف بين أهل العلم؛ فإذا صبر واحتسب لم يكن لها ثواب دون الجنة، وإذا جزع ولم يصبر أثم وأتعب نفسه ولم يَرَدَّ من قضاء الله شيئاً. ولقد ضمن الوافي الصادق الناطق في محكم كتابه حيث قال عن الصابرين: أنهم يُوَفَّونَ أجرهم بغير حساب. وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين. فقال تعالى: ﴿إنَّ الله مع الصابرين﴾ (١) فذهب الصابرون بهذه المعية التي هي خير الدنيا والآخرة وشارك بعض الأنبياء في قوله ﴿إنَّني مَعَكما أسْمَعُ وأرَى﴾ (٢) وأخبر تعالى أن الصبر خيرٌ لأهله خبراً مؤكداً. فقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصابِرينَ﴾ (٣) وأخبر أن الصبر مع التقوى لا يضرّ معه كيد الأعداء أبداً. فقال: ﴿وإن تَصْبروا وتتقوا لا يضُرُّكم كيدُهم شيئاً إنَّ الله بما يَعمَلونَ مُحيطٌ﴾ (٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

الباب السابع عشر
فيما ورد في الصبر على المصيبة

قال الله تعالى: ﴿وبَشِّرِ الصَّابرينَ، الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ وأولئك هُمُ المهتَدونَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إن ذلك لمِن عَزْمِ الأمور﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين وَنَبْلُوا أخباركم﴾ (٣).

وهذا باب متسع جداً في الآيات والأحاديث؛ وإنما نذكر منه ما يوقظ الساهي وينبّه الغافل. وقد تقدم حديث أم سلمة من غير وجه من رواية الإمام أحمد ومسلم وغيرهما.

وعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّهورُ شطرُ الإيمانِ والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجةٌ لك أو عليك» الحديث رواه مسلم.

ورواه أبو داود من طريق أخرى بلفظ غريب: أن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصابت أحدَكُم مصيبةٌ فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسبتُ مصيبتي فأجُرني بها وأبدلني خيراً منها» فلما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفني في أهلي خيراً مني، فلما قبض. قالت أم سلمة: إنا لله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٣.
(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

وإنا إليه راجعون، عند الله احتسبتُ مصيبتي فاجُرْني فيها. فانظر رحمك الله إلى ما آلت إليه حين احتسبت وصبرت ورضيت وركنت واتبعت السنة وقد تقدم نحو ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يَستعِفَّ يعِفَّهُ الله، ومن يستغن يُغْنِهِ الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه الله، وما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر» رواه البخاري ومسلم.

وعن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كلَّه له خيرٌ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سَرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاءُ صبر فكان خيراً له» رواه مسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل. قال: «إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيْهِ فصبر عوضته منهما الجنة» ـ يريد عينيه ـ رواه البخاري.

وعن عطاء بن أبي رباح. قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ. فقالت: اني أُصرع وإني أتكشف، فادع الله تعالى لي فقال: «إن شئت صبرتِ ولك الجنة وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافِيَك» فقالت: أصبر؛ ثم قالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف؛ فدعا لها. رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. قال: «ما يصيب المسلمَ من نَصَب، ولا وَصَب، ولاهَمٍ ولا حَزن، ولا أذى، ولا غَم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه» رواه البخاري ومسلم. الهم: على المستقبل، والحزن: على الماضي، والنصب: التعب، والوصب: المرض.

وروي من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ. قال: «لا يصيب العبدَ نكبةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» قال: وقرأ ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [1] وروي من حديث عمرو بن العاص أن النبي ﷺ. قال: «المسلم الذي يخالط الناس ويَصْبِرُ على أذاهم خَيْرٌ مِنَ الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» [2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصَبْ منه» رواه البخاري. قوله «يصب» بفتح الصاد وكسرها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قَسَم مالا، فقال بعض الناس: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ. فقال: «رحم الله أخي موسى لقد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر».

وقال عبد الرزاق؛ حدثنا السوري عن سفيان العصفوري عن سعيد بن جبير أنه قال: في قوله تعالى. ﴿يا أيُّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين﴾ [3]. قال: لم يعط أحدٌ غير هذه الأمة الصبرَ ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ياأسفي على يوسف.

وروى سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس رضي الله عنهما نُعِيَ إليه أخُوه قَثم وهو في سفر، فَاسترجع، ثم تنحى عن الطريق فأناخ، ثم صلى ركعتين فأطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين﴾ [4].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر بلفظ: «المؤمن» بدل «المسلم».

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

وقال هشيم: حدثنا خالد بن صفوان. قال. حدثني زيد بن علي أن ابن عباس كان في مسير له فنعي اليه ابنٌ له فنزل فصلّى ركعتين ثم استرجع وقال: فعلنا كما أمرنا الله ﴿واستعينوا بالصَّبر والصلاة﴾. وقال أبو الفرج بن الحوزي: روي عن أم كلثوم ـ وكانت من المهاجرات ـ أنه لما غشي على زوجها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه خرجت إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر والصلاة.

وحكى سعيد بن منصور عن الحجاج عن ابن جريج ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه. قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فقلت يا رسول الله، إنك توعك وعكاً شديداً؛ قال: «أجل إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم» قلت ذلك أن لك أجرين. قال: «أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكةٌ فما فوقه إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» رواه البخاري ومسلم والوعك مغث الحمى، وقيل الحمى.

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه. قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤْخَذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فتُوضع على رأسه فيُجْعَلُ نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدُّه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري.

وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط» قال الترمذي: حديث حسن.

وعن أنس رضي الله عنه. قال: كان ابن لأبي طلحة رضي الله عنه يشتكي،

فخرج أبو طلحة فقُبِض الصبي ، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان، فقدمت له العشاء فتعشى ثم أصاب منها، فلما فرغ منها قالت: واروا الصبي؛ فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال؟ « أعرّستم الليلة » قال: نعم. قال: « اللهم بارك لهما » فولدت غلاماً، فقال لي أبو طلحة أحمله حتى تأتي به النبي ﷺ وبعث معه تمرات فقال « أمعه شيء »؟ قال: نعم تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في فيّ الصبي وحنكه وسماه عبد الله. رواه البخاري ومسلم، وفي رواية البخاري قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن ـ يعني من أولاد عبد الله ـ.

وفي رواية لمسلم: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أُحدّثه، فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. فقالت: احتسب ابنك؛ فغضب ثم قال: تركتيني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتيني! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان. فقال رسول الله ﷺ: « بارك الله لكما في ليلتكما » قال: فحملت، وذكر تمام الحديث وقد تقدم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: « تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيُوفّوْن أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفّوْن أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيوفّوْن أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا يُنْصَبْ لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصَبُّ عليهم الأجرُ صبّاً بغير حساب، ثم قرأ

﴿إنما يُوَفَّى الصابرون أجْرهُم بغَيْر حِساب﴾[1] حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل. رواه منجويه في تفسيره.

وروى مالك بن أنس في الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن النبي ﷺ. قال: «إذا مَرِضَ العبدُ بَعث الله إليه مَلَكين فقال: انظرا ماذا يقول لعُوَّاده فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رَفَعا ذلك إلى الله ـ وهو أعلم ـ فيقول: لعبدي عَلَيَّ إن توفيتُه أن أُدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أُبْدِله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفِّر عنه سيئاته».

فصل
في كلام السلف في الصبر

قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر ثلاثة: صبرٌ على المصيبة وصبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية فمن صبر على المعصية حتى يردّها بحسن عزائها كتب له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة. ومن صبر عن المعصية كتبت له تسعمائة درجة.

وقال ميمون بن مهران: الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن وأفضل منه الصبر عن المعصية.

وقال الجنيد ـ وقد سئل عن الصبر. فقال: هو تجرُّع المرارة من غير تعبس.

وقال الفضيل بن عياض: في قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عليكم بما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبى الدَّارِ﴾[2] ثم قال: صبروا على ما أُمروا به وصبروا عما نُهوا عنه، انتهى كلامه؛ فكأنه رحمه الله جعل الصبر عن المعصية داخلا قسم المأمور به.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن أبي السفر قال: مرض أبو بكر فعادُوه. فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

قالوا: فأيُّ شيء قال لك؟ قال: إني فعّالٌ لما أُريد.

قال أحمد: ثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب: وجدنا خير عيشنا بالصبر. وفي رواية «أفضل عيش أدركناه بالصبر ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً».

وقال عليُّ بنُ أبي طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صَبْرَ له.

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضها مكانها الصبر إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزعه منه.

وقال بعض العارفين في رقعة[1] يخرجها كل وقت فينظر فيها وفيها مكتوب ﴿وآصبرْ لِحُكمِ رَبِّك فإنك بأعيننا﴾[2].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فصبر جميل﴾[3] في غير جزع.
وقال عمرو بن قيس (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) قال الرضا بالمصيبة والتسليم.

وقال حسان (فصبرٌ جميل) لا شكوى فيه. وقال همام عن قتادة في قول الله تعالى: ﴿وآبيضَّتْ عيناه من الحزن فهو كظيم﴾[4] قال: كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً. وقال الحسن: الكظيم الصبور. وقال الضحاك: كظيم الحزن.

وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله.

---

(١) هكذا بالأصل. «وقال بعض العارقين في رقعة» ولعل الصواب: «وكان لبعض العارفين رقعة... الخ» فتدبر.
(٢) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٣.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

وقال يونس بن زيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر قال: أن يكون يَوْمَ تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه.

وقال قيس بن الحجاج في قوله تعالى ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ [1] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُعرف من هو.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي في عيون الحكايات. قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق؛ فاذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها فسلّمنا فإذا امرأة تردّ علينا السلام. قالت: ما أنتم؟ قلنا قوم ضالون عن الطريق أتيناكم فأنِسْنا بكم. فقالت: يا هؤلاء وَلّوا وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا. فألقت لنا مسحاً. فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني. ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردّها إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها. فقال يا أُمَّ عقيل، أعظم الله أجرك في عقيل. قالت: ويحك مات ابني؟ قال نعم قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكوّرت فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم مِنْ أحدٍ يُحْسن من كتاب الله شيئاً؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ عليَّ من كتاب الله آياتٍ أتعزى بها؛ قلت: يقول الله عز وجل في كتابه﴿ وبشِّرِ الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[2] قالت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا؛ قالت: السلام عليكم ثم صفت قدميها وصلت ركعات ثم قالت: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ عند الله أحتسب عقيلا. تقول ذلك ثلاثاً، اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني.

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

الباب الثامن عشر
في أن الشخص لا يستغني عن الصبر لا في المصيبة ولا في غيرها

اعلم رحمك الله أن الشخص البالغ العاقل المسلم ما دام في دار التكليف والأقلامُ جارية عليه، لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال، فإنه بين أمرٍ يجب عليه امتثاله والصبر لا بدَّ له منه قولاً وفعلاً، وبين نَهْيٍ يجب عليه اجتنابه وتركه والصبر لا بدّ له منه، وبين قضاء وقد يجب عليه الصبر فيها، وبين نعمة يجب عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات.

فإن قيل: النعم يجب الصبر عليها؟

قيل: نعم؛ لأنها من الابتلاء كما قال تعالى ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونَعَّمه فيقول ربي أكرمن﴾ [1] وقال تعالى: ﴿ولَنبلونَّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَا أخباركم﴾ [2] وفي الآية الأخرى: ﴿وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا﴾ [3] أي ليس الأمر كذلك، وإنما الله تعالى يبتلي عباده بالغِنَى والفقر، فينظر من هو المجاهد الشاكر الصابر على ما ابتلاه به كما يبتلي عباده بالمصائب والأسقام تطهيراً لهم من الذنوب والآثام.

فصل

ويحتاج العبد إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

---

(١) سورة الفجر، الآية: ١٥.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣١.
(٣) سورة الفجر، الآية: ١٦.

(**أحدهما**) قبل الشروع في العبادات بتصحيح النية والإخلاص، وعقد العزم على توفية المأمور به وتجنب دواعي الرياء والسمعة.

(**والحالة الثانية**) الصبر حال العمل؛ فيلازم الصبر عند دواعي التقصير فيه والتفريط ويلازم على استصحاب ذكر النية وحضور القلب بين يدي المعبود، وهو محتاج إلى الصبر في توفية أركانها وشروطها وواجباتها وسننها.

(**والحالة الثالثة**) الصبر بعد الفراغ من العمل فيحذر من الإتيان بما يبطله، كما قال تعالى: ﴿لا تُبْطلوا صدقاتِكم بالمنّ والأذى﴾ [1] فالصبر على محافظتها بعد الفراغ أنفع ما للعبد. هذا معنى ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية.

وقال العلامة ابن القيم: وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

(**أحدهما**) موافق هواه ومراده.

(**والثاني**) يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما.

أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه: (**أحدها**) أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا يحمله عليه البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

(**الثاني**) أن لا ينهمك في نيلها ولا يبالغ في استقصائها فإنها تنقلب إلى أضدادها فمن يبالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك ضده وحرم الأكل والشرب والجماع.

(**الثالث**) أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضعه فيسلبها.

(**الرابع**) أن يصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكّن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه في الحرام فاذا احترز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السرّاء إلا الصديقون.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

قال بعض السلف: البلاء يَصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صِدِّيق.

وأما النوع الثاني: فأما الطاعة فالعبد يحتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبادات إلا من وفقه الله، وتبين ذلك بالصلاة طبع النفس فيها الكسل وإيثار الراحة، والزكاة فطبع النفس فيها الشح والبخل، وأما الصوم فطبع النفس بمحبة الفطر وعدم الجوع وعلى هذا فقس، فهو محتاج إلى الصبر في جميع ذلك والله أعلم. ومن هذا الباب قول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

فصل

وإنما كان الصبر على السراء شديد مشق[1] على النفس لأنه مقرون بالقدرة على ما تشتهيه النفس وتميل إليه، لأن الجائع عند عدم الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غير المرأة اصبر منه عند حضورها، وكذلك العطشان الشديد العطش عند عدم الماء أصبر منه عند وجوده.

فصل

وقد حذّر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في كتابه العزيز من فتنة المال ومن فتنة الأزواج ومن فتنة الأولاد فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهكم أموالُكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾[2]. وقال تعالى: ﴿إنما أموالُكُم وأولادُكم فتنة﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لكم فاحذَرُوهم﴾[4] وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها

---

(١) الصواب «شاق» اسم فاعل من شق، ولم يرد في كتاب اللغة (مشق) بمعنى شاق.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٥.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٤.

عداوة البغضاء والمجادلة، بل عداوة المحبة الصادّة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعليم العلم وغير ذلك من أعمال البر، هذا معنى ما ذكره العلامة ابن القيم.

فالمقصود: أنه من صبر في السراء عن المعصية فقد أمن فتنة المال فإنه قادر على فعل المعصية وبذل المال؛ فلهذا كان له الثواب الجزيل، والفضل العظيم وكذلك من صبر على تربية الأولاد وأذى بعضِ الزوجات كان له الدرجات العاليات؛ فانه ليس كل زوجة وولد منهم إذا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عَدُواً لكم فاحذروهم» فإنّ «من» هنا للتبعيض باتفاق الناسِ، والمعنى: إن من الأزواج والأولاد عدواً، ليس المراد أن كل زوج وولد عدّو، فإنّ هذا ليس هو مدلول اللفظ وهو باطل في نفسه؛ فإنه سبحانه وتعالى قد قال عن عباد الرحمن أنهم يقولون. ﴿ربنا هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا وذريَّاتنا قُرَّةَ أعْيُن﴾ (١). فسألوا الله أن يَهَب لهم من أزواجهم وأولادهم قرة أعين؛ فلو كان كل زوج وولد عدواً لم يكن فيهم قرة أعين؛ فإن العدو لا يكون قرة عين بل سخنة عين. وأيضاً فإنه من المعلوم أن إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم ويحيى بن زكريا وأمثالهم ليسوا أعداء، وقول من قال: إنها زائدة غلط لوجوه:

أحدها: أن مذهب سيبويه وجمهور أئمة النجاة: أنها لا تزاد في الإثبات وإنما تزاد في النفي تحقيقاً لعموم النفي لقوله تعالى: ﴿وَما مِنْ إلهٍ إلاَّ الله﴾ (٢) ﴿وما مِنْ إلهٍ إلاَّ إلهٌ واحد﴾ (٣) ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ (٤) ونحو ذلك؛ فإنه لولا «مِنْ» لكان الكلام ظاهراً في العموم، فإنه يجوز أن يقول، ما رايت رجلا بل رأيت رجلين: فاذا أدخلت «من» فقلت: ما رأيت من رجل، كان نعتاً في العموم؛ فلا يجوز أن يقال: ما رأيت من رجل بل رجلين، مع أن النكرة في سياق النفي للعموم. مطلقاً، لكن قد يكون نصاً وقد

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٣.
(٤) سورة هود، الآية: ٦.

يكون ظاهراً فإذا كانت ظاهراً احتملت، نفي الواحد من الجنس، بخلاف النص، وهذا الموضع إثبات لا نفي فلا تـزاد فيه.

الثاني أنّ من جوز زيادتها في الإثبات كالأخفش لا يجوزه إلا إذا كان في الكلام ما يدل عليه، وإلا فلو قال قائل: إن من هؤلاء القوم مسلمين، وأراد أنّ جميعهم مسلمون لم يجز ذلك بالاتفاق.

الثالث: إذا قيل بزيادتها كان المعنى باطلا.

الرابع: الزيادة على خلاف الأصل، فلا يجوز ادعاؤها بغير دليل. انتهى كلامه. وهذه فائدة عارضة ذكرتها على سبيل التنبيه لوقوع ناس كثير فيها. والمقصود إن العبد لا يستغني عن الصبر في حالة من الاحوال، ويكفي من فضل الصبر أنّ الله تعالى وصف نفسه به كما في حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «ليس أحد ـ أو ليس شيء ـ أصبر على أذى أسمعه من الله تعالى، إنهم يَدْعُونَ له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم» رواه البخاري.

قال القرطبي في تفسيره: وصف الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحلم ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد في التنزيل، وإنما ورد في الحديث، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم قاله ابن فورك انتهى كلامه. وذكر عند قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَعِينوا بالصَّبْرِ والصَّلاة﴾ [1] قلت: وقد جاء في أسمائه الحسنى الصبور. وجاء في أسمائه الحليم، فلو كان الصبور بمعنى الحليم كان الاسمين الشريفين مترادفين، والأصل في الأسماء التغاير، والله أعلم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

الباب التاسع عشر
في أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس

وهذا الباب ينقسم فيه الصبر إلى قسمين (**أحدهما**) بحسب قوة الداعي إلى الفعل.

(**الثاني**) بسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق، وإن فقدا معاً ـ يعني قوة الداعي وسهولته سَهُل الصبر عنه، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه دون آخر، فمن لا داعي له إلى قتل النفس والسرقة وشرب الخمر وأكل الحشيشة وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم، وصبر الشباب عن الفاحشة وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات، منزلتهم عند الله منزلة عظيمةعالية منيعة لا يصل إليها إلا من صبر مثل صبرهم وكذلك من صبر على موت أولاده وأبويه وأقاربه وأصحابه ونحوهم، وهو مع ذلك صابر محتسب يأمر أهله بالصبر، وينهاهم عن لطم الخدود وشق الجيوب، وعن كلام مالا يجوز لهم شرعاً؛ فهذا له من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما لا يعلمه إلا الله؛ فالعبد إذا ذاق لذة المعصية ثم تاب وصبر عنها كانت توبته توبة صادقة، ولقد بلغني عمن أعرفه أنه تاب عن الخمر وحلف بالطلاق لا يشربه ثم إنه خالع وشرب.

ولقد رأيت جماعة منهم ممن حلف بالطلاق الثلاث لا يلعب بالشطرنج وتاب منه، ومع ذلك يعلم أن أكثر العلماء قالوا بتحريمه وأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وأنه يحصل عليه من الحلف الكاذبة والفحش ما هو معروف مشهور،

ومع ذلك منهم من خالع ولعب، ومنهم من لعب ووقع عليه الطلاق الثلاث بعد التوبة والحلف. فالصبر المستمر مع القدرة من غير خوف على جاهه أو ماله أو عرضه، صبرٌ على المعاصي، ومواظبته على ما أمره الله تعالى به صبرٌ على الطاعات، فإذا فعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ثوابه أن يوفي أجره بغير حساب.

ولهذا روى الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ. قال: «عَجِبَ ربُّكَ من شابٍ ليست له صَبْوة» وفي الصحيح من حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ. قال: «سبعة يُظِلُّهم الله في ظل عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين، ورجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالهُ ما أنفقت يمينُه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم في ظله لكمال صبرهم ومشقته على نفوسهم، فصبرُ الملك على العدل مع قدرته على الظلم والانتقام من رعيته، وصبرُ الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه وصبرُ الرجل على ملازمة المسجد وصبرُ المتصدِّق على إخفاء الصدقة حتى عن شماله مع قدرته على الرياء، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع جمال الداعي، وصبرُ المتحابين في الله في اجتماعهما وانفرادهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك عن الناس؛ فهذه الأمور فيها مشقة على النفوس؛ فالصبر عليها بتوفيق الله وفضله وإحسانه صبرٌ جميل عظيم.

فصل

ولما كان الداعي في حق الناس ضعيفٌ ولم يصبروا مع تمكنهم من الصبر، كان عقوبتهم عند الله تعالى أشدَّ من عقوبة غيرهم، كالشيخ الزاني، والملك الكذاب، والفقير المختال؛ وإنما كانوا أشدَّ عقوبة من غيرهم لسهولة التصبر عن هذه المحرمات عليهم، ولضعف دواعيها في حقهم فكان تركهم الصبر عنها دليلاً على تمرّدهم على الله تعالى، وعتوهم عليه ولهذا كان الصبر على معاصي اللسان

والفرج من أشق أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما؛ فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان لسرعة حركته وسهولة إطلاقه، وثبت أن النبي ﷺ قال: «وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائدُ ألسنتهم، فيجب لجامه بلجام الشرع؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» فإنّ اللسان رحب الميدان في الخير والشر؛ فمن أطلقه ولم يضبطه بالشرع سلك به الشيطان في المهالك، وكبَّه في النار عند مالك؛ فالكمال إمساكه مطلقاً عن فضول الكلام إلا في خير وما لا بدّ منه؛ فإن اللسان لا تؤمن غائلته وخطره عظيم. ولسهولة حركته وسرعة إطلاقه قد بلي أكثر الناس في زماننا بآفاته التي هي فاكهتهم وسرور مجالسهم: كالغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال والخوض في الباطل والخصومات وفضول الكلام والتحريف والزيادة والنقصان وتزكية النفس تفريجاً وتعريضاً، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه وتزكيةً من يحبه وهتك المستورات ونحو ذلك. فيتفق قوة الداعي وسرعة حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك». وقد تقدم الحديث. فإذا صارت هذه الآفات التي ذكرناها للسان عادة وسجية، فإنه يشقّ على العبد الصبر عنها إلا من عصمه الله. فآفات اللسان مهلكة ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع، نسأل الله السلامة منها، لهذا نجد كثيراً من المتفقهة وغيرهم ممن ينتسب إلى الورع يتورع من استناده إلى مخدة من الحرير، أو من قعوده على بساط حرير، أو من شربه من قدح زجاج مموه بالذهب أو الجلوس لحظة واحدة في فرح وغيره مع ما فيه من الخلاف ولا يتورع من إطلاق لسانه في الكبائر من الذنوب، كالغيبة والنميمة والتغلّة في أعراض الخلق، وكذا إذا وقع الكلام في تفسير كلام الله، أو في مسند رسول الله، أطلق لسانه فيهما بغير علم مع علمه بقوله تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به عِلْمٌ إنَّ السَّمعَ والبصرَ والفؤاد كلُّ أولئكَ كان عنه مسئولاً﴾[1] ثم أيضاً ممن يتورّع عن الحبة من الحرام، بل عن الفلس المحرم وعن القطرة من

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

الخمر، ويتحرز عن مثل رأس الإبرة من النجاسة؛ ولا يبالي بارتكاب الفرج المحرم، سواء كان صبيّاً أو امرأة. كما يحكى: أن رجلاً خلا بامرأة أجنبية فلما أراد جماعها قال: يا هذه غطي وجهك فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام.

والمقصود أن الصبر عن الأشياء التي اعتادها الإنسان وورد الشرع بذمتها من أشق الأشياء على النفوس، إلا من وفقه الله لذلك.

فصل

ومن علامة الصبر وعدم مشقته على النفس عند ورود المصائب وكف الكف عن تمزيق الثياب ولطم الخدود، وحبس اللسان عن الاعتراض على المقادير، والتسخط والامتناع من كل شيء يوجب إظهاره حتى إن السلف كرهوا الأنين، قالت الحكماء: العاقل يفعل أول يوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام. وقد قال عليه الصلاة والسلام للأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً وإلا سلوت كما تسلو البهائم».

الباب العشرون
في الرضاء بالمصيبة

إعلم رحمك الله أن الرضاء بالمصائب أشقُّ على النفوس من الصبر، وقد تقدم أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس، وفي جامع الترمذي أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضاء ومن سَخِط فله السَّخَط».

وقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضاء بالقضاء هل هو واجب أو مستحب على قولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقرّبين، ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها؛ فالرضاء أعلى من مقام الصبر؛ لكن الصبر اتفقوا على وجوبه، والرضاء اختلفوا في وجوبه، والشكر أعلى من مقام الرضاء، فإنه يشهد المصيبة نعمة فيشكر المبلى عليها. قال عمر بن عبد العزيز: أما الرضاء فمنزلة عزيزة أو منيعة، ولكن قد جعل الله في الصبر مُعَوَّلاً حَسناً.

وقال محمد بن إدريس الشافعي: حدّثنا زهير بن عباد عن السري بن حيان قال: قال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا وسراج العابدين.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. قال سمعت رسول الله ﷺ. يقول: «الصبرُ رِضَاءٌ» فهذا الحديث فيه بشارة عظيمة لأهل المصائب، إذ سمي الصبر رضاء.

وبإسناده أيضاً إلى أبي مسلم. قال أبو مسلم: دخلت على أبي الدرداء في اليوم

الذي قُبض فيه وكان عندهم في العز كأنفسهم، فجعل أبو مسلم يكبر، فقال أبو الدرداء: أجل فهكذا فقولوا؛ فإن الله إذا قضى بقضاء أحبّ أن يُرضَى به.

وذكر ابن أبي الدنيا في قوله تعالى ﴿ومَن يُؤمِن باللهِ يَهْدِ قلبَهُ﴾[1] قال علقمة بن أبي وقاص: هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيُسَلِّم لها ويرضى. وقال: حدثنا الحسين ثنا عبد الله ثنا علي بن الحسن العامري ثنا أبوه بدر ثنا عمر بن ذرّ، قال: بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول: إن الراضين بقضاء الله الذين ماقضى الله لهم رضوا به لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة. وبهذا الإسناد عن سليمان بن المغيرة. قال: كان فيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام، إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك ولا أحطَّ لوِزرك من الرضاء بقضائي ولن تلقاني بعمل هو أعظم لوزرك ولا أشد لسخطي عليك من البطر، فإياك يا داود والبطر.

وقال الشافعي: سمعت ابن أبي الحواري يقول: سمعت أبا سليمان الداراني يقول أرجو أن أكون قد رزقت من الرضاء طرفاً لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً. وقال ابن زيد: نظر عليٌّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيباً. فقال: يا عديٌّ ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ قال: وما يمنعني وقد قتل أبنائي وفقئت عيني. فقال: يا عديٌّ، من رضي بقضاء الله كان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله حَبِطَ عمله. ذكره ابن أبي الدنيا.

وقال أبو عبد الله البرائي: من وهب له الرضاء فقد بلغ أقصى الدرجات.

فإن قيل: غالب الناس يصبرون ولا يرضون فكيف يُتَصَوَّر الرضى بالمكروه؟ يقال: إن نفور الطبع عن المصائب لا ينافي رضا القلب بالمقدور؛ فإنا نرضى القضاء وإن كرهنا المقضى؟

قيل لبعض الصالحين: قتل ولدك في سبيل الله! فبكى فقيل له: أتبكي وقد

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١١.

استُشهد؟ فقال: إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله عز وجل حين أخذته السيوف.

وذكر أبو الفرج بـن الجوزي بسنده عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال: اللهم لو أعلم أنه أرضى لك أن أوقد ناراً عظيمة فأقع فيها لفعلت، ولو أعلم أنه أرضى لك عني أن ألقي نفسي في الماء فأغرق لفعلت.

وعن مصعب بن ماهان عن سفيان الثوري. قال: في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (١). قال: المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له.

فصل

وقد أطنب الناس من السلف والخلف في الرضا وبسطوا القول فيه واعتنوا به، وهذا يدل على علوِّ منزلته. قال عمرو بن أسلم العابد: سمعت أبا معاوية الأسود يقول: في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (٢) قال: الرضاء والقناعة.

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده رفعه إلى النبي ﷺ. قال: جلساءُ الرحمن تبارك وتعالى يوم القيامة الخائفون الراضون المتواضعون الشاكرون الذاكرون».

وبإسناده إلى محمد بن كعب رفعه أنه قال: أي ربِّ أيُّ خلقك أعظم ذنباً؟ قال: الذي يتهمني. قال: رب وهل يتهمك أحد؟ قال: نعم، الذي يستجيرني ولا يرضى بقضائي.

قال مالك بن أنس: بلغني أن أبا الدرداء دخل على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى. فقال أبو الدرداء: أصبت، إن الله تعالى إذا قضى أحب أن يُرْضى به.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن عون أنه. قال: ارْض بقضاء الله على ما كان من عسر ويسر، فإن ذلك أقلُّ لغمِّك، وأبلغُ فيما تطلب من أمر آخرتك:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٤. (٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاؤه عند الفقر والبلاء، كرضائه عند الغناء والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك ثم تتسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك؟ ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هُلْكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك وذلك لقلة علمك بالغيب، وكيف تستقضيه، إن كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضا!

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا أيضاً. قال: حدثنا الحسين ثنا عبد الله حدثني المروزي. قال: قال حفص بن حميد: كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة حين ماتت امرأته، فسألته ما الرضاء؟ قال: الرضاء أن لا يتمنى خلاف حاله؛ فجاء أبو بكر بن عياش فعزى ابن المبارك. قال حفص: ولم أعرفه. فقال عبد الله: سله عما كنا فيه فسألته فقال: من لم يتكلم بغير الرضاء فهو راض قال حفص: وسألت الفضيل بن عياض. فقال: ذاك للخواص. ثم قال قادم الديلمي العابد: قال قلت للفضيل بن عياض: من الراضي عن الله؟ قال: الذي لا يحب أن يكون على غير منزلته التي جعل فيها. وقال أبو عبدالله البرائي لم يَرِدِ الآخرة أرفعُ درجات من الراضين عن الله عز وجل على كل حال وقال سيار: دخلت على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه. فقال: إن أحبه إليَّ أحبه إلى الله عز وجل. وقال عمرو ابن أسلم العابد: سمعت أبا معاوية الأسود يقول: في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبَةً﴾ (١). قال: الرضا والقناعة. ذكرهن ابن أبي الدنيا في كتاب الرضا، ثم ذكر عن مصعب بن ماهان عن سفيان الثوري. قال في قوله تعالى ﴿وبَشِّرِ الـمُخْبِتِينَ﴾ (٢) قال: المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له.

وعن وهب بن منبه. قال: وجدت في زبور داود عليه السلام يا داود هل تدري أي الفقراء أفضل؟ الذين يرضون بحلمي وبقسمي ويحمدوني على ما أنعمت عليهم، هل تدري يا داود أي المؤمنين أعظم عندي منزلة الذي هو بما أُعطِيَ

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧. (٢) سورة الحج، الآية: ٣٤.

أشدَّ فرحاً بما حُبِسَ.

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن زياد بن حسان أنه شهد عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه حين دفن ابنه عبد الملك استوى قائماً وأحاط به الناس، فقال: والله بُنيّ لقد كنتَ باراً بأبيك، والله ما زلتُ منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشدَّ سروراً ولا أرجى لحظي من الله فيك منذ وضعك الله في المنزل الذي صيرك إليه، فرحمك الله وغفر لك ذنبك، وجزاك بأحسن عملك، ورحم كل شافع يشفع لك بخير شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين. ثم انصرف.

وقال سفيان الثوري: قال عمر بن عبد العزيز لابنه: كيف تجدك؟ قال: في الموت، قال: لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال: والله يا أبه لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أُحب.

وروى الإمام أحمد في الزهد بإسناده عن الحسن. قال: حدثني الأحوص قال: دخلنا على ابن مسعود رضي الله عنه وعنده بنون له ثلاثة كأنهم الدنانير حُسناً، فجعلنا نتعجب من حسنهم. فقال لنا: كأنكم تغبطونني بهم! قلنا: إي والله لمثل هؤلاء يغبط المسلم، فرفع رأسه إلى سقف بيت له صغير قد عشش فيه خطاف وباض. فقال: والذي نفسي بيده لأن أكون نفضت يدي عن تراب قبورهم أحب إلي من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه.

وبإسناده عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يوم مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه، رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره، إنا لله وإنا إليه راجعون.

فصل

قد تقدم ما سنه رسول الله ﷺ لأهل المصيبة وما نهى عنه، ومما سنه الخشوع والبكاء الذي لا صوت معه، وحزن القلب وكان يفعل ذلك ويقول:

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب » وكذلك الحمد والاسترجاع. وقد تقدّم. ومن سنته الرضاء عن الله في المصيبة وغيرها، ولم يكن ذلك منافياً لدمع العين وحزن القلب، وأشد الناس حرصاً على رضى مولاهم الأنبياء؛ فقد روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفاً »[1] قال: فقلنا: سبحان الله. قال: « أفعجبتم، إن أشد الناس بلاء الأنبياء والصالحون الأمثل فالأمثل ». قلنا: سبحان الله. قال: « أفعجبتم، إن كان النبي من الأنبياء ليتدرع العباءة من الحاجة لا يجد غيرها » قلنا: سبحان الله. قال: « أفعجبتم، إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء ». ولهذا كان أرضاهم وأرضى الخلق عن الله نبيِّنا محمدّ ﷺ في قضائه وقدره. وأعظمهم له حمداً، ولم يمكني أحصر ما وقع له في ذلك لكثرته وشهرته، ومع ذلك بكى يـــوم مات ابنه إبراهيم عليه السلام رأفة ورحـــة منه للولد ورقة عليه، وقلبه ﷺ ممتلىء بالرضا عن الله تعالى وشكره له. واللسان مشتغل بحمده وذكره.

ولما ضاق هذا المشهد والجمع بين الأمرين - يعني رحمة الولد والرقة عليه والرضاء عن الله تعالى - على أن بعض العارفين من السلف يوم مات ولده جعل يضحك. فقيل له: تضحك في مثل هذه الحال؟ فقال: إن الله تعالى قضى فأحببت أن أرضى بقضائه؛ فأشكل هذا على جماعة من العلماء وأرباب الأحوال والتصوف وقالوا: كيف يبكي رسول رب العالمين ﷺ يوم مات ولده وهو أرضى الخلق عن الله، ويبلغ الرضا بهذا العارف إلى أن ضحك يوم مات ولده؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية هدي نبينـا ﷺ أكمل من هدي هذا العارف؛ فإنه ﷺ أعطَى العبودية حقها، فاتسع قلبه للرضا عن الله ورحمة الولد والرقة عليه، فحمد الله ورضي عنه في قضائه، وبكى رحمة ورقة، فحملته الرحمة على البكاء وعبوديتُه لله ومحبته له على الرضا والحمد، وهذا العارف ضاق قلبه عن

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أخت حذيفة بدون كلمة « تضعيفاً » و « معشر » بدل « معاشر ».

اجتماع الأمرين، ولم يتسع بطانه لشهودهما والقيام بهما، فشغلته عبودية الرضاء عن عبودية الرحمة والرقة، والله تعالى أعلم. انتهى.

(قلت) ومما يؤيد ما ذكره الشيخ رحمه الله قصة نبيِّ الله يعقوبَ إسرائيل الله عليه السلام، إذ حكى الله تعالى عنه أنه ابيضت عيناه من الحزن. وقال: ﴿فصبر جميل﴾[1] ﴿وإنما أشكو بثِّي وحُزْني إلى﴾[2] واستعمل الرقة والرحمة عند ﴿وابيضتْ عيناه من الحُزْن﴾[3] فطريقة يعقوب عليه السلام أفضلُ من طريقة هذا العارف، مع كثرة أولاد يعقوب، وهذه رحمتُه ورِقته، وأما هذا العارف على ما قيل لم يكن له ولد سواه.

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده عن ثابت البناني: أن صلة بن أشيم كان في مغزى له ومعه ابنه. فقال له: أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فجاء فقاتل حتى قتل، ثم تقدم أبوه فقتل، فاجتمعت النساء عند أمه معاذة العدوية. فقالت: مرحباً، إن كنتنّ جئتن لتهنِّئنني مرحباً بكُنّ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجِعن.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي: قال أبو جحيفة: إنا لمتوجهون إلى همذان ومعنا رجل من الأزد فجعل يبكي. فقلتُ أجَزَعٌ هذا؟ قال: لا ولكن تركت ابني في الرحل فلوِددْت أنه كان معي فدخَلْنا الجنة جميعاً.

فصل

الرضا من أعمال القلوب، لكن وإن كان من أعمال القلوب فكمالُهُ هو الحمد حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضاء؛ ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال، وذلك يتضمن الرضا بقضائه. وفي الحديث: «أول من يدعى إلى الجنة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء» وفي الحديث مرفوعاً، أن النبي

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٣.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

ﷺ كان إذا أتاه أمر يَسُره. قال :« الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه أمر يسوؤه قال: « الحمد لله على كل حال » وقد تقدّم في مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسى الأشعري، أن النبي ﷺ قال: « إذا قبض الله ولد العبد يقول الله لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال: فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله عز وجل. ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد ».[1]

ومحمد نبينا ﷺ هو صاحب لواء الحمد، وأمته هم الحامدون الذين يحمدون الله على السراء والضراء، والرضاء، والحمد على الرضاء له مشهدان:«(أحدهما) علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه، أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء وهو العليم الحكيم (الثاني) أن يعلم أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه » كما روى مسلم في صحيحه، عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاءُ شكره فكان خيراً له وإن أصابته ضراءُ صَبَرَ فكان خيراً له » فأخبر ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على الرخاء فهو خيرٌ له، كما قال تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صَبَّارٍ شكور﴾[2] فمن لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء، فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له، ولهذا أجيب من أورد على هذا بما يقضي على المؤمن من المعاصي بجوابين (أحدهما) أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما يفعله، كما في قوله تعالى ﴿ما أصابك من حَسَنَةٍ فمن الله وما أصابكَ من سيئة فَمِن نفسِكَ﴾[3] وكقوله تعالى أيضاً ﴿وبلوناهُم بالحسناتِ والسيئاتِ لعلهم يَرْجعون﴾[4] أي بالسراء والضراء (الثاني) أن هذا في حق المؤمن الصابر

---

(١) رواه الترمذي في صحيحه عن أبي موسى بمعناه مع اختلاف في اللفظ.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.

الشاكر، والذنوب تنقص الإيمان فإذا تاب العبد أحبه الله وقد ترتفع درجته بالتوبة.

قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير: إنّ العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإنّ العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب إليه منها.

وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الأعمال بالخواتيم» والمؤمن إذا فعل سيئة فإنّ عقوبتها تندفع بعشرة أسباب:

أحدها: أن يتوب توبة نصوحاً ليتوب الله عليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثاني: أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له.

الثالث: أن يعمل حسنات يمحوها لقوله ﴿إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيِّئاتِ﴾ (١).

الرابع: أن يَدعُوَ له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حياً وميتاً.

الخامس: أن يُهدِيَ له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

السادس: أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ.

السابع: أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب في نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك.

الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة وهي عصر القبر فيكفر بها عنه.

التاسع: أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

العاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين. فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومنّ إلا نفسَه، كما قال تعالى في الأحاديث الإلهيات (إنما هي أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية.

والمقصود أن المؤمن إذا كان يعلم أن القضاء خيرٌ له، فيرضى عن الله بما قسم له: كان قد رضي بما هو خير له وفي الحديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: «إن الله يقضي بالقضاء؛ فمن رضي فله الرضاء، ومن سَخِطَ فله السَّخَط».

الباب الحادي والعشرون
فيما يقدح في الصبر والرضاء وينافيهما

قد تقم أن الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله، وأنه حبسُ النفس عما لا يَحسُن فعله ولا يَجْمُلُ، وحبسُ اللسان عما لا يَحسُن قوله؛ فإذا كان معنى هذه المقالة أن الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله، والقلب عن التسخط، والجوارح عن لطم الخدود، وخمش الوجوه، وشق الثياب، ونحو ذلك، وأن العبد يرضى عن الله فيما يفعله به مما يحب وقوعه، ومما يكره وقوعه، فإذا وقع من العبد عكسُ ما ذكرته كان متلبساً بالنقائص والرذائل، فمن شكا ما به إلى مخلوق مثله كان قد شكا ربه إلى بعض مخلوقاته، فمثله كمثل من شكا من يرحمه ويلطف به ويعافيه وبيده ضرّه ونفعه، إلى من لا يرحمه وليس بيده نفعاً ولا ضراً. فهذا من عدم المعرفة وضعف الإيمان شكاية الضارّ النافع الذي بيده أزمّة الأمور، إلى من لا يضر ولا ينفع. قال شقيق البلخي: من شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً.

وأما إخبار المخلوق بحاله لا على وجه الشكوى، فإن كان للاستعانة بأن يرشده أو يعاونه أو يوصله إلى زوال ضره بما ينفعه مما هو أخبرُ منه به، كالحجام يحجمه ويقلع ضرسه، أو رجل صالح يدعو له؛ فهذه الأمور على هذا الوجه لم تقدح في صبره؛ لأن هذا كإخبار المريض الطبيب بحاله (وإخبار المبتلي في جسده ببلائه لمن يرجو أن يكون فَرَجُه على يديه، وكذلك كإخبار المظلوم لمن ينتصر به، وإخبار المبتلي في دينه لمن هو مسترشد الهداية ليبيّن له طرق الهداية إن وفق لها.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا دخل على المريض سأله عن حاله. ويقول:

« كيف تجدك؟ » وهو استخبار منه واستعلام بحاله.

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال القاضي أبو الحسين :أصح الروايتين الكراهة لما روي عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض.

وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم مما سطر به حتى أنينه في مرضه. انتهى.

وقال جماعة من العلماء: الأنين شكوى بلسان الحال فينافي الصبر. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه: أخرجْ إليّ كتابَ عبد الله بن إدريس، فأخرجت الكتاب. فقال: أخرجْ أحاديث ليث بن أبي سليم، فأخرجت أحاديث ليث بن أبي سليم فقال: إقرأ عليّ أحاديث الليث، قال: قلت لطلحة: إن طاووساً كان يكره الأنين في المرض فما سمع له أنين حتى مات، فما سمعت أبي أنّ في مرضه ذلك إلى أن توفي.

والرواية الثانية أنه لا يكره[1] ولا يقدح في الصبر بل قد يقدح في الرضا. قال بكر بن محمد عن أبيه: سئل الإمام أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع! فقال: يعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، حديث عائشة، وارأساه. وجعل يستحسنه.

وقال المروزي: دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل وهو مريض فسألته، فتغرغرت عينه وجعل يخبرني ما مرّ به في ليلته من العلة.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: اعلم أن الأنين على قسمين، أنين شكوى فيكره، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره، والله أعلم.

فصل

ومما ينافي الصبر والرضاء ما يفعله أكثر الناس في زماننا عند المصيبة من شق

---

(١) أي الأنين في المرض.

ثيابهم، ولطم خدودهم، وخمش وجوههم، ونتف شعورهم، والتصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، ورفع أصواتهم عند المصيبة، ولقد حضرت عند شخص حين فارق الدنيا وهو من الجند، فحين خرجت روحه أتوا بجعبة نشاب فكسروها بمجموعها واحدة بعد واحدة عليه، وأتوا أيضاً بعدة الحرب فرموها عليه، وأنا مع ذلك أعظهم وأقول لهم: هذا حرام نهى الله ورسوله عن ذلك، وهذا فيه إضاعة مال. فقال بعضهم لي: لم يصبك ما أصابنا. فخرجت عنهم، ثم إنهم بعد ذلك ندموا على ما فعلوا من إتلاف ما أتلفوه. ولهذا قال النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» لأنّ في تلك الحالة هيجان الحزن واستغراق الذهن، وذهول العقل بما دهمه، وتمكن الشيطان منه فإنّ الشيطان لعنه الله دائماً يتمكن من بني آدم عند ذهول عقلهم: إما بسكر كما وقع في قصة هاروت وماروت، وهي مشهورة حين دعتهما المرأة إلى قتل الولد، أو السجود للصنم، أو شرب القدح من الخمر مراراً وأنهما شربا القدح من المسكر فلما شربا سكرا؛ فأتيا كل ما أمرتهما به. وكذلك ذهول العقل عند العشق، وعند الولاية، وعند كثرة المال، وعند المصيبة، فكل هذه الأمور العارضة للعبد في الغالب يحصل له بها ذهول العقل، فيتمكن الشيطان بها منه، نسأل الله العافية ودوام العافية، والثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد؛ فإن النبي ﷺ كان يسأل الله في دعائه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر»[1] الدعاء المشهور. وكان يقول: «اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك» فالثبات في الأمور مطلوب شرعاً، كما أن العبد منهي عن الأمور المذمومة من اللجاج والطيش، والعجلة والحدة، وافتقاد الحزن وغير ذلك من الأمور المذمومة التي لا أحصيها عدداً. ويحاً لمن يقدم على الله تعالى مع هذه الأمور المذمومة التي نهى الشرع عنها، غير تائب منها، معتمداً على صومه وصلاته وحجه وعبادته، وهو مع ذلك فرح مستبشر كأنه قد جاز الصراط وأعطي البراءة وجاءه البشير من الله تعالى بالفوز والخلاص، ويحاً لمن يغتر بأعماله الظاهرة وباطنه مثل المزابل نسأل الله تعالى حسن التوفيق.

---

(١) رواه الترمذي والنسائي في سننها ضمن حديث، عن شداد بن أوس.

فصل

وأما البكاء والحزن من غير صوتٍ ولا كلامٍ مُحَرَّمٍ ؛ فهو لا ينافي الصبر والرضاء ؛ وقد تقدم لنا قريباً من ذلك. قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [1]. قال قتادة كظيم على الحزن، فلم يقل إلا خيراً. مع قوله تعالى: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ [2] وقوله تعالى عنه في أول السورة ﴿فصبر جميل﴾[3] وقد جاء في أثر مرفوع إلى النبي ﷺ: « من بَثَّ لم يصبر » لكن يعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من البكاء ولم يناف حزنُه وبكاؤه صَبْرَه؛ فإنه عليه السلام ما شكا بثه وحزنه إلى مخلوق وإنما شكاه إلى الله.

وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. قال: « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » قال خالد بن أبي عثمان: مات ابنٌ لي، فرآني سعيدُ بن جبير مقنعاً. فقال لي: إياك والتقنع فإنه من الاستكانة.

وقال بكر بن عبد الله المزني: كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة.

وقال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء؛ والظن السيء.

ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع اليه العلماء والفقهاء. فتذكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره؛ فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال ابن عبد العزيز: مات ابن لي نفيس. فقلت لأمه: اتق الله واحتسبيه عند الله واصبري. فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت. فقال: ابنك يَقضي وأنت تصلي. فقال: إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله.

وقال ثابت: أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه.

فصل

ولا بد أن يعلم المصاب أن الذي ابتلاه بمصيبته أنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه، ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاءه عنه وإيمانه، وليسمع تضرّعه وابتهاله، وليراه طريحاً على بابه لائذاً بجنابه مكسور القلب بين يديه رافعاً قصص الشكوى إليه.

قال الشيخ الإمام العالم العارف المكاشف عبد القادر الكيلاني رحمة الله عليه لابنه: يا بني إن المصيبة ما جاءت لتهلكك وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني، القدر سبع، والسبع لا يأكل الميتة. انتهى كلامه.

والمقصود أن المصيبة كير العبد الذي يسبك بها حاصله، فإما أن يخرج ذهباً أحمر، وإما أن يخرج خبثاً كله، كما قيل:

سبكناهُ ونَحْسَبُهُ لُجَيْناً ... فأبْدِي الكيرُ عن خَبَث الحَديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا. فبين يديه الكير الأعظم؛ فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين؛ فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل، فالعبد إذا امتحنه الله بمصيبة فصبر عند الصدمة الأولى، كما ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة عند قبر وهي تبكي فقال لها: «اتق الله واصبري» فقالت؛ إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ـ ولم تعرفه ـ فقيل لها:

إنه النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين. فقالت: لم أعرفك يا رسول الله! قال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى» رواه البخاري. ولفظ مسلم: أتى على امرأة تبكي على صبيٍّ لها. فقال لها: «اتق الله واصبري» فقالت: وما تبالي بمصيبتي فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله فأخذها مثلُ الموت فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين... وذكر تمام الحديث.

فصل

ومما يقدح في الصبر والرضاء وينافيهما: إظهار المصيبة والتحدُّث بها وإشاعتها، سواء كان الكلام بها بين الأصحاب أو غيرهم، اللهم إلا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه: مات فلان. يعني والده أو ولده. ونحو ذلك وما يريد به إظهار المصيبة؛ وإنما يريد إعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشييعه ونحو ذلك مما هو من فروض الكفايات ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر، وقد تقدم أن الإعلام بالميت هل هو نعي أم لا، والمقصود أنّ كتمان المصيبة رأس الصبر.

قال الحسن بن الصباح في مسنده: حدثنا خلف بن تميم ثنا زفر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. قال: قال رسول الله ﷺ: «من البرّ كتمان المصائب والأمراض والصدقة» وذكر أنه من بثّ لم يصبر.

وروى من وجه آخر من حديث أنس رضي الله عنه رفعه إلى النبي ﷺ. قال: «مِن كنوز البرِّ كتمانُ المصائب، وما صبر من بث» ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنُه يوماً من قِبَل عينه التي أصيب فيها فلم يشعر به فعلم أن الشيخ قد أصيب.

ودخل رجلٍ على داود الطائي في فراشه، فرآه يزحف فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال: مه، لا تُعْلم بهذا أحداً. وقد أُقعِد قبل ذلك بأربعة أشهر لم يعلم بذلك أحد.

وشكا الأحنف إلى عمه وجعَ ضِرسِه فكرر ذلك عليه. فقال: ما تكرِّر عليَّ لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد..

ومن المنافاة للصبر والرضاء: الهلع عند ورود المصيبة وهو الجزع قال الله تعالى: ﴿إن الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً، إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً، وإذا مَسَّه الخيرُ مَنُوعا﴾[1] قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد هلِع بالكسر فهو هَلِعٌ وهَلوعٌ.

وفي الحديث: «شرُّ ما في العبد شحٌّ هالع وجبن خالع» قال العلامة ابن القيم رحمه الله: هنا في هذا الحديث أمران: أمرٌ لفظيٌّ وأمرٌ معنويٌّ فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعاً، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعاً، ولا يقال: هالع له؛ فإنه لا يتعدى، وفيه وجهان:

(أحدهما) أنه على النسب، كقولهم: ليلٌ نائم، وشرٌّ قائم، ونهارٌ صائم ويومٌ عاصف كله عند سيبويه على النسب أي ذو كذا.

(والثاني) أن اللفظة غيّرت عن بابها للازدواج مع خالع، وله نظائر. وأما المعنوي؛ فإنّ الشح والجبن أردى صفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحُّه هالعاً، أي ملولة في الهلع، وجبنه خالعاً، أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة، كما يقال: لا يطرد ولا يثرد، انتهى كلامه.

وروى سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن عياش عن سليمان بن سليم عن يحيى بن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ. فقال: ما يحبط الأجر في المصيبة؟ قال: «تصفيق الرجل بيمينه على شماله ـ والصبر عند الصدمة الأولى ـ فمن رضي فله الرضى ومن سَخِط فعليه السَّخَط» وذكر بإسناده أيضاً رفعه إلى النبي ﷺ. قال: «إن القوم ليصابون بالمصيبة فيجزعون ويهلعون، فما يكون لهم من أجرها شيء فيمرّ بهم الرجل من المسلمين فيسترجع فيكتب الله عز وجل له

---

(١) سورة المعارج، الآية: ١٩.

أجرُ ما أعطاهم من تلك المصيبة وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أحمد بن عبد الأعلى حدثني شيخ من آل ميمون بن مهران أن الحجاج أصيب بابن له فاشتدّ جزعه عليه، فدخل فغيّر ثيابه ومس شيئاً من طيب وجلس وأذن للناس فلم يتكلموا. فقال: حسبي ثواب الله من كل نكبة، وحسبي بقاء الله من كل هالك، تحدّثوا.

فصل

والله تبارك وتعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرُّعه ودعاءه وصبره ورضاءه بما قضاه عليه؛ فهو سبحانه وتعالى يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم، فيثيب كلَّ عبد على قصده ونيته، وقد ذمّ الله تعالى من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿ولقد أخذنَاهُم بالعذابِ فما استَكانُوا لربِّهم وما يَتَضَرَّعون﴾[1] والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه ولا يشكو إليه حاله، فإنه إذا كان سادات الخلائق وهم الأنبياء المعصومون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قد أثنى الله تعالى عليهم حيث شَكَوْا ما بهم إلى الله تعالى. فقال تعالى عن بعضهم: ﴿وذا النُّون إذ ذَهَبَ مغاضباً فظنَّ ألَّنْ نَقدِرَ عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سُبحانَكَ إنّي كُنتُ من الظَّالمينَ﴾[2] وأثنى على أيوب بقوله: ﴿إنّي مَسَّني الضر وأنتَ أرحَمُ الرَّاحِمينَ﴾[3] وعلى يعقوب: ﴿إنما أشكو بَثّيَّ وحُزْني إلى الله﴾[4] وعلى موسى بقوله: ﴿إنّي لِما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾[5] وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «اللهم إني أشكو إليك ضَعْفَ قُوَّتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين» الحديث. المشهور في دعاء الطائف، وهو دعاء عظيم؛ فالشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصبر ولا الرضاء، بل إعراض العبد عن الشكوى إلى غيره من جهله بخالقه وعدم

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٦.
(٥) سورة القصص، الآية: ٢٤.

رضائه وصبره بما ابتلاه الله تعالى به، والله تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحبُّ مَن يشكو ما به إليه.

قيل لبعضهم: كيف تشتكي إلى من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟ فقال:

قالوا: أتشكو إلَيْهِ ما ليس يَخْفَى عليهِ؟
فقلتُ: ربِّي يَرْضى ذُلَّ العبيدِ لديهِ

وذكر ابن أبي الدنيا علي بن الحسن. قال: قال رجل: لأمتحن أهل البلاء قال فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الأكلة أطرافه، فقلت له: كيف أصبحت قال أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حدته من الوجع، وأن ذلك لَبِعَيْنِ الله، أحبُّه إليّ أحَبَّهُ إلى الله عز وجل، وددت أن ربي قطع مني الأعضاء التي اكتسبت بها الإثم وأنه لم يبق مني إلا لساني يكون له ذاكراً. قال: فقال له رجل: متى بدأت هذه العلة؟ قال: أما كفاك، الخلق كلُّهم عبيد الله وعياله فإذا نزلت بالعباد علة فالشكوى[1] إلى الله ليس يشكى الله إلى العباد.

(١) قوله «فالشكوى» لعلها «فالشاكي» كما يقتضيه السياق.

الباب الثاني والعشرون
هل المصائب مكفرات أو مثيبات

وقد اختلف العلماء في هذا الباب اختلافاً كثيراً، وتباينوا فيه تبايناً شديداً فذهب بعض العلماء إلى أنه يثاب على كل مصيبة، وذهب طائفة أخرى من العلماء إلى أنه لا يثاب على المصائب مطلقاً، وإنما يثاب على الصبر عليها، حتى قطع به ابن عبد السلام في قواعده، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء إلى أن إطلاق القول بالثواب، وإطلاقه بعدم الثواب كلاهما يرد عليه ما يدفعه، وأنّ ثم فرقاً مؤثراً نذكره فيما بعد إن شاء الله.

وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما ذهبت إليه كما سنذكره بعد.

احتجت طائفة من العلماء إلى أنه يثاب على كل معصية بقوله تعالى ﴿ذلك بأنَّهم لا يُصِيبُهُم ظَمأ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سَبِيلِ اللهِ ولا يَطَأونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ ولا يَنَالُونَ من عدوٍّ نَيلاً إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صَالِحٌ... ﴾[1] الآية.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: « ما يصيبُ المؤمنَ من وَصَب ولا نصَب ولا هم ولا حزَنٍ ولا غمٍ ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » ـ الوَصَب: الوجع اللازم ـ ومنه قوله تعالى: ﴿ولهم عذابٌ واصِبٌ﴾[2] أي لازم ثابت، والنصب: التعب.

وروى الحاكم في المستدرك أن النبي ﷺ قال: « المصاب مَن حُرِم الثواب ».

وروى ابن ماجه من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعته ولكن الزهادة في الدنيا أن

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٠.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٩.

تكون بما في يد الله أوثقَ منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصِبْتَ بها أرغبَ منك فيها لو أنها بقيت لك» ورواه الإمام أحمد موقوفاً على أبي مسلم الخولاني.

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلمٍ يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» ورواه أحمد والنسائي «ما مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا غفر لهما» وغير ذلك من الأحاديث مما اختصرته. قال النووي رحمه الله في شرح مسلم عند قوله ﷺ: «ما مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومُحِيَت عنه بها خطيئة» وفي رواية «إلا رفعه الله بها درجة أو حطّ عنه بها خطيئة» وفي بعض النسخ «وحط عنه بها خطيئة» بغير ألف، وفي رواية «إلا كتب له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة» قال: وفي هذه الأحاديث بشارةٌ عظيمة للمسلمين، فإنه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلّت مشقتُها، وفيه رفع الدرجات بهذا الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء. وحكى القاضي عياض عن بعض العلماء: أنها تكفّر الخطايا فقط. ولم يبلغهم هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة برفع الدرجات، وكتب الحسنات، انتهى كلامه. ويؤيد ذلك قولُ عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً اشتدّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ. وقوله ﷺ: «إني لأوعك مثل رجلين منكم» وإنك لتوعك وعكاً شديداً، وقوله ﷺ: «أشدُّ الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحين ثم الأمثل فالأمثل». قال جماعة من العلماء: والحكمة في كون الأنبياء أشدَّ بلاء ثم الأمثل فالأمثل: أنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب؛ والأنبياء معصومون من الخطايا فتعيَّن الثواب. والله أعلم.

وفي حديث المرأة التي كانت تصرع: دليل على أن الصرع يثاب عليه أكمل ثواب.

وفي مسلم، قالت امرأة: يا رسول الله، دفنت ثلاثة من الولد. قال:

« احتظرت بحظار من النار » قال بعض السلف: فقدُ الثواب على المصيبة أعظمُ من المصيبة، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ. قال: « المصاب مَن حُرِم الثواب » وقد تقدم.

وتقدّم في أثناء الكتاب أحاديث تشهد لهذا القول؛ والله أعلم.

احتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها، وإنما يثاب على الصبر عليها. بقوله تعالى: ﴿إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهم بغيرِ حِساب﴾ (١). قال ابن عبد السلام في قواعده: الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه. قال تعالى: ﴿والذين إذا أصابَتهُم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (٢) فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم: ﴿إنا للهِ وإنا إليهِ راجِعون﴾ فالاسترجاع هو سبب في حصول ما ذُكر، وكذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله عز وجل لملك الموت: يا مَلكَ الموت، قبضت ولد عبدي، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حَمِدَك واسترجع؛ قال: ابنُوا له بيتاً في الجنة وسمُّوه بيتَ الحمد » فحَمْده واسترجاعُه هو سبب بناء البيت له في الجنة، وتسمية البيت كافية.

قال القاضي عياض: وقد رُوِي عن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال: الوجع لا يُكتَب به أجْرٌ إنما يُكَفِّرُ الخطايا فقط.

فصل
في سياق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

أما ما يحدثه الله من المصائب؛ فتارة بغير فعل الخلائق كالأمراض ونحوها وتارة بفعلهم. وفصل الخطاب أن المصائب تولدت عن عمل صالح كما تتولد عن

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

الجهاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ونحوه، فهذا يثاب عليه، فإن الإنسان يثيبه الله على عمله وعلى ما يتولد عن عمله إذا أقدم على احتماله، فإن المجاهد قد أقدم على الجهاد وهو يعلم أنه يؤذَى في الله عز وجل، وقد يناله ضررٌ في جهاده فتموت فرسه، أو يؤخذ ماله، أو يضرب أو يشتم ونحو ذلك، كما قال تعالى ﴿ذلِكَ بأنهُم لا يُصيبهم ظَمَأٌ ولا نَصَب ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله ولا يَطَأُون موطئاً يَغيظُ الكفّارَ ولا يَنالونَ مِن عدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لهم به عَمَلٌ صالحٌ﴾ (١) فأخبر تعالى أنه يكتب لهم عمل صالح بما يصيبهم من التعب والجوع والعطش، ونحو ذلك الذي حصل لهم بسبب الجهاد في سبيل الله عز وجل، فهذه الأمور يَغفرُ اللهُ بها خطاياه، ويُؤْجَرُ على هذه المصائب، لأنها حصلت بسبب جهاده فهي مما تولّد عن عمله، وما تولّد عن عمله الصالح من المصائب يثاب عليها وأما الجوع والعطش والتعب الذي يحصل بدون ذلك فلا يثاب إلا على الصبر عليه، فإنه ليس من عمله ولا متولداً عن عمل صالح، لكن هو من المصائب التي يكفر الله بها خطاياه. وأما المصيبة بالولد، فالولد تولد عن جماعه الذي صان نفسه به عن الزنا وقصد به النسل وتَكثير الأمة وغضّ البصر عن المحارم. فإذا حصل له ذلك ثم مات الولد فقد أثيب عليه من جهة وكفّر الله به خطاياه من جهة، لأنه تولد عن عمله. وأما الأعراض والأسقام فهي تكفر الخطايا.

وقد روي أن أبا عبيدة بن الجرّاح لما عادوه وقالوا له: أجْرٌ. فقال: ليس لي من الأجر مثل هذه ولكن المرضِ حطّة يَحُطُّ الله به الخطايا، فهذا الذي ذكرته هو الفرق بين المصائب التي يثاب عليها، والمصائب التي لا يثاب عليها فإن بعض الناس يظن أنه يثاب على كل مصيبة، ومن العلماء من يطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها، وإنما يثاب على الصبر عليها. ثم قال بعد ذلك بكلام كثير، فمن فعل فعلاً صالحاً باختياره فأوذي واحتسب ذلك الأذى، كان ذلك الأذى من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

عمله الصالح الذي يثاب عليه؛ كالصائم إذا احتسب جوعه وعطشه. وقد قال ﷺ: «لَخُلوفُ فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك»[1]، والخلوف تولد عن صومه بغير اختياره، ولكن تولد عن عمل صالح، وكذلك القائم بالليل إذا احتسب تعبه وسهره، فإن الأذى الذي يحصل باختيارك في طاعة الله أنت جلبته على نفسك باختيارك طاعة الله، فليس هو كمن أوذي بغير اختياره فإنّ ذلك أذاه مصيبة محضة، لكن هي حق له على الظالم. وقال الشيخ رحمه الله في قول النبي ﷺ «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» وهي نفسها تكفّر خطاياه ويؤجر على الصبر عليها، ففيها له مغفرة من جهة ما يكفره من الخطايا. وله فيها رحمةٌ من جهة ما يؤجر على الصبر عليها؛ لا سيما اذا اقترن بها توبة وإنابةٌ إلى الله، وتوكّلٌ عليه وتوحيدٌ له وإخلاصُ الدين له، فإنها تكون من أعظم النِّعم؛ ومصيبةٌ تقبل بها على الله خيرٌ لك من نعمة تُنسِك ذِكرَ الله. وقال بعض السلف: يا ابنَ آدم لقد بُورك لك في حاجة أكثرتَ فيها قَرعَ بابِ سَيِّدك. وفي الحديث. إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه. يقول الله عز وجل: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟ وفي الأثر: يا ابنَ آدم البلاء يجمع بيني وبينك؛ والعافية تجمع بينك وبين نفسك. انتهى. والمقصود من كلام الشيخ رحمه الله أن كل ما تولد عن عمله الصالح من المصائبأثيب عليه، بخلاف المصائب التي لم تتولد عن عمله، فإنها مكفِّرات لا مثيبات.

فصل

قال الشيخ رحمه الله: وكثيرٌ من الناس لا يعرف النعمة إلا ما يلتذّ به في دنياه، كما قال بعض السلف: من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمه، وحضر عذابه، فمن الناس من يرى النعمة في بدنه فقط بالأكل

(١) رواه البخاري في باب فضل الصوم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وكذا النسائي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

والشرب والنكاح، ومنهم مَن يرى النعمة بالرئاسة والجاه ونفاذ الأمر والنهي وقهر الأعداء، ومنهم مَن يرى النعمة في جمع الأموال والقناطير المقنطرة، وهؤلاء من جنس الكفار، يرون هذه نِعَماً، وأعلى من هؤلاء: من يرى النعمة في الإيمان والعمل الصالح، لكن لا يرى الأمر بذلك والجهاد عليه نعمة؛ بل يرى فيه من المضار ما يوجب تركه والذين يَرَوْن هذه النعمة: منهم مَن لا يراه نعمة إلا مع السلامة والغنيمة؛ فإن جُرِح أو قتِل بعضُ أولاده، أو أُخِذ ماله، عدَّ ذلك مصيبة لا نعمة، وحجة هؤلاء كلهم أنّ النعمة ما يتنعم به العبد، وهذه الأمور تؤلم النفس فلا تكون من النعم بل من المصائب، ولا ريب أنها من المصائب باعتبار ما يحصل فيها من الألم، ولهذا أمر بالصبر عليها، لكن لا منافاة بين كون الشيء مصيبة باعتبار، ونعمة باعتبار، فباعتبار ما يحصل به من الأذى هو مصيبة، وباعتبار ما حصل به من الرحمة نعمة، وهذا لأنه إذا قيل: هذا يكفّر به الخطايا ويؤجر عليها ويؤجر على الصبر عليها كانت نعمة، وهذا بمنزلة شرب المريض الدواء الكريه، هو مصيبة باعتبار مرارته، وهو نعمة باعتبار إزالته للمرض الذي هو أشد ضرراً فيه، وأدنى الشَّرَّين إذا زال أعظمهما كان نعمة، ومن استعمل نعمة الله في المعاصي كانت شرّاً في حقه، لأنها تجرّته إلى العذاب الذي هو أعظم من تلك اللذة، كمن أكل عسلاً فيه سُمّ، فإن ضرر السم أعظم من حلاوة العسل، والله أعلم. انتهى كلامه.

الباب الثالث والعشرون
في الصدقة عن المصاب به وأفعال البر عنه

وهذا الباب مما يُطَيِّب قلوبَ أهل المصائب على مصابهم، فإنهم إذا بدلوا بدل الحزن والبكاء ولطم الخدود وشق الثياب والنياحة، الصدقةَ والدعاءَ والاستغفارَ وقراءةَ القرآن والصلاةَ والصيامَ، ونحو ذلك من أفعال القرب، وعلموا وصولها إلى موتاهم، وأنه يحصل لهم بذلك: إما تكفير سيئات، أو رفع درجات أو كلاهما - حصل لهم السرورُ بذلك والفرحُ الزائد، وهذا الباب منعقد على إهداء القُرَب إلى الموتى والأحياء فنذكر اختلاف العلماء في وصول ثواب ذلك إليهم فمن أنواع القُرَب: قُرَبٌ لم يختلف العلماء في وصول ثوابها إلى الموتى، وثمَّ قُرَبٌ اختلف العلماء في وصول ثوابها اختلافاً كثيراً، فنذكر ما يَسَّره الله تعالى في ذلك، فإن ذكر الاختلاف والبسط سبيل ذلك الكتب المطوّلة.

فصل
في ذكر اختلاف الناس في وصول ثواب إهداء القرب إلى الموتى

أما الدعاء والاستغفار والصدقة وقضاء الدَّيْن وأداء الواجبات، فلا أعلم خلافاً في وصولها، حكاها غير واحد من العلماء، ومن العلماء من يشرط في الوصول إذا كانت الواجبات مما يدخله النيابة. قال الله تعالى ﴿والذينَ جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغْفِر لنا ولإخواننا الذين سَبَقُونا بالإيمان ولا تجْعَل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا﴾[1]... الآية. وقال تعالى: ﴿واستغْفِرْ لذنبك وللمؤمِنينَ والمؤْمِناتِ﴾[1] ودعاء النبي ﷺ لأبي سلمة حين مات أبو سلمة،

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠. (٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

ودعاء النبي ﷺ للميِّت الذي صلى عليه، وشرع الله ذلك له، وشرعه لكلّ مَن صلى على ميِّت بقوله: « اللهم اغفر لحينا وميتنا؛ وكذلك: اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه » الدعاء المشهور المعروف. وأما وصول العبادات المالية المحضة، كالعتق والصدقة ونحوهما: فجمهور العلماء من أهل السنة والجماعة على وصول ثوابها إلى الموتى كما يصل إليهم الدعاء والاستغفار، وأما وصول ثواب الأعمال البدنية كالصوم والصلاة والقراءة ونحو ذلك، فالصحيح الوصول، وهو مذهب الإمام أحمد وأبي حنيفة وطائفة من أصحاب مالك والشافعي، لما يأتي من الأحاديث بعدُ إن شاء الله.

فصل
في الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب

قد تقدم قوله تعالى: ﴿والذين جاؤا من بعدِهِم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ [1] ... الآية. وقال تعالى: ﴿واستغْفِرْ لذنْبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمنات﴾ [2] وقال تعالى: ﴿الذين يحْمِلونَ العرشَ ومَن حوله يُسَبِّحونَ بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للَّذينَ آمنوا، ربنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمة وعلماً فاغفِر للذين تابوا واتَّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ [3] فلو لم ينفعهم ذلك لم يخبر الله تعالى به ترغيباً، وأما الأحاديث فمنها: ما روى الإمام أحمد من حديث الحسن بن سعد بن عبادة أن أمه ماتت، فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت أفأتصدق عنها؟ قال نعم. قال قلت: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: سَقْيُ الماء. قال الحسن: فتلك سقاية آل سعد بالمدينة. ورواه النسائي أيضاً.

ومنها عن معقل بن يسار. قال: قال رسول الله ﷺ: « إقرأوا يسَ على موتاكم » رواه أبو داود وابن ماجه، ورواه الإمام أحمد ولفظه: « يس قلب

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٩..
(٣) سورة غافر، الآية: ٧.

القرآن لا يقرأها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له، واقرأوها على موتاكم». وفيه دليل على وصول القراءة إلى الميت فإنه ﷺ أمرنا أن نَقرَأها على موتانا، وأمرهُ في هذا المكان أمرُ إرشادٍ لا يجوز أن يَعْرَى عن فائدة، ولا فائدة للعبد بعد موته أعظم من الثواب، فإنا نعلم يقيناً أن الميت من أحوج الناس إلى ما يقرّبه من رحمة الله، ويباعده من عذاب الله، وقد امتنع عليه ذلك بعد موته بفعل نفسه فما بقي يحصل له ذلك إلا بفعل غيره، والحصول هو الثواب المترتب على القراءة، والله أعلم.

فإن قيل: قد فسر جماعة من العلماء أن المراد بقراءة يس عند الاحتضار للمسلم الذي سيموت ـ وقد ذهب إلى هذا جماعة من العلماء حتى الشيخ مجد الدين بن تيمية الحراني بوّب عليه في كتابه المنتقى.

وقيل: هذا خلاف الحقيقة؛ فإنه إذا حمل على من سيموت يكون حمل اللفظ على مجازه، ومعلوم أن حمل اللفظ على حقيقته أولى من حمله على مجازه فإن سُلِّم أنه أريد به المحتضر فهو حجة على المخالف المانع من وصول ثواب القراءة إلى الميت؛ فإنّ قول المخالف في أن الحي لا ينتفع بعمل الغير، أشدّ من قوله في الميت.

فإن قيل: إنما يحصل له به راحة وسرور كالتذاذه به في الدنيا.

قلنا: هذه دعوى تفتقر إلى دليل، والأصل عدمه؛ بل نقول أي راحة وسرور أعظم من ثواب يحصل للميت يرفع درجاته أو يحط عنه سيئاته؟ وقد أفردت لهذا الكلام جزءاً وسميته (الدرّ المنتخب في إهداء القُرَب) فمن رام كشف ذلك فليطلبه من محله، وما نذكره هنا على سبيل التنبيه.

(ومنها) ما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن العاص بن وائل نذر أن ينحر في الجاهلية مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين، وأن عمراً سأل النبي ﷺ عن ذلك. فقال: «أما أبوك فلو أقرّ بالتوحيد فَصُمْتَ عنه وتصدقت عنه نفعه ذلك» رواه الإمام أحمد؛ وهو دليل على وصول أفعال الخير إلى الميت.

(ومنها) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ إن أبى مات ولم يوص أفينفعه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم رواه مسلم والإمام أحمد والنسائي وابن ماجه.

(ومنها) عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً. قال للنبي ﷺ: «إنَّ أمي افتلتت نفسُها، وأراها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم» رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبي ﷺ قال: «ما على أحدكم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة تطوعاً أن يجعلها عن والديه إذا كانا مسلمَيْن فيكون لوالديه أجرها وله مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيئاً» رواه حرب في مسائله بسنده.

وروى ابن المنذر بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أنها أعتقت عن أخيها عبد الرحمن عبداً بعد موته.

وروى الدارقطني وغيره عن عطاء بن أبي رباح مرسلاً أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن أبي مات أفأعتق عنه؟ قال: نعم.

وروى الدارقطني أيضاً عن الحسن والحسين رضي الله عنهما أنهما كانا يعتقان عن أبيهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد موته.

عن ابن أسيد مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة. فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ أبوي شيءٌ أبرَّهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم الصلاة عليهما والاستغفارُ لهما وافتقاد عهدهما بعدهما وصلة الرحم التي لا توصلُ إلاَّ بهما وإكرام صديقهما» رواه أبو داود، وهذا لفظه. وابن ماجه.

فصل

ومن الأدلة المستحسنة. قوله ﷺ في الأضحية لما ضحى بكبشين، فلما ذبح أحدهما. قال: « بسم الله والله أكبر اللهم هذا عن محمد وآل محمد » ولما ذبح الثاني. قال: « اللهم هذا عني وعمن لم يُضَحِّ من أمتي » وفي رواية ابن ماجه، أن رسول الله ﷺ لما ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موسومين فذبح أحدهما عن محمد وآل محمد، وذبح الآخر عن أمته وعمن شهد له بالبلاغ؛ ففيه دليل على أن النفع قد نال الأحياء والأموات من أمته بأضحيته ﷺ، وإلا لم يكن في ذلك فائدة، فإنه ﷺ ما ينطق عن الهوى. وقال للذي قضى الدين عن الميت: الآن بردت عليه جلدته.

وحديث ابن عباس أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ـ وفي لفظ لا يستنزه من البول ـ وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرس على كل قبر واحد. وقال: إنه ليخفف عنهما ما لم ييبسا » قال الخطابي: هذا عند أهل العلم محمول على أن الأشياء ما دامت على أصل خلقتها أو خضرتها وطراوتها فإنها تسبح الله عز وجل حتى تجف رطوبتها، أو تحول خضرتها، أو تقطع من أصلها، فإذا خفف عن الميت بوضعه ﷺ الجريدة على قبره، لكونها تسبح الله، فبطريق الأولى والأخرى أن تخفف القُرْبُ على اختلاف أسبابها، وإنَّ أعظم القُرْبُ كلامُ رب العالمين، الذي نزل به الروح الأمين، على قلب أشرف المرسلين وقد أوصى بريدة رضي الله عنه أن يجعل جريدة على قبره. ذكره البخاري.

وقد استحب ذلك جماعة من العلماء من أصحابنا وغيرهم وأنكره آخرون.

وقال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم: ذكر أن العلماء استحبوا القراءة، لخبر الجريدة، لأنه إذا رُجِيَ التخفيف لتسبيحها، فالقراءة أولى. انتهى كلامه.

فصل
في قوله تعالى ﴿وأنْ ليس للإنسان إلا ما سَعَى﴾ (١)

وأما احتجاج بعض من خالف من أصحاب الشافعي ومالك بهذه الآية على أن الميت لا ينتفع بثواب من سعي غيره؛ لأن النبيّ ﷺ. قال: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقةٍ جارية أو علمٍ ينتفع به من بعده، أو ولدٍ صالح يدعو له»(٢) قالوا: ولأن نفع العبادة لا يتعدى فاعلها، فيقال لهم: قد ثبت بالسنة المتواترة وإجماع الأمة؛ أن الميت يُصَلَّى عليه ويُدْعَى له ويُستَغْفَرُ له، وهذا مِن سعي غيره، وكذلك ما وافقوا عليه وسلّموه من أنه ينتفع بالصدقة والعتق، وهو من سعي غيره، فما كان جوابهم عن مورد الإجماع، فهو جواب الباقين عن محل النزاع، وللناس في ذلك أجوبة متعدّدة سبيلها الكتب المطوّلة، ولكن تحقيق ذلك أن يقال إن الله تعالى لم يقل إن الإنسان لا ينتفع إلا بسَعْي نفسه، وإنما قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعى﴾(١) وهو لا يملك إلا سَعْيَهُ، ولا يستحق غير ذلك، وإنما سعي غيره فهو له، كما أن الإنسان لا يملك إلا مال نفسه، ويملك نفع نفسه بمال غيره. وقد روي عن ابن عباس أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿والذينَ آمَنوا واتَّبَعَهم ذُرِّيتُهُم بإيمان ألحقنا بهم ذُرِّيتَهُم﴾ (٣) فأُدخِل الأبناءُ الجنةَ بصلاح الآباء، ولا يصح هذا؛ لأن لفظ الآيتين لفظ خبر، والأخبار لا تُنْسخ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: اللفظ المنقول عن ابن عباس هو من تفسير عليّ ابن طلحة الوالبي عنه، وقد قيل إنه لم يسمعه من ابن عباس؛ وقال عكرمة: هي خاصة بقوم إبراهيم وموسى دون هذه الأمة، وشَرْعُ مَن قبلنا ليس بشرع لنا؛ وأما هذه الأمة فلهم ما سَعَوْا وسُعِيَ لهم. قال الشيخ: وهذا ضعيف، لأن الله إنما ذكر هذا ليخبر به هذه الأمة، وليعلموا أن هذا حكم شامل، ولو كان هذا

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩. (٣) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٢) رواه البخاري في الأدب، ومسلم، وأبو داود والترمذي والنسائي، عن أبي هريرة.

مخصوصاً بأمة موسى وإبراهيم لم يقم به حجة، على أن من أرسل إليه النبي ﷺ وجميع المسلمين بما في هذا لقوله ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾[1] وأيضاً فمن أين لهم أن تلك الأمة لم تكن تنفعهم الصدقة عنهم بعد الموت والدعاء لهم؟ وقد بيّن النبي ﷺ أنا إذا قلنا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أصابت كل عبد لله في السماء والأرض؛ ونحن إذا ذكرنا الصالحين من الأمم وترحمنا عليهم وصل ذلك إليهم، وليس هو من سعيهم، وإبراهيم قد دعا لأولاده بنص القرآن، وليس ذلك من سعيهم.

وقال الربيع بن أنس: المراد بالإنسان الكافر، وهذا ليس بشيء، لأن سياق الآية يناقضه بقوله: ﴿ثم يُجْزاه الجزاءَ الأوْفَى﴾[2] وهذا يتناول المؤمن قطعاً، فلو عكس كان أولى، مع أن حكم العدل لا فرق فيه بين مؤمن وكافر.

قال الحسن بن الفضل: ليس للإنسان إلا ما سعى من طريق العدل، فأما من طريق الفضل فجائز أن يريده الله ما شاء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا القول أمثل من غيره، ومعناه صحيح، لكنه لم يفسر لفظ الآية، فإن قوله ﴿ليس للإنسان﴾[3] نفيٌ عام فليس له إلا ذلك، وهذا هو العدل، ثم إن الله قد ينفعه ويرحمه بغير سعيه من جهة فضله وإحسانه، وإن كان ذلك ليس له، ثم قال الشيخ: وقال ابن الزاغوني؛ إنه ليس له إلا سعيه، غير أن الأسباب مختلفة، فتارة يكون سعيه في تحصيل الشيء نفسه، وتارة يكون في تحصيل سببه، مثل سعيه في تحصيل قرابة أو نكاح ليحصل له ولدٌ صالح يدعو له، أو صديقٌ صالح، وتارة يسعى في خدمة أهل الدين والعبادة، فيكتسب محبتهم بسبب سعيه في ذلك قال الشيخ رحمه الله: وهذا أمثل من غيره وقد استحسنه ورجحه أبو البركات وهو ضعيف، فإنه قد ينتفع بعمل غيره. من لم يحصل سبباً؛ وبَسَط القول على هذا وعلّله بأمور؛ وذكر عن ابن الزاغوني قولاً آخر قال: وأن ليس

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ٤١.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

للإنسان، بمعنى: وأن ليس عليه إلا ما سعى قال الشيخ: وهذا من أرذل الأقوال فإنه قلب لمعنى الآية؛ فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى؛ وتمامها ﴿وأنَّ سَعْيَهُ سوف يرى، ثم يجزاهُ الجزاءَ الأوْفى﴾[1] أفترى السعي الصالح لم يدخل في هذه وبَسَط القول على هذا وبَيَّن فساده؛ وقد ذكرنا هذه الأقوال ورتبناها مبسوطة في (إهداء القُرَب).

فصل

ومما يستأنس به في وصول الثواب أنه يستحب الدفن عند الصالحين. لينالَه بركتهم؛ ونص الإمام أحمد على أن الميت يتأذى بالمنكر عنده.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه قال: جَنِّبوا الميت جارَ السوء.

وقالت عائشة رضي الله عنها: الميت يؤذيه في قبره ما يؤذيه في بيته.

لكن هذان الأثران وإن كان فيهما ضعف؛ ففيهما دلالة على المسألة، فإنّ الميت إذا تأذى بالمنكر انتفع بالخير بطريق الأولى.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ. قال: «إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه» فالله تعالى أحكم وأعدل من أن يوصل عقوبة المعصية إليه، ويحجب عنه المثوبة. والله تعالى أعلم.

فصل
تستحب القراءة عند القبر

لأنه قد صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عنده بفاتحة البقرة وخاتمتها.

والمشهور عن الإمام أحمد أن القراءة في المقبرة وعند القبر لا تكره اختارة أبو

---

(١) سورة النجم، الآية: ٤١.

بكر عبد العزيز والقاضي وجماعة من أصحابنا، ذكره بعض أصحابنا، وعليه عمل الناس في زماننا هذا.

قال في المستوعب: ولا تكره القراءة على القبر. وكان أحمد رحمه الله يكرهها. ثم رجع رجوعاً أبان به عن نفسه. وقال: يقرأ، بعد أن نهى عن ذلك. ومن أصحابنا من يتمسك بكراهته أولاً ويجعل المسألة على روايتين. ثم قال بعد ذلك: فإن أهدى إليه الثواب نفعه. انتهى كلامه. وهذا مذهب الحنفية، لكن اختلف أصحابهم هل تستحب القراءة أم تباح وجهان لهم.

وروي عن الإمام أحمد أن القراءة لا تكره حال الدفن دون غيره. وروي عنه الكراهة مطلقاً، اختارها الإمام عبد الوهاب الورّاق وأبو حفص العكبري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الكراهة نقلها الجماعة عن الإمام أحمد وهي قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه كالمروزي وغيره.

وقال ابن عقيل وابن المنجى ـ تعليلاً الراوية الكراهة ـ بأنها مدفن النجاسة كالحش ونحوه. انتهى كلامها.

وذكر بعض أصحابنا عن الخلال أنه قال: المذهب رواية واحدة، أن القراءة عند القبر لا تكره. انتهى.

لكن القراءة على القبر ليست من فعل النبي ﷺ ولا أصحابه والله أعلم.

فصل
استحباب الدعاء للميت عقب دفنه

نص الإمام أحمد على أنه يستحب الدعاء للميت عقب دفنه ثم قال أحمد: قد فعله علي بن أبي طالب، والأحنف بن قيس، ويروى عن عثمان بن عفان، أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فَرَغ من دفن الميت وقف عليه. وقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» رواه أبو داود.

وروى الطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال: كان رسول الله ﷺ يقف على القبر بعد ما يُسَوّى عليه التراب فيقول: «اللهم نَزل بك صاحبُنا وخلف الدنيا خلف ظهره؛ اللهم ثَبِّت عند المساءلة منطقه ولا تبتله في قبره بما لا طاقة له به».

ويروى أن علياً رضي الله عنه كان يقول: - إذا سوي على الميت التراب عند شفير القبر بعدما يدفن - اللهم عبدُك وولد عبدِك، نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به، اللهم أوسع له مَدْخَله؛ واغفر له ذنبه، فإنا لا نعلم إلا خيراً وأنت أعلم به. رواه حرب الكرماني في مسائله.

وكان أنس رضي الله عنه إذا سوَّى على الميت قبره قام عليه فقال: عبدُك ونزل بك فارأف به وارحمه، اللهم جاف الأرض عن جنبيه، وافتح أبواب السماء لروحه، وتقبَّل منه بقَبولٍ حَسَن؛ اللهم إن كان محسناً فضاعف له الحسنات؛ أو قال: - فزد له في إحسانه - وإن كان مُسيئاً فتجاوز عنه. رواه الإمام أحمد والطبراني وغيرهما.

وذهب الشافعي أيضاً إلى استحباب الدعاء عقيب الدفن.

وقال أكثر المفسرين في قوله عز وجل في حق المنافقين ﴿وَلا تَقُم على قَبرِهِ﴾ (١): معناه بالدعاء والاستغفار بعد الفراغ من دفنه، وكذلك ذكر جماعة من المفسرين: لما همّ النبي ﷺ بالاستغفار لعمه أبي طالب لما مات، وهمّ بعض الصحابة بالاستغفار لأبويه، أنزل الله تعالى ﴿ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يَستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولي قُربَى﴾ (٢) الآية، فلولا أن ذلك نافع للمؤمنين كما تقدّم. لم يكن لذلك معنى، بل لما نهى عنه للمشركين دل على وقوعه للمؤمنين ونفعه لهم.

وقال محمد بن حبيب التمار: كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة، فأخذ بيدي

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

وقمنا ناحية؛ فلما فرغ الناس من دفنه جئنا إلى القبر، فجلس ووضع يده على القبر وقال اللهم إنك قلت في كتابك ﴿فأمّا إن كانَ مِن المقَرَّبين﴾ [1] فقرأ إلى آخر السورة، اللهم وإنا نشهد أن هذا فلان بن فلان ما كذَّب بك ولقد كان يؤمن بك وبرسولك، اللهم فأقبل شهادتنا له. ودعا له ثم انصرف.

فصل
هل يصح إهداء ثواب نوافل العبادات للمسلم الحيّ؟

وهذه مسألة لا تكاد تظفر بها في كتاب مشهور لغرابتها؛ فذكر ابن تميم في كتابه؛ فذكر وصول الثواب إلى الميت قال وفي الحيّ وجهان.

وذكر لي بعض فضلاء الحنفية أن وصول القرب إلى الحي مذهبهم، والدليل على الوصول قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عنهم واستغفرْ لهم﴾ [2] وأيضاً فإن الرسول ﷺ والمسلمون ما زال يدعو بعضهم لبعض عموماً وخصوصاً لأحيائهم وأمواتهم من غير نكير، ولأنه مشروع في دعاء الميت إلى يوم القيامة في قوله: «اللهم اغفر لحينا وميتنا».

قال القاضي أبو يعلى: وليس يُعرف عن الإمام أحمد رواية في الفرق بين الحي والميت، بل ظاهر قوله يعمهما. وقد دل عليه الكتاب والسنة في الدعاء والاستغفار للتساوي فلا فرق.

وقال الشيخ شمس الدين بن عبد القوي في مجمع البحرين: هذا ليس له نكير فهو إجماع، ولا شبهة لمن قال بعدم الجواز انتهى كلامه.

وقال ابن عقيل في المفردات: إن القراءة ونحوها لا تصل إلى الحي، فإنه يفتح مفسدة عظيمة، فإن الأغنياء يتكلون عن الأعمال ببذل الأموال التي تسهل لمن ينوب عنهم، فيفوتهم أسباب الثواب بالاتكال على الثواب، وتخرج أعمال

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الطاعات عن بابها إلى المعاوضات. انتهى كلامه.

فلو قال قائل: نحن نلتزم ذلك لوروده في الكتب والسنة؟

ونقول: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الباب الرابع والعشرون
في ذكر عمارة القبور

وقد اشتغل بعض أهل زماننا ممن أصيب بموت أقاربه، ببناء قبورهم وتبليطها وتجصيصها، وبناء التربة المحتوية على القبور وتحسينها وتزويقها، ويزرعونها أنواع الرياحين، ويصعدون إليها في الغالب كل يوم خميس بالأهل والأقارب وملاذ الأطعمة وأنواعها، ويظنون أن ذلك قُربة وطاعة إلى الله عز وجل، وربما يقولون: في هذه الأمور تسلية لنا عن الموتى. وما علموا أن هذه الأمور من البدع المكروهة المنهي عنها، وأن من البدع تعظيم القبور وتبليطها وتجصيصها، وبناء القباب عليها، كل هذا من البدع الذي كرهه السلف والعلماء، وهو مخالف لسنة رسول الله ﷺ.

وقد روى أبو داود والترمذي من حديث جابر: أن النبي ﷺ نهى أن يجصص القبر، وأن يبنى عليه، زاد الترمذي: وأن يكتب عليه وأن يوطأ. وحسنه وصححه. ولفظ أبي داود: أن يقعد عليه.

وقد بعث النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن لا يدع تمثالاً إلا طمسه، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سواه. وعن أبي الهياج الأسدي قال قال لي عليّ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ إذهب فلا تدع تمثالاً إلا طمَسْتَه، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته. رواه أبو داود والترمذي فالسنة تسوية هذه القبور المشرفة المحجرة المطينة المجصصة.

وكذلك نهى رسول الله ﷺ أن يكتب عليها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه ﷺ حتى لعن فاعل ذلك، ونهى عن الصلاة إلى القبور، حتى نهى أمته أن يتخذوا قبره مسجداً أو عيداً.

وكان رسول الله ﷺ يعظ الناس عند القبور، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري ومسلم من حديث علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فجلس وجلسنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس وجعل ينكت بمخصرته. وقال: «ما منكم من أحد إلا قد كُتِبَ مقعدُه من النار ومقعدُه من الجنة» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال «اعملوا وسدِّدوا وقاربوا وكلٌّ مُيَسَّر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ هذه الآية ﴿فأما مَن أعطَى واتَّقى وصدَّق بالحسنى فسَنُيَسِّره لليسرى. وأما من بَخِلَ واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾[1].

وفي الصحيح أيضاً أنه كان يقف عند الدفن ويقول: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل»[2].

فصل

وليعلم أن عمارة الأحياء والأموات ليست من خارج؛ فإنّ النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى لباسكم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[3] فعمارة القلب هي العمارة النافعة، والميت في قبره كذلك، ليست بزخرفة القبر ولا التربة ولا تزويقها، وإنما العمارة بالصدقة عن ساكنها وأفعال القرب عنه وقد تقدّم هذا في الباب الذي قبله. أما علم أن القبر الذي يزخرف ظاهره فإن باطنه مظلم ضيق، وقد طرح فيه من هو من أحب أقاربه إليه فريداً وحيداً، مستوحشاً من غير وسادة ولا تمهيد، وقد باشر الثرى وواجه البِلَى، وترك دنياه بالورى، ونبذ منها ما كان بيده بالعرا، مع حبيب تركه، وقرين أسلمه، فكل ما ذكرته لك يا أخي يفطم النفوس عن الشهوات، وتعلم أن عمارة البواطن أولى من عمارة الظواهر، وهي العمارة النافعة في يوم القارعة، فإذا بحثت عن الحقيقة، ونظرت

(١) سورة الليل، الآية: ٥.

(٢) رواه أبو داود في سننه في «باب الاستغفار عند القبر للميت» وكذا رواه البيهقي في سننه.

(٣) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة.

بعين البصيرة، علمت أنك عن قريب صائر إلى ما صار إليه، وقادم على ما قَدِم عليه، فإن العبد بينما هو يمرح في أمنيته، غافلاً عن يوم مصرعه، إذا هجمت عليه المنية فهتكت أستاره، وكسفت أنواره وطمست أعلامه وآثاره فأخرجته من قصر مشيد، وبيت حميد، مزخرف نضيد، إلى حفرة من الأرض كحفرة أخيه أو ولده أو غيرهما، مظلمة ضيقة الجوانب، مملوءة من الرعب والفزع، فأما هي روضة من رياض الجنة، أوحفرة من حُفَر النار، أعاذنا الله منها.

قيل لبعض الزهاد: ما أبلغُ الموعظة؟ قال: النظر في محلة الأموات.

فإذا كانت القبور النظر إليها موعظة، وهي أول منازل الآخرة وعبرة لأهل الدنيا. فلا ينبغي التزين ولا التزخرف ولا ما يفعله غالب الأغنياء من الأمراء والتجار وغيرهم: من ضرب الخام والخيام وغيرهما في الترب، ووضع البسط والفرش تحت ذلك وينامون عليها، وإخوانهم تحت ذلك على التراب في حفرة ضيقة مظلمة؛ فأي موعظة اتعظ هؤلاء بموتاهم! بل هذه غفلة، نسأل الله تعالى السلامة منها.

فصل

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي، وتبكي من هذا! فقال إنّ رسول الله ﷺ. قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه»[1].

وروى الترمذي في جامعه أن النبي ﷺ. قال: «ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه».

وروى الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال: دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً كأنهم يكتشرون، فقال: «أما إنكم لو

(١) أخرجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم في المستدرك.

أكثرتم ذكر هاذم اللذات ـ يعني الموت ـ لشغلكم عما أرى فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يومٌ الا تكلم فيه، فيقول أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحـدة وأنـا بيت التراب وأنا بيت الدود، فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً أما إن كنت لأحَبّ من مشى على ظهري إلي فإذ وَلِيتُك اليوم وصرتَ إلي فسترى صنيعي بك. قال: فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر لا مرحباً ولا أهلاً أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليّ فإذ وَلِيتُك اليوم، فسترى صنيعي بك، فيلتئم عليه حتى يلتقي عليه وتختلف أضلاعه. قال رسول الله ﷺ بأصابعه فادخل بعضها في بعض. قال: ويقيض له سبعون تنيناً لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به إلى الحساب. قال رسول الله ﷺ « إنما القبرُ روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ».

وروى الحاكم في كتاب الكنى، والقاسم بن أصبغ من حديث أبي الحجاج الثمالي قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول القبر للميت إذا وضع فيه، ويحك يا ابن آدم، ما غرَّك بي؟ ألم تعلم أني بيتُ الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرَّك بي يا ابن آدم؛ فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر: فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ فيقول القبر. إني أعود عليه خضراً ويعود جسمه نوراً وتصعد روحه إلى رب العالمين ».

وقال مجاهد: أول ما يكلِّم ابـنَ آدم حفرتُه تقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الوحشة وبيت الظلمة وبيت الغربة، هذا ما أعددتُ لك يا ابنَ آدم فما أعددتَ لي؟

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ألا أخبركم بيوم فقزي: يوم أدخل قبري.

وكان جعفر الصادق رضي الله عنه يأتي القبورَ ليلاً ويقول: يا أهل القبور، مالي اذا دعوتكم لا تجيبون؟ ثم يقول: حيل والله بينهم وبين الجواب، وكأني

أكون مثلهم، وأدخل في جملتهم. ثم يستقبل القبلة حتى طلوع الفجر.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه لبعض جلسائه: يا فلان لقد أرقت البارحة تفكر في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث ليالي في قبره لاستوحشت منه بعد طول الأنس به؛ ولرأيت بيتاً تجول الهوام فيه، ويجري فيه الصديد، وتخرقه الديدان؛ مع تغير الريح وتقطع الأكفان، وكان ذلك بعد حُسن الهيئة وطِيب الريح؛ ونقاء الثوب. ثم شهق شهقة خر مغشياً عليه.

وقال بعض الحكماء: أربعة أبحر لأربع: الموت بحر الحياة، والنفس بحر الشهوات، والقبر بحر الندامات، وعفو الله بحر الخطيئات؛ فنسأل الله العظيم أن يجعل الله القبر خير بيت نعمره ونسكنه!

فصل

واعلم أنه لو دخل شخص إلى المقابر المزخرفة ليميز السعيد من الشقي ما علم هذا من هذا، وما يعلمه إلاّ علام الغيوب، بل قد يكون قبراً من القبور قد درست أعلامه، وقد بقي ممشى للدواب، وصاحبه في أعلى الجنان، وقد يكون قبراً مزخرفاً وقد عليت عليه القباب والبشخانات الحرير وصاحبه نار جهنم، بل نقول لو دخل شخص المقابر لم يميز قبر الذكر من الأنثى ،ولا الشيخ من الشاب؛ ولا الحُرِّ من العبد؛ فإذا كان هذا التمييز الذي يمكن الشخص العاقل أن يميز بين هؤلاء في الحياة الدنيا قد أبهم علينا بعد الموت؛ فكيف نميز السعيد من الشقي؟

ويشبه هذا ما روي أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها عدّةُ ملوكٍ وبادوا: فقال الإسكندر: هل بقي من نسل أولئك الملوك أحد؟ فقيل له: ما بقي منهم إلا رجل واحد يأوي المقابر؛ فدعا به؛ فلما أحضره قال له: ما حملك على لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت الكل سواء. قال له الإسكندر: هل لك أن تتبعني فأجيز لك بشرف آبائك إن كانت

لك همة عظيمة؟ فقال: إن لي همة عظيمة بشرط إن كانت بغيتي عندك تبعتك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب ليس معه هرم، وغناء ليس معه فقر، وسرور ليس معه حزن. قال الإسكندر: ليس ذلك عندي ولا بيدي، فقال: أي خير أرجوه عندك إن لم يكن عندك هذه الأشياء؟ فامض لشأنك ودعني أطلب ذلك ممن يملكه وهو عنده. ثم عاد إلى مكانه ولم يلتفت إلى الاسكندر.

وكان عطاء السليمي رحمه الله إذا جنّ الليل خرج إلى المقابر فيقوَل: يا أهل القبور، متّمْ فَوامَوْتاه، وعاينتم أعمالكم فواعَمَلاه، ثم يقول: غداً يكون عطاء في القبور، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح.

وقال سفيان الثوري: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار.

ومرّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمقابر فوقف عليها قليلاً فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم طوبَى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله تعالى. ثم قال: يا أهلَ القبور أما الزوجات فقد نُكِحت، وأما الديار فقد سُكِنت وأما الأموال فقد قُسِمت، هذا خبرُ ما عندنا فما خَبَرُ ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى.

ويروى أن رجلاً دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فرآه قد تغير من كثرة العبادة، فجعل يتعجب من تغيُّر لونه واستحالة صِفته، فقال له عمر يا ابن أخي، وما تعجبك مني! فكيف لو رأيتني بعد دخولي قبري بثلاث؟ وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدّين، وتقطعت الشفتان، وتقلصت عن الأسنان، وخرج الصديد والدود من المنخرين والفم، وانتفخ البطن فَعَلا على الصدر، لو رأيت إذ ذاك مني فهو أعجب مما رأيته الآن.

واعلم رحمك الله أنه من علم مصيره إلى هذه الحفرة المظلمة الموحشة لم يبالغ في تحسين ظاهرها، مع علمه بما يؤول صاحبها إليه؛ مع ترافة جسمه وحسن منظره، ولين بدنه، فإنه عن قريب سيطرح في حفرة تتقطع فيها أوصاله، وتتغير فيها أحواله، ثم ينتن بعد ذلك ويفرّ من رائحته من كان عنده من أحبّ الناس إليه إذا اطّلع عليها.

فإذا نظر العبد بعين بصره وبصيرته إلى قبور المترفين من أهل الدنيا كأنهم[1] لم يشاركوا أهل الدنيا أبداً في لذاتهم وطيب عيشهم، هم والله صرعى قد حلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء، وأصابت الهوام في أجسادهم فأطيبهم وأنعمهم من قد أمن من عذاب الله عز وجل.

قال ثابت البناني: دخلت المقابر فلما أردت الخروج منها إذا أنا بصوت يقول: يا ثابت لا يغرّنك صموت أهلها فكم من نفس معذبة فيها.

---

(١) في الأصل «كأنهم» ولعله «رأى كأنهم» فتدبر.

الباب الخامس والعشرون
في أن الله يثبت الذين آمنوا عند المساءلة

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنوا بالقَوْل الثّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة﴾ (١). قال أكثر المفسرين: هي كلمة التوحيد. وهي قول لا إله إلا الله في الحياة الدنيا ـ يعني قبل الموت ـ وفي الآخرة ـ يعني في القبر ـ وذهب بعض المفسرين إلى أن قال: في الحياة الدنيا في القبر عند السؤال، وفي الآخرة: عند البعث، والأول أصح.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في قبره فشهدِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله تعالى: ﴿يثبِّت اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ وفي لفظ نزلت في عذاب القبر. يقال له: مَن رَبُّكَ؟ فيقول: ربي الله ونبيِّي محمد، وذلك قول الله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت...﴾ الآية». رواه البخاري ومسلم. ورواه الإمام أحمد مطوّلاً، وأهل السنن والمسانيد.

ورواه الإمام أبو داود في سننه بأتم من هذا من حديث البراء أيضاً ولفظه. قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يلحده، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه وقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً» وذكر صفة قبض الروح وعروجها إلى السماء، ثم عَوْدها إليه إلى أن قال: «وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا وَلَّوْا مدبرين حين يقال له: يا هذا، مَن ربك؟ وما دينك ومن نبيك؟» وفي لفظ «فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له:

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

ما دينك فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله. فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنتُ به وصدّقت. فذلك قوله: ﴿يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[1]. قال: فينادي مناد من السماء أنْ صدق عبدي فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها. قال: ويُفسَح له مَدَّ بصره. قال: وإن الكافر، فذكر موته، قال: وتعاد روحه إلى جسده فيأتيه مَلَكان فيُجلسانه ويقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار؛ فيأتيه من حرها وسمومها. قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه. قال: ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلٌ لصار تراباً. قال: فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين، فيصير تراباً ثم تعاد فيه الروح» ورواه الطبراني بأتم من هذا فقد اشتمل هذا الحديث على فوائد منها: التثبيت لأهل الإسلام والإيمان الذين آمنوا بالله، وما جاء من عند الله وصدّقوا به وآمنوا برسوله واتبعوه؛ ومنها الإيمان بعذاب القبر وإعادة الروح إلى الجسد وغير ذلك من الأمور التي لا تحضرني كما سأذكره مفصلاً بعد إن شاء الله.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا. قال يأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة. قال نبي الله ﷺ: فيراهما جميعاً، وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، يملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون. وأما المنافق أو الكافر فيقول: لا أدري كنت أقول ما تقول الناس فيه. فيقال: لا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

دريت ولا تَلَيْت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» رواه البخاري ومسلم.

وقد روي مثل حديث البراء وحديث أنس في قبض الروح والمساءلة ونعيم صاحب القبر وعذابه عن أبي هريرة وحذيفة بن اليمان وغيرهما.

فرواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة ولفظه أن النبي ﷺ. قال: «إن الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه؛ وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات والصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيأتيان من قِبَل رأسه فتقول الصلاة ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من عن يمينه فيقول الصيام ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل شماله فتقول الزكاة ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبلي مدخل؛ فيقال: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد أضاءت الغروب فيقال له: هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي فيقال: إنك ستصلي. أخبرنا عما نسألك عنه، أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد به عليه؟ قال: فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله. فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك تموت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة. فيقال له: هذا مقعدك وما أعدّ الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفسح في قبره سبعون ذراعاً وينوَّر له فيه ويعاد الجسد لما بدا منه فيجعل نسمة في النسيم الطيب وهي طير يعلق من شجر الجنة. قال: فذلك قوله تعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [1] وذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال: يضيَّق عليه قبره إلى أن تختلف أضلاعه فتلك المعيشة الضنكى التي قال الله تعالى: ﴿فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً ونَحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمَى﴾ [2] وهذا مختصر من الحديث.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

ورواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: « إذا خرجَت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها فذكر من ريح طيبها وذكر المسك. قال: فيقول أهل السماء: روحٌ طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليكِ وعلى جسد كنت تَعْمُرينه، فينطلق به إلى ربه ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه، وذكر من نتنها وذكر اللعن، فيقول أهل السماء: روح جاءت من قبل الأرض فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل » قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا. وفي رواية أخرى: فيقول عبدك فلان ـ يعني مؤمن ـ فيقول أرجعوه فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أُخرجهم تارة أخرى. قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا وَلَّوْا عنه، فيأتيه آت. وفي لفظ: فيأتيه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر: وللآخر: النكير، ففي الترمذي: فيقولان، وفي غيره: فيقول: مَن ربُّك، ما دينك، مَن نبيُّك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، فينتهره فيقول: مَن ربك، ما دينك، مَن نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت...﴾[1] الآية. فيقول كما قال، فيقول له: صدقت، ثم يأتيه آت حَسَنُ الوجه طيب الريح حَسَنُ الثياب فيقول أبشر بكرامة من الله ونعيم مقيم، فيقول وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح كنت والله سريعاً في طاعة الله، بطيئاً عن معصية الله، فجزاك الله خيراً، ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار، فيقول: هذا منزلك لو عصيت الله أبدلك به هذا، فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عَجِّل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي، فيقال له: اسكن؛ وفي لفظ فيقال له: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه. وإن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزلت عليه ملائكة غلاظ شداد فانتزعوا روحه كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، وينزع نفسه مع العروق فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن لا يعرج بروحه من قبلهم، فإذا عرج بروحه قالوا: رب فلان عبدك، قال أرجعوه فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا وَلَّوْا عنه قال: فيأتيه آت فيقول: ما دينك؟ فيقول لا أدري، فيقال: لا دَرَيْت ولا تَلَيْت، فيأتيه آت قبيحُ الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم، فيقول: وأنت فبَشَّرَك الله بالشر، من أنت؟ فيقول أنا عملك الخبيث كنت بَطِيّاً عن طاعة الله، سريعاً في معصية الله، فجزاك الله شراً، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضُرِب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين، قال البراء: ثم يفتح له باب من النار ويمهد له من فرش النار» ورواه الإمام أحمد.

وروى أحمد والحافظ ابن منده بإسناد حسن من حديث البراء أيضاً بأتم مما تقدّم من حديث أبي هريرة والبراء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فانتهينا إلى القبر، فجلس فجلسنا كأن على اكتافنا فلق الصخر، وعلى رؤوسنا الطير، فأرم قليلاً ـ والإرمام السكوت ـ فلما رفع رأسه قال: «إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت فجلس عند رأسه ونزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة فجلسوا منه مدّ البصر ثم يقول ـ يعني ملك الموت ـ اخرجي أيتها النفس الطيبة ـ وفي رواية أيتها النفس المطمئنة ـ إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج نفسه كما تسيل القطرة مِن فِي السقاء، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض إلا الثقلين فيأخذها. وفي رواية؛ فإذا أخذها ـ يعني ملك الموت ـ لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وَجدت على وجه الأرض، قال فيصعدون بها إلى السماء فيفتح له السماء ويشيعه مقرّبوها إلى السماء الثانية. وفي لفظ: فلا يمرون بها على ملإ من

الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا، فيشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة إلى العرش، فإذا انتهى إلى العرش قال الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، وفي لفظ ـ إلى مضجعه ـ فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه إلى جسده فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشفارهما فيجلسانه ثم يقال له: يا هذا من ربك؟ فيقول ربي الله، فيقولان: صدقت ثم يقال له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان صدقت، ثم يقال: مَن نبيك؟ فيقول: محمدٌ رسول الله: فيقولان: صدقت، ثم يفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حَسَنُ الثياب فيقول: جزاك الله خيراً، وفي لفظ فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد؛ فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؛ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول! رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة؛ وإن العبد الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من نار، وفي لفظ ملائكة سود الوجود معهم المسوح قال: فيجلسون منه مدّ بصره وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى غضب الله وسخطه فتتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين فذكر خروجها كما تقدم ونتن ريحها ووضعها في تلك المسوح ولَعْن الملائكة لها وغَلْق أبواب السماء دونها ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لا تُفَتَّحُ لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط﴾[1] فيقول عز وجل وجل: اكتبوا كتاب عبدي في سجين: في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ ﴿ومَن يُشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[2] فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣١.

الأرض بأشفارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان يا هذا؛ مَن ربُّك؟ فيقول: لا أدري، فينادى مِن جانب القبر لا دَرَيْت، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» وذكر تمام الحديث كما تقدم.

ورواه أبو داود أيضاً بطوله بنحو هذه الرواية، وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه. وروى النسائي وابن ماجه أوله. ورواه أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الاسفرايني في صحيحه. وأما ابن منده فرواه في كتاب الإيمان بطوله. وقال: هذا إسناد متصل مشهور، ولم أذكر سنده للاختلاف فيه. قال أبو عوانة: قال زادان الكندي: سمعت البراء، وقال غيره لم يسمعه من البراء، والله أعلم.

وفي صحيح البخاري ومسلم عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشي: إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» ورواه الإمام أحمد أيضاً في مسنده.

فصل

وليعلم أن النار والخضرة التي ورد ذكرهما في القبر كما تقدم ليست من نار الدنيا، ولا الخضرة زرع الدنيا، وإنما هي من نار الآخرة، ومن خضرها، وهما أبلغ وأشدّ من نار الدنيا وخضرها؛ فإنّ مَن قضى الله بعذابه، فإنه يحمى عليه ذلك التراب وتلك الحجارة التي فوقه وتحته، أو اللبن حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يُحِسُّوا بذلك، ولم يروا إلا تراباً وحجارة ولبناً، بل قد يدفن شخصان: أحدهما إلى جنب صاحبه، هذا في حفرة من حفر النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا حَرُّ هذا يصل إلى هذا، ولا نعيم هذا يصل إلى هذا، وقدرة الرب عز وجل أوسع وأبلغ وأعجب من ذلك، وكل

ذلك حتى يحصل للمؤمنين اجتهاد وخوف من الله تعالى، ومراقبته في السر والعلانية، فينتج من ذلك مضاعفة الأجر العظيم، والثواب الجزيل؛ لأن ما ذكرناه هو من الإيمان بالغيب، ويعلم المؤمن أن أمامه أهوال وعقبات ـ نسأل الله السلامة، وما ذكرته وإن كان من المغيبات قد يَطْلع الله بعض خلقه على ما يشاء من عجائب قدرته، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر ما أسمع» وفي الصحيح أيضاً: أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين وقال: «إنهما ليُعَذَّبان وما يُعَذَّبان في كبير» الحديث المشهور. قال العلامة ابن القيم رحمه الله ـ في كتاب الروح له ـ حدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الوزير الحراني أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان. قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور، فإذا بقبرٍ منها وهو جمرةُ نار مثل كور الزجاج والميت في وسطه، فجعلت أمسح عيني وأقول: أنا نائم أم يقظان؟ ثم التفت فإذا سور المدينة. قلت: والله ما أنا نائم، ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش، فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد، فسألت عن صاحب ذلك القبر. فقالوا: رجل مكاس توفي، فإذا به توفي ذلك اليوم. انتهى ما ذكره.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب القبور وكتاب المنامات من هذا النوع شيئاً كثيراً عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، في الخير والشر؛ فمن رام المطالعة فليطلب ذلك من وضعه.

ومما ذكر مرفوعاً أن رجلاً قال للنبي ﷺ: مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمع حتى يغيب في الأرض، ثم يخرج فيفعل به ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أبو جهل بن هشام يُعَذَّب إلى يوم القيامة».

فصل
في البرزخ

قال الله تعالى: ﴿ومِن ورائِهِمْ بَرزَخٌ إلى يومِ يُبعَثونَ﴾[1] فالبرزخ اسم لما بين الدنيا والآخرة. وهذه الآية دالة عليه؛ وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة؛ وعذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه؛ فجعل الله سبحانه وتعالى الدُّور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دارٍ أحكاماً تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبع لها، ولهذا جعل الله تعالى الأحكام الشرعية على ما يظهر من حركات الإنسان والجوارح، وإن كان في النفس خلاف ما ظهر منها. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها؛ فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا في نعيمها وعذابها، تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها، فالأرواح في البرزخ هي المباشرة للنعيم والعذاب، ثم يسري إلى أبدانها، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها؛ فالأبدان في الدنيا ظاهرة والأرواح خفية والأرواح في البرزخ ظاهرة والأبدان خفية. وإذا أردت أن تعلم ذلك فخذ في نوم الشخص في الدنيا فإنه ينعم في حال نومه أو يعذب، فهو يجرى على روحه أصلاً والبدن تبع لها، وقد يقوي التأثير في البدن النوم حتى يشاهد، وهذا والله أعلم غالب الناس يشاهد هذا في منامه. ولقد أخبرني الشيخ نصير المقدسي ـ وكان من صلحاء أهل مدرسة شيخ الإسلام أبي عمر ـ قال لي: ثلاث ليال أرى في النوم كأن أناساً يستعملونني بالفاعل، وأخاف منهم خوفاً شديداً، فأعملُ ثم أصبح في هذه الأيام وأنا تعبان في غاية التعب. ثم قال لي: انظر إلى يدي؛ فنظرت وإذا بكفيه شلافيط كبار، فكان ينزل الفجر يقرىء الناس، فامتنع من النزول في تلك الأيام، ثم إني أرشدته إلى ذكر يقوله عند النوم لعله أن يصرف عنه ما يجد، وربما قص عليّ منامات لبعض الناس يرى أنه

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

يأكل أو يشرب، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه، وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في حال نومه، ويبطش ويضرب في الهواء، أو يدافع عن نفسه، وربما صرخ بأعلا صوته كأنه يقظان وهو لا شعور له بشيء من ذلك؛ لأن الروح استعانت بالبدن، ولو دخلت فيه لاستيقظ، وإنما مثلت لك ذلك حتى تعلم صحة ما ذكرته لك في أول هذا الفصل، والله أعلم.

فصل

وينبغي للعبد إذا تفكر بعين بصيرته؛ وعلم مآله إلى هذه الحفرة وما أعدّ له فيها، أن يجتهد في العبادة، ويكثر من الأعمال الصالحة، ويعلم أن عمله يعرض على أقاربه من الأموات: كما ورد في الخبر من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا» رواه الإمام أحمد في مسنده.

وروى ابن أبي شيبة بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تُعْرَض على أوليائكم من أهل القبور» فكان أبو الدرداء يقول: اللهم أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة؛ فنعوذ بالله من الافتضاح بين الأقارب الصلحاء أهل طاعة الله تعالى، ثم نعوذ بالله من الافتضاح غداً بين يدي أحكم الحاكمين على رؤوس الخلائق؛ بل نسأل الله تعالى التوفيق بما يحبه ويرضاه. قال مجاهد: إنه ليبشر المؤمن بصلاح ولده من بعده لِتَقَرّ بذلك عينُه.

فصل

وأما تلقين الصغار؛ فقد قال الإمام أبو عمرو بن الصلاح: أما تلقين الطفل الرضيع فما له مستند يعتمد عليه، ولا نراه والله أعلم.

وقال النووي رحمه الله: الصواب أنه لا يلقن الصغير سواءٌ كان رضيعاً أو أكبر منه، ما لم يبلغ؛ إذ يصير مكلفاً؛ والله أعلم.

وقال العلامة موفق الدين في المغني: التلقين بعد الدفن لم أجد فيه عن أحمد شيئاً، ولا أعلم فيه للأئمة قولاً سوى ما رواه الأثرم قال: قلت لأبي عبد الله، فهذا الذي يصنعون إذا دفن الميت يقف الرجل ويقول: يا فلان بن فلانة الحديث المعروف. قال؛ ما رأيت أحداً يفعل هذا إلا أهل الشام حين مات أبو المغيرة جاء إنسان .فقال ذلك. ثم قال بعد كلام. وقال القاضي أبو الخطاب: يستحب ذلك. ورويا فيه عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم عند رأس قبره ثم ليقل يا فلان بن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل يا فلان بـن فلانة الثانية فيستوي قاعداً، ثم ليقل يا فلان بن فلانة فإنه يقول: أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون، فيقول: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبالقرآن إماماً؛ فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول: انطلق فما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته؟ ويكون الله حجيجه دونهما، فقال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه قال: فلينسب إلى حواء » رواه ابن ماجه أيضاً في (كتاب ذكر الموت).

فصل

ومن الغرائب ما ذكره أبو محمد بن حزم في كتابه في الملل والنحل. قال: وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فخطأ. لأن الآيات التي ذكرناها تمنع من ذلك،وكان قد ذكر قبل ذلك قوله تعالى: ﴿قالوا ربَّنا أمَتَّنا اثنتين وأحْيَيتَنا اثنَتَين﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿كيفَ تَكفُرونَ باللهِ وكنتُم أمواتاً فأحْياكُم ثمَّ يُميتُكُم ثمَّ يُحييكُم﴾ (٢) ثم قال: ولو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالى أماتنا ثلاثاً وهذا باطل وخلاف القرآن، إلا من أحياه الله آية لنبي من الأنبياء، فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى أجسادها إلا إلى أجل

(١) سورة غافر، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

مسمى ـ وهو يوم القيامة ـ وأخبر يوم بدر إذا خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن يكون لهم قبور، ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جَيَّفوا. واعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك وأما الجسد فلا حس له. وقد قال تعالى: ﴿وما أنت بمسمع مَن في القبور﴾ (١) فنفي السمع عمن في القبور وهي أجساد، ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في ذلك خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المساءلة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به؛ وإنما هذه رواية شاذة عن المنهال بن عمرو وحده، وليس بالقوي، تركه شعبة وغيره. وقال جماعة من الحفاظ: ما جازت للمنهال شهادة في الإسلام قط. انتهى كلامه.

فهذا مضمون ما ذكره ومن اطلع على ما قدمته من الأحاديث وآمن بها وصدقها؛ فليحمد الله تعالى على التوفيق لذلك؛ فإنه لو لم تكن هذه الأحاديث كان إجماع الناس من أمة محمد ﷺ على إعادة الروح في الجسد لأجل المساءلة، كيف وقد صح عن النبي ﷺ. بل قد كفانا الرسول ﷺ أمر هذه المسألة، وأغنانا عن أقوال الناس، حيث صرح بإعادة الروح اليه، وما كان يليق بأبي محمد ابن حزم أن يجازف هذه المجازفة، وأن يقول القول بهذا خطأ، فجوابه مردود بالنصوص الصريحة المتقدم ذكرها وهو قوله ﷺ: «فتعاد روحه في جسده» بل قيل إن هذا إجماع الأمة على هذا، وأنهم تلقوه بالقبول، وأنهم مجمعون على من ردّ ذلك وأنكره، أنه مخطىء. وأن تصديق ذلك من الإيمان بالبعث ولكن إن أراد ابن حزم أن الميت لا يحي في قبره الحياة المعهودة في الدنيا التي يقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه، ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس، فهذا صحيح يشهد العقل بصحة ذلك، وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه غير الإعادة المؤلوفة في الدنيا لأجل المساءلة والامتحان، كما وردت بذلك النصوص الصحيحة، فهذا حق ونفيه خطأ بين، بل نفيه باطل قادح فيمن نفاه؛ بل قد ورد في سنن أبي داود مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «ما

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٢.

من رجل يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فسلم إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام، فهذه إعادة الروح إلى الجسد أيضاً غير الإعادة المألوفة في الدنيا لأجل ردّ السلام، بل لو سلم على الميت في الليل والنهار مراراً عديدة عادت روحه لرد السلام، ولا يلزم من ذلك أن يحيي الحياة المعروفة، وقوله الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو به فهذه مجازفة، فإن المنهال بـن عمرو الأسدي يروي عن ابن حبيش. قال يحيى بن معين: هو ثقة. ونهاية ما قيل فيه قال أحمد: تركه شعبة. هذا مضمون ما ذكره أبو الفرج بـن الجوزي في الكلام على الرجال، ولم يذكر أن أحد رد شهادته، والحديث صحيح لا شك فيه، وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير المنهال منهم عدي بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد وغيرهم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام.

أحدها: تعلقها به في بطن الأم.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه، بل تعاد إليه وقت المساءلة، وترد إليه أيضاً وقت سلام المسلّم، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب إعادة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل تعلقها به، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق البتة، إذ هو تعلق لا يقبل البدن موتاً ولا نوماً ولا فساداً، والله أعلم انتهى كلامه.

فهذا العلامة ابن القيم رحمه الله قد كفانا مؤنة الرد بلا تكلف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول طائفةٌ من الناس، وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون فقالوا: السؤال للروح بلا بدن. وهذا قاله ابن مسرة وابن حزم، وكلا غلط، والأحاديث الصحيحة تردّه والله أعلم. انتهى كلامه.

الباب السادس والعشرون
في اجتماع الأرواح وهيآتها وأين محلها والخلاف في ذلك

قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الرُّوح قل الرُّوح مِن أمر ربي﴾ [1] وقال الله تعالى: ﴿ونَفَخْتُ فيه مِن روحي﴾ [2] وقوله: ﴿فنفَخْنا فيه مِن روحِنا﴾ [3] وقوله ﷺ «ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح» وأما قوله تعالى ﴿فأرسَلْنا إليها رُوحَنا﴾ [4] و ﴿يَقومُ الروحُ والملائكة صَفّاً﴾ [5] فهل هو جبريل أو ملك آخر؟ فيه خلاف للمفسرين، وأما كلام العلماء في هذا الباب فقد ألف الناس فيه شيئاً كثيراً، لكن على غير هذا الترتيب، فنذكر نبذة يسيرة جامعة لكلام غالب العلماء في مستقر الأرواح بعد الموت إلى أن تقوم الساعة، هل هي في السماء أم في الأرض؟ وهل هي في الجنة أم في النار؟ وهل تنعم في أجسادها وتعذب أم تودع في أجساد غير أجسادها؟ أم تكون مجرّدة أو تعدم بالكلية فلا يبقى لها وجود أصلاً؟ فقد نقل عن العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً متبايناً، ذهب كل طائفة إلى قول نصرته ورجحته على غيره؛ وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وهذه المسألة إنما تعرف من جهة الشرع بالسمع، فمن العلماء من ذهب إلى أن أرواح المؤمنين والشهداء في الجنة بشرط أن لا يحبسهم عنها ذنب عظيم؛ كمظالم العباد ونحوها، فإذا كانوا خالين من ذلك تلقاهم ربهم بالعفو والرحمة. قال الله تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيلِ الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون﴾ [6] وممن ذهب إلى هذا القول أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجماعات من السلف. قال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: إن أرواح المؤمنين

---

(١) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٣) سورة التحريم، الآية: ١٢.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٥) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

في الجنة، وأرواح الكفار في النار، وذهبت طائفة إلى أن أرواح المسلمين على أبواب الجنة يأتيهم من رَوحها ونعيمها ورزقها.

وقال أبو عبد الله بن منده. وقالت طائفة من العلماء من الصحابة والتابعين: أرواح المؤمنين عند الله عز وجل، ولم يزيدوا على ذلك. ثم قال: وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية، وأرواح الكفار في بئر برهوت - بئر بحضرموت.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وحكى ابن المبارك عن ابن جريج فيما قرأ عليه عن مجاهد. قال أرواح المؤمنين في الجنة يأكلون من ثمارها، ويجدون ريحها.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت.

وقال صفوان بن عمر: سألت عامر بن عبد الله - هل لأنفس المؤمنين مجتمع؟ قال: إن الأرض التي يقول الله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثها عبادي الصالحون﴾ [1] قال: هي الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث. وقال: هي الأرض التي يورثها الله المؤمنين في الدنيا.

وقال كعب الأحبار: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أرواح الأبرار في عليين؛ وأرواح الفجار في سجين؛ وعن عبد الله بن عمر نحوه.

وذهب طائفة من العلماء إلى أن أرواح المؤمنين في بئر زمزم. ولم أطلع على دليل يدل على هذا القول. ثم قال أرباب هذا القول: وأرواح الكفار في بئر برهوت.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

وقال سلمان الفارسي: أرواح المؤمنين تذهب حيث شاءت، كما قال مالك ـ وقد تقدم ـ وأرواح الكفار في سجين.

وقال ابن قتيبة: ذهب جماعة من العلماء إلى أن أرواح المؤمنين على أفنية قبورهم. ومنهم من ذهب من أهل السنة والجماعة إلى أن أرواح المؤمنين والكفار في القبور، وأن الروح تنعم وتعذب في القبر إلى يوم القيامة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق، وأن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، ولهذا نهى عن الجلوس على القبر، وأمر بالسلام عليهم وقال: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

وذهب جماعة من العلماء إلى أن محل الأرواح ومستقرها في سماء الدنيا، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ ليلة الإسراء أنه رأى ليلة أسري به في السماء الدنيا آدم عليه السلام، وعن يمينه أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة.

ومن هذا الباب ما ثبت في صحيح البخاري من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حديث الرؤيا، إلى أن قال فيه: «فأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يا رسول الله: وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين» وفي رواية له: والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم والصبيان حوله أولاد الناس؛ فهذا الحديث ليس هو عام في جميع الأرواح وإنما هو خاص بأرواح الصغار، وما رأيت أحداً ذهب إلى التفرقة بين أرواح الصغار والكبار لهذا الحديث، ولا أعلم أحداً قال به. والله أعلم.

فصل
في الإشارة إلى الدليل

وقد أشرنا إلى بعضه فيما تقدم، ولو ذكرنا كل قول، وحجج من نصره وذهب إليه، لطال الكتاب وخرج عن موضوعه، ولكن نذكر ما يسره الله تعالى من الأحاديث، فمنها ما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود ـ كذا وقع في نسخ معتمد عليها ـ ووقع في بعض النسخ عبد الله فقط، فمن الحفاظ من يقول عبد الله بن عمرو، ومنهم من يقول ابن مسعود، والله أعلم بالصواب، أن النبي ﷺ قال في الشهداء: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل» وفي حديث قتادة لفظ غريب. قال: أرواح المؤمنين في صورة طير بيض. قال القاضي عياض في هذا الحديث ذكر أرواح الشهداء، وفي حديث مالك: إنما نسمة المؤمن لم يذكر الشهداء، والنسمة تطلق على ذات الإنسان جسماً وروحاً، وتطلق على الروح مفردة، وهو المراد بها في هذا الحديث والله أعلم. وفي الحديث دلالة على أن المراد بها الروح قطعاً، فإنه قال: حتى يرجعه الله إلى جسده يوم القيامة، ولكن تارة في هذا الحديث ذكر نسمة المؤمن، وفي اللفظ الآخر أرواح الشهداء. وقد ورد في حديث ابن عمر أن غير الشهداء إنما يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ كما ورد في النظر في قوله تعالى في حق آل فرعون ﴿النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيا﴾[1] قال القاضي عياض أيضاً في موضع آخر: وقيل المراد جميع أرواح المؤمنين الذين يدخلون الجنة بغير عذاب؛ فيدخلونها الآن بدليل عموم الحديث. كذا ذكره النووي في شرح مسلم. وقد ورد بلفظ آخر في صحيح مسلم أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها. ليس فيه ذكر أجواف طير. وهذا إخبار منه ﷺ عن الشهداء المؤمنين.

وذكر ابن منده بإسناده عن إسماعيل بن طلحة بن عبد الله عن ابنيه. قال:

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

أردت مالي بالغابة فأدركني الليل؛ فآويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حزم؛ فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها؛ فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له؛ فقال: «ذاك عبد الله؛ ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد وياقوت وعلقها وسط الجنة؛ فإذا كان الليل ردّت إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردّت أرواحهم إلى مكانهم التي كانت» وأخبر سبحانه وتعالى عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشياً قبل يوم القيامة، وليس للعقول في هذا مجال؛ فإنه سبحانه وتعالى يتصرف فيها كيف شاء وغير مستحيل أن يصور هذا الجزء طائراً، أو يجعل في جوف طائر، أو في حواصل طير، أو في قناديل معلقة بالعرش.

قال العلامة ابن القيم: وهذا حياة أرواحهم ورزقها، والأبدان قد تمزقت.

وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل؛ فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ يفعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. وصح عنه ﷺ الحديث من غير وجه، وفي بعض الألفاظ تعلق من ثمر الجنة - وتعلق بضم اللام تأكل العلقة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب» فقال الله: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله على رسوله ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾[1] رواه الإمام أحمد.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

ولا أعلم أحداً ذهب إلى أن هذا النعيم المذكور مختص بالذين قتلوا في أحد والله أعلم.

فصل

وذهب ابن حزم وجماعات إلى أن مستقرّ الأرواح حيث كانت قبل خلق أجسادها، قال ابن حزم: وهذا الذي أخبر الله تعالى به ونبيه ﷺ لا يتعدّاه وهو البرهان الواضح، قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهَدَهُم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شَهِدْنَا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[1] وقال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[2] فصح أن الأرواح خلقها الله تعالى جملة، وكذلك أخبر ﷺ: «إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وأخذُ الله وشهادتها له بالربوبية وهي مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وقبل أن يدخلها في الأجساد، والأجساد يومئذ تراب وماء، ثم أخرها حيث شاء وهو البرزخ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها في الأجساد المتولدة من المنى، إلى أن قال ابن حزم: فصح أن الأرواح أجساد كاملة لأعراضها من التعارف والتناكر، وأنها عارفة مميزة؛ فإذا توفاها الله تعالى رجعت إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسري به عند سماء الدنيا، أرواح أهل السعادة عن يمين آدم، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره، وذلك عند منقطع العناصر، وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة. ثم قال: وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحاق بن راهويه هذا الذي ذكرنا بعينه. ثم قال: وعلى هذا أجمع أهل العلم. انتهى كلامه. وذكر الأدلة على ذلك ولم يذكر خلافاً وقد تقدم ذكر الخلاف على ذلك، وما ذكره أبو محمد بن حزم فهو يبنى على أصل. وهو أن الأرواح هل خلقت قبل الأجساد، أو الأجساد

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١.

خلقت قبل الأرواح؟ فهذه المسألة للناس فيها قولان، حكاهما شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

أحدهما: ما حكاه واختاره ابن حزم ومحمد بن نصر المروزي وقد تقدم، وذكرنا ما استدل به.

والقول الثاني: وعليه عامة السلف والخلف أن الأجساد خلقها متقدم على الأرواح، والأدلة متظاهرة من وجوه عديدة ليس هذا محل ذكرها فخلق أبي البشر الذي هو أصل الناس هكذا، فإنه سبحانه وتعالى أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض، ثم خمرها حتى صارت طيناً، ثم صوّره ثم نفخ فيه الروح بعد تصويره، وهذه قصة مشهورة قد وردت من عدة طرق، تدل على أن الله سبحانه نفخ فيه من روحه بعد أن خلق جسده. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح» الحديث المشهور. فنفخ الملك فيه الروح هو سبب حدوث الروح فيه، ولو كان للروح وجود قبل البدن وهي حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة في هذا العالم، شاعرة به ولو بوجه ما، ومن الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها وهي بين ملأ من الأرواح تنتقل إلى هذا البدن ولا تشعر بحالها الأول، وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهي في البدن على التفصيل. وتعلم ما كانت عليه هاهنا مع أنها التشبث بالبدن أموراً عاقها عن كثير من حالها، فلأن تشعر بحالها الأول وهي غير معوقة هناك بطريق الأولى. والله أعلم.

فصل

في قوله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فمن العلماء كابن حزم وابن نصر المروزي وغيرهما يقول: الأرواح مجموعة أو مجتمعة، وأنواع مختلفة، فهي خلقت مجتمعة ثم فرقت في أجسادها، فمن وافقه نسيمه ألفه، ومن باعده نافره وخالفه وقال الخطابي وغيره: هو ما

خلقها الله عليه من السعادة والشقاوة في المبتدأ فالأرواح قسمين متقابلين؛ فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ما خلقت عليه، فيميل الأخيار إلى الأخيار. والأشرار إلى الأشرار انتهى كلامه. ومن هذا الباب ما احتج آدم وموسى، قال الحسن: معناه التقت أرواحهما في السماء فوقع الحجاج بينهما. قال القاضي عياض: ويحتمل أنه على ظاهره، وأنهما اجتمعا بأشخاصهما. وقد ثبت في حديث الإسراء أن النبي ﷺ اجتمع بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في السموات، وفي بيت المقدس، وصلى بهم. قال: فلا يبعد أن الله أحياهم. قال: ويحتمل أن قصة موسى جرت في حياة موسى، وأنه سأل أن يريه آدم فحاجه، والله أعلم.

فصل

وهل الأرواح مخلوقة محدثة كائنة بعد أن لم تكن، أم قديمة؟ وهي من أمر الله ولا يكون أمر الله مخلوقاً ولا مُحْدَثاً، وقد أخبر أنه نفخ في آدم من روحه، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؟ قال العلامة ابن القيم: وهذه المسألة زل فيها عالم، وضل فيها طوائف من بني آدم، وهدى الله أتباع رسوله فيها الحق المبين. فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ـ حتى نبعت نابعة ـ فمن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة، واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق، وبأنها أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وحياته وقدرته، وتوقف في ذلك آخرون فقالوا لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة، انتهى كلامه.

وقال الحافظ ابن منده: لما سئل عن الأرواح، هل هي مخلوقة أم لا؟ فقال: إن الناس اختلفوا في معرفة الأرواح ومحلها من النفس، فقال بعضهم: الأرواح كلها مخلوقة، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر، واحتجت بقوله ﷺ «الأرواح

جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف» الحديث. والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة، وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق، واحتجت بقوله ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[1] وقال بعضهم: الأرواح نور من نور الله تعالى، وحياة من حياته. واحتجت بقوله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره» انتهى كلامه.

وقال محمد بن نصر المروزي: تأول صنف من الزنادقة ومن الروافض في روح آدم: ما تأولته النصارى في روح عيسى، وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار في المؤمن فقال صنف من الزنادقة، وصنف من الروافض: إن روح آدم غير مخلوق وتأولوا قوله تعالى ﴿ونفخْتُ فيه من روحي﴾[2] وقوله ﴿ثمَّ سَوَّاه ونفخ فيه من روحه﴾[3] ثم قال بعد كلام طويل: ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكونها واخترعها: انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة. وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة، غير واحد من أئمة المسلمين، مثل محمد بن نصر المروزي، وأبو محمد بن قتيبة وغيرهما، وذكر كلاماً طويلاً وبحثاً كثيراً يطول ذكره؛ والله أعلم.

فصل مهمٌّ نافع

من استدل بإضافة الروح إلى الله تعالى بقوله: ﴿ونَفَخْتُ فيه من روحي﴾[4] فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه وتعالى نوعان **(أحدهما)** صفات لا تقوم بأنفسها؛ كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى موصوفها، صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه وتعالى

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٩.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(الثاني) إضافة أعين منفصلة عنه، كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله، ورسول الله، وروح الله فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف إليه عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكاً لله، وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، ولكن هذه إضافة إلى إلاهيته تقتضي محبته لها وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده، هذا خلق الله، فالعامة تقتضي الخلق والإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار، وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه ينفعك من التخلص من البدع، فقد ضل فيه خلق كثير، نسأل الله العصمة.

فصل

وهل الأرواح تموت أم الموت للأبدان خاصة: فقد اضطربت مقالات الناس في هذا الباب، فقالت طائفة تموت وتذوق الموت، لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت، قالوا: وقد دل القرآن عليه بقوله: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام﴾ (١) وقوله تعالى ﴿كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه﴾ (٢) و ﴿كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت﴾ (٣) قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت. وقال تعالى في حق أهل النار: ﴿قالوا ربنا أمَتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ (٤) فالموتة الأولى هذه المشهودة فهي للبدن، والأخرى للروح، وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء؛ وإنما تموت الأبدان. قالوا: وقد دل على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، وقال

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة غافر، الآية: ١١.

تعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين﴾[1] الآية. هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وذاقت الموت.

قال العلامة ابن القيم: والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها، وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب كما صرح به في النصوص حتى يردها الله في أجسادها، ثم ساق بعد ذلك النصوص الواردة في هذا المحل. انتهى كلامه.

فصل

وهل عذاب القبر على الروح والبدن، أو على الروح دون البدن؛ أو على البدن دون الروح؟ وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: بعد أن سئل عن هذه المسألة فأجاب: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن؛ وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما تكون الروح منفردة عن البدن، منعمة أو معذبة، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح، هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث.

قول من يقول إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا يقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين، ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان، ولكن يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ، وإنما يكون عند القيام من

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

القبور، لكن هؤلاء ينكرون عذاب الأبدان في البرزخ فقط، ويقولون إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ، فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام وأهل الحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم، وابن مسرة، فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة، بل هو مضاف إلى قول من يقر بعذاب القبر، ويقر بالقيامة، ويثبت معاد الأبدان والأرواح، لكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال: **(أحدها)** أنه على الروح فقط. **(والثاني)** أنه عليها وعلى البدن بواسطتها. **(الثالث)** أنه على البدن فقط. وقد يضم إلى ذلك قول من يثبت عذاب القبر؛ ويجعل الروح هي الحياة ويجعل الفساد[1] قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً، وقول من ينكر عذاب البرزخ مطلقاً، والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك؛ لكن ينكرون معاد الأبدان. فهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان، لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان، وكلا القولين خطأ وضلال؛ لكن قول الفلاسفة أبعد من أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من هو متمسك بدين الإسلام، بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوّف.

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى؛ وأما الأحاديث الدالة على نعيم القبر وعذابه فهي كثيرة جداً: بل لو قيل إنها بلغت التواتر في المبالغة لم يبعد ذلك، فمنها ما تقدم من أحاديث مساءلة منكر ونكير، وفيها كفاية. ومنها ما لم أحط به ولم أطلع عليه ومنها ما اطلعت عليه واختصرته للتطويل، ومنها ما أذكره للتنبيه؛ فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال «إنهما ليعذبان وما يعذبان

(١) كذا بالأصل. والكلام غير متصل.

في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين، فقال: لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا».

ورواه أبو داود الطيالسي؟ لكن قال فيه: «أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس» وباقيه كما ذكرته.

وثبت في صحيح مسلم في حديث طويل قال «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها؛ فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه» ثم قال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن» الحديث.

وفي مسلم أيضاً وجميع السنن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».

وفي الصحيحين عن أبي أيوب قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال: «يهود تعذب في قبورها».

وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة قالت: دخلت على عجوز من يهود المدينة فقالت: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها، فخرجت ودخل على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ﷺ إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم؟ فقال: «صدقت إنهم يعذبون عذاباً يسمعه البهائم كلها» قالت: فما رأيته بعد في صلاته إلا يتعوذ من عذاب القبر.

قال بعض أهل العلم: ولهذا السبب يذهب الناس بالخيل إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى، فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعاً وحرارة تذهب بالمغل.

والأحاديث كثيرة جداً في هذه الباب، وقد تقدم في أحاديث المساءلة ما هو أبلغ من ذلك في قوله: « فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » وهذا صريح في أن البدن يعذب في القبر.

وروى النسائي من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « هذا الذي تحرّك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهد له سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » قال النسائي: ـ يعني سعد بن معاذ ـ وفي حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: « للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ » قال نافع: بلغني أنه شهد جنازته سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط، وفي لفظ « منديل من مناديل سعد خير من الدنيا وما فيها ».

فصل

قال المروزي: قال الإمام أحمد: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضالّ مُضِلّ.

وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر! فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقرّ بها، كلما جاء عن النبي ﷺ إسناد جيد أقررنا به، إذا لم نقر بما جاء به الرسول ودفعناه ورددناه، رددنا على الله أمره قال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ (١) قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق، يعذبون في القبور؛ قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير؛ وأن العبد يسأل في قبره؛ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة في القبر.

وقال أحمد بن القاسم: قلت يا أبا عبد الله: نقرّ بمنكر ونكير، وبما يروى من عذاب القبر؟ فقال: سبحان الله نعم نقرّ بذلك ونقول به.

قال العلامة ابن القيم: ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ،

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

فكل من مات وهو مستحق العذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم قبر، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو صلب، أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور. انتهى كلامه.

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن البلى يختص هذا البدن المشاهد المركب، فإن هذا البدن ليس بشيء إنما هو آلة، والنظر إلى ما يؤذي الروح وينفعها.

وقد روى أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله بإسناده قال: دخل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما المسجد وقد قتل عبد الله بن الزبير، فمال إلى أسماء أم ابن الزبير، فقال لها: اصبري فإنّ هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله تعالى، ثم قال: وروينا عن ابن الزبير أنه قال لأمه أسماء قبل قتله. يا أُمّاه، إن قتلت فإنما أنا لحم لا يضر ما صنع بي.

وروى خالد بن معدان قال: لما قتل هشام بن العاص يوم أجنادين وقع على ثلمة فسدّها، ولم يكن ثم طريق غيره؛ فلما انتهى المسلمون إليه هابوه أن يوطئوه الخيل فقال عمرو بن العاص؛ أيها الناس إن الله قد استشهده ورفع روحه، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل، ثم أوطأه هو وتبعه الناس حتى قطعوه. وإذا ثبت هذا، فإن الله تعالى إذا أتلف هذا البدن الترابي المعرض للآفات وأبلاه؛ فإنه سيعيده بدنا لا يبلى، في حياة لا تنفذ أبداً، وتبدل صعوبات التكليف بحسن الجزاء؛ ويعطيهم أجوراً باقية عن أعمال منقطعة، كما لا يبقى لمرارات الشعث والتكليف في أيام الإحرام؛ طعم عند أيام التشريق. والله تعالى الموفق.

الباب السابع والعشرون
في عد الشهداء وفضلهم وأنهم أرفع درجات من الصالحين

قال تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ (١).

قال قتادة: قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنت في الدرجات العلى، ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ومن يطع الله﴾ في أداء الفرائض ﴿والرسول﴾ في السنن ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ أي لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم. فأعلى درجات بني آدم الأنبياء، ثم الصدّيقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، وهذا ترتيب لا شك فيه، لأن الله تعالى رتبهم في الذكر، قدم الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل في المراتب والمنازل.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «ما من نفس تموت لها عند الله خير أنها ترجع إلى الدنيا ولا أن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد» الحديث. هذا من صرائح الأدلة في عظم فضل الشهادة.

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» رواه مسلم في صحيحه.

وفي مسلم أيضاً من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه».

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

ورواه الترمذي وصححه من حديث معاذ مرفوعاً، ولفظه: « من سأل القتل في سبيله صادقاً من قلبه أعطاه الله أجر الشهيد » ورواه الإمام أحمد بهذا اللفظ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما تعدّون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد؛ قال: « إن شهداء أمتي إذاً لقليل » قالوا، فمن هم يا رسول الله؟ قال: « من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد؛ والغريق شهيد، - وفي رواية - وصاحب الهدم شهيد ».

وعن جابر بن عتيك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « الشهداء سبع سوى القتل في سبيل الله عز وجل، المطعون شهيد، والغريق شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب ذات الجَنْب شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد وصاحب الحريق شهيد، والمرأة تموت بجمْع شهيد » رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي. وروى ابن ماجه بعضه - قوله بجمع بضم الجيم وإسكان الميم وهي التي تموت حاملاً أو نفساء - كذا ذكره غير واحد من أهل العلم. والله أعلم.

وروى الإمام أحمد والنسائي من حديث صفوان بن أمية عن النبي ﷺ قال: « الطاعون شهادة، والغرق شهادة، والبطن شهادة ».

وروى النسائي أيضاً من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « خمس من قبض على شيء منهنّ فهو شهيد، المقتول في سبيل الله شهيد، والغريق في سبيل الله شهيد، والمطعون في سبيل الله شهيد، والفناء في سبيل الله شهيد ».

وروى مالك في الموطأ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قصة أن النبي ﷺ قال: « ما تعدّون الشهادة فيكم؟ » قالوا: القتل في سبيل الله. قال رسول الله ﷺ « الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله » ثم ذكر نحو ما تقدّم في السنن من حديث جابر بن عتيك.

وروى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « الشهداء خمس: المطعون والمبطون. والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله » قال العلامة إسماعيل التيمي الأصبهاني ـ مفسراً لهذا الحديث ـ قال المطعون الذي أصابه الطاعون، والمبطون الذي أصابه علة البطن انتهى.

وقال غيره من العلماء. للناس في تفسير علة البطن ثلاثة أقوال: (**أحدها**) أنه الذي يموت بالاستسقاء. (**والثاني**) الذي يموت بالمغص الشديد ـ وهو الذي يسمونه القولنج ـ وهو مرض معروف (**والثالث**) الذي يموت بالإسهال، انتهى كلامه. قلت والقول الثالث هو الراجح عند أكثر أهل العلم وبعضهم لم يحك غيره، ويحتمل والله أعلم أن الشهادة تعم الثلاثة أصناف المذكورة، وهو أبلغ في الكرم وسعة الفضل، والله أعلم. ومما يؤيد هذا الاحتمال ما روى ابن حبان في صحيحه من حديث سليمان بن مراد وخالد بن عرفة، أن رسول الله ﷺ قال: « من قتله بطنُه لم يعذب في قبره ».

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد » رواه البخاري. وروى أبو داود والترمذي والنسائي واللفظ له من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد ؛ ومن قتل دون دينه فهو شهيد ؛ ومن قتل دون أهله فهو شهيد ».

وروى النسائي مفرداً من حديث سويد بن مقرن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « من قتل دون مظلمته فهو شهيد ».

وروى الإمام أحمد من حديث ابن لهيعة عن خالد بن أبي زيد عن سعيد بن أبي هلال عن إبراهيم بن عبد الله بن رفاعة، أن أبا محمد أخبره وكان من أصحاب ابن مسعود حدثه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر عنده الشهداء قال: « إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته ».

وروينا في خبر ابن عرفة مرفوعاً « الموت كفارة لكل مسلم ».

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن العبد إذا نظر أو سمع ما تقدم في هذا الباب من تنوع الشهادة، وذكر تعدادها، حصل له تسلية بموت محبوبه؛ فإنه في الغالب لا بدّ أن يكون ناله نصيب منها، مع أني لم أحط بكل ما ورد عن النبي ﷺ في تسمية الشهداء، وقد روي مرفوعاً: «موت الغريب شهادة» وقد استقصينا في عدّ الشهداء في كتاب (أحكام الطاعون) ويكفي في البشارة ما تقدم قريباً من رواية الإمام أحمد مرفوعاً «إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش» وتقدّم ما أعد الله للشهداء من حين الموت، وما لهم عند الله، وأن أرواحهم في حواصل طير خضر تأكل وتشرب في الجنة، وتسرح حيث شاءت، وكل هذا في ذار البرزخ؛ فإذا دخلوا الجنة يوم القيامة بأجسادهم انتقلوا إلى نعيم أعلى من ذلك وأكثر منه. قال أبو بكر القطيعي: حدثنا بشر بن موسى ثنا ابن خليفة ثنا عوف عن خنساء قالت حدثتني عمتي قالت: قلت يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة» وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف فذكر مثله. فانتقال العبد إلى الله وما عند الله هو خير لعباده من هذه الدنيا التي خلقهم فيها، فينظر كيف يعملون، ويبتليهم بالمحن والمصائب، والشهادات حتى يعلم الصابر منهم والجازع ليجازي كل شخص بحسبه، فمنهم من يجازيه بالجنان، ومنهم من يجازيه بالنيران، وكل ذلك عدل منه سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، بل إن أدخل العبد الجنة فبرحمته وفضله، وإن أدخله النار فبعدله وسلطانه ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ فله الحمد دائماً على كل حال.

فصل

والشهادة المطلوبة شهادة المعركة على ما تقدم؛ وكذلك شهادة الطاعون فإنه قد ورد فيها أحاديث وآثار في تمني الطاعون؛ كما وقع في قصة المغيرة بن شعبة أنه قال: اللهم ارفع عنا الرجز ـ يعني الطاعون ـ فقال أبو موسى الأشعري رضي

الله عنه: أما أنا فلا أقول هذا ولكن أقول كما قال العبد الصالح أبو بكر الصديق رضي الله عنه: اللهم طعناً وطاعوناً في مرضاتك. وقام أبو عبيدة خطيباً فقال: « يا أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم؛ وموت الصالحين قبلكم؛ وأن أبا عبيدة يسأل الله العظيم أن يقسم له من حظه. قال فطعن فمات ». وثبت في مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: « اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون » وغير ذلك من الأحاديث والآثار التي لا تحضرني وقد قرّرت ذلك في كتابنا المعروف بأحكام الطاعون، ولكنه لم يكن عندي حين ألفت هذا الكتاب؛ فإن قيل: الشهادة المطلوبة شهادة المعركة، وكذلك شهادة الطاعون كما تقدم، وقد ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ استعاذ من بعض ما عدّه شهادة، ففي مسند الإمام أحمد مرفوعاً، استعاذ من سبع موتات، من موت الفجأة، ومن لدغ الحية، ومن السبع، ومن الغرق، ومن الحرق، ومن أن يخرّ على شيء، أو يخر عليه شيء، ومن الفرار من الزحف، وفي المسند أيضاً مرفوعاً « اللهم إني أعوذ بك أن أموت هماً أو غماً أو أن أموت غرقاً وأن يتخبطني الشيطان عند الموت » ورواه النسائي ولفظه « اللهم إني أعوذ بك من الهدم والتردي والهم والغم والغرق والحرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغاً » وغير ذلك من الأحاديث. يقال: لم يقل أحد من العلماء أن كل شهادة مطلوبة، بل من وقع له أو لمحبوبه أو لغيره شيء مما عدّه النبي ﷺ شهادة، فهو شهيد، والشهيد ثلاثة أقسام:

(**أحدها**) شهيد في الدنيا والآخرة وهو المقتول في المعركة مخلصاً.

(**والثاني**) شهيد في الدنيا فقط وهو المقتول في المعركة مرائياً.

(**والثالث**) الشهيد في الآخرة فقط وهو من أثبت له الشارع الشهادة ولم يجر عليه أحكامها في الدنيا. كالغريق والحريق ومن به ذات الجنب ونحوه كما تقدّم.

فإن قيل: لم سمي الشهيد شهيداً؟ قيل: قد اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

(**أحدها**) لأنه حي كما قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾[1].

(**الثاني**) لأن الله تعالى وملائكته شهدوا له بالجنة.

(**الثالث**) لأن الملائكة تشهده.

(**الرابع**) لقيامه بشهادة الحق حتى قتل.

(**الخامس**) لأنه يشهد ما أعدّ الله له من الكرامة بالقتل.

(**السادس**) لأنه شهد لله بالوجود والإلهية بالفعل لما شهد غيره بالقول.

(**السابع**) لسقوطه بالأرض وهي الشاهد له.

(**الثامن**) لأنه شهد له بوجوب الجنة.

(**التاسع**) من أجل شاهده وهو دمُه.

(**العاشر**) لأنه شهد له بالإيمان وحسن الخاتمة؛ فهذه عشرة أقول من أماكن متفرّقة جمعت إليك رخيصة الأثمان: فهذه الأقوال في المخلص الذي قصد بجهاده وجه الله تعالى، والدار الآخرة، فإنه سبحانه وتعالى إذا علم قصد العبد وإخلاصه أعانه وأغاثه. قال تعالى ﴿إنا لا نُضيع أجرَ مَن أحسَنَ عَمَلاً﴾[2] وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي في جزء الثبات عند الممات في هذا المعنى، عن علي بن الموفق قال: سمعت حاتم الأصم يقول: لقينا الترك وكان بيننا جولة، فرماني تركي بسهم فقلبني عن فرسي، فنزل عن دابته، فقعد على صدري وأخذ بلحيتي، وأخرج من خفه سكيناً ليذبحني، فوحق سيدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكينه إنما كان قلبي عند سيدي أنظر ماذا ينزل به القضاء منه، فقلت: سيدي قضيت على أن يذبحني هذا فعلى الرأس والعين، إنما أنا لك وملكك، فبينما أنا كذلك وهو قاعد على صدري إذ رماه بعض المسلمين بسهم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت إليه وأخذت السكين من يده فذبحته بها. فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند مليككم حتى تروا من عجائب لطفه ما لا تروا من الآباء والأمهات.

الباب الثامن والعشرون
في ذكر الصراط ودرجات الناس في المرور عليه

أما الصراط فهو جسرٌ منصوب على متن جهنم، وهو أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، ثبتنا الله وإياكم على المرور عليه.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟ لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال: فيأتون إبراهيم فيقول إبراهيم عليه السلام: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء اعمدوا إلى موسى كلمه الله تكليماً، فيأتون موسى فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى محمد قال: فيأتون محمداً ﷺ ويؤذن له ويرسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يميناً وشمالاً، فيمرّ أولكم كالبرق يمرّ ويرجع في طرفة عين، ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول ربِّ سَلِّم رب سلم، حتى تعجز أعمال العباد وحتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أُمرت به فمخدوش ناج ومكدوش في النار والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر الصراط ومرور الناس عليه قال: «فيمرُّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش في نار جهنم»

رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ وذكر حديث الشفاعة: «ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ـ هل رأيتم شوك السعدان؟ ـ ثم قال: وإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم» الحديث.

فصل

قد سمعت رحمك الله فانظر إلى هذه الطريق الحرج، والمسلك الشاق، والقنطرة المضطربة، والعقبة الكؤود التي لا تثبت عليها الأقدام، ولا تجوزها الأوهام، ولا يثبت عليه إلا من ثبته الله بالقول الثابت، وثبت قدماه يوم تزل الأقدام، ولعل مَن عنده تساهلٌ وعدمُ توفيق يسمع بالصراط فيظنّ أن طريقه يشبه طرق الدنيا التي هي صعبة المسلك، وعرة ذات صعود ونزول، هيهات وما علم، والله إنه أحدّ من السيف، وأدق من الشعرة، وعلى يمينه وشماله كلاليب وخطاطيف، فإذا كلفت المرور عليه وهو بهذه المثابة، وأعظم من ذلك أن جهنم تحتك وقد أُرعب قلبك من هول منظرها، وملأت أذنيك زفيرها، فهل تستطيع المرور أو النهوض أو الزحف؛ فإنه إذا اضطرب بك الصراط؛ والتهب السعير من تحتك التهاباً ولم تجد إلى النجاة سبيلاً؛ ولا إلى الخلاص مقيلاً؛ فلا ينفعك في تلك الحال إلا سعي صالح مشكور، أو توبة نصوحاً من ذنب مغفور، فتخير الآن أي الأعمال أنجى لك؟ وأي الطرق معينة لك على سعيك لما ينفعك؟ وقد روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن وهب بن منبه قال: وجدت في زبور داود عليه السلام: يا داود هل تدري من أسرع الناس ممراً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري.

الباب التاسع والعشرون
في ذكر سعة رحمة الله ومن مات على التوحيد

قال الله تعالى: ﴿ورحمتي وَسِعَت كلَّ شيء﴾[1] وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «يجيءُ يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى» وقد تقدم في حديث أبي هريرة «لكل أحد منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار لاستحقاقه ذلك بكفره» كما ورد في الصحيح «هذا فَكاكُكَ من النار» وهذه بشارة عظيمة للمسلمين أجمعين. حتى قال الشافعي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم. وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد مرفوعاً. إلى أن قال فيه: «فيقال أخرجوا من عَرَفْتُم» ـ يعني من النار فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقاً كثيراً، وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه. فيقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً. إلى أن قال: ثم يقال: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث، فاقرأوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها﴾[2] الآية. فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل. قال: فيخرجون كاللؤلؤ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٠.

في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله؟ الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم. فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط لأحد من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا. فيقولون: ربنا وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

وفي حديث أنس بن مالك، ذكر فيه الشفاعة، مرة بعد مرة، وأنه ﷺ قال: «في الآخرة فأقول رب، أي رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلاَّ الله، فيقول الله: وعزتي وجلالي، وعظمتي وكبريائي لأُخْرِجَنّ منها من قال لا إله إلا الله» وفي رواية مسلم «ليس ذلك لك أو إليك» الحديث.

فصل

وقد أخبر تعالى: أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه كتب على نفسه الرحمة وقال: سبقت رحمتي غضبي، وغلبت رحمتي غضبي، فالجنة دار رحمته، والنار دار غضبه، فثبت أن الجنة ينشيء لها خلقاً في الآخرة، ويدخلها أيضاً من دخل النار أولاً، ويدخلها الأولاد بعمل الآباء، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيراً قط، وثبت أن النار لا يعذب أحد فيها بغير ذنب، فرحمته واسعة. حتى أن جماعة من المفسرين ذكروا قصة فرعون. قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أدس الطين في في فرعون مخافة أن يقول فرعون كلمة يرحمه الله بها؛ فهذا جبريل من أعظم رسل الملائكة قد علم سعة رحمة الله ففعل ذلك مخافة إدراك الرحمة له، مع أنه قال: أنا ربكم الأعلى.

فصل

ومما ينبغي أن يعلم، أن مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والخلف أن من مات مُوحِّداً أُدخِل الجنة قطعاً على كل حال، فإن كان سالماً من المعاصي كالصغير، والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة نصوحاً صحيحة

من الشرك، أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته ومن نشأ في عبادة الله ولم يقارف معصية أصلاً، كل هؤلاء يدخلون الجنة ولا يدخلون النار، لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود. والصحيح إن شاء الله تعالى على ما ذكره جماعة من العلماء، أن المراد بالورود المرور على الصراط وهو منصوب على ظهر جهنم؛ أجارنا الله من حرّها وبردها.

وأما من مات من أهل المعاصي أو له معصية كبيرة ولم يتب منها، فهو داخل تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه بمقدار ذنبه أو القدر الذي يريده ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه مطلقاً، فلا يخلد أحد في النار مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصي ما عمل، وهذا من أحسن ما يتسلى به من مات له قريب أو صاحب من أهل المعاصي، ومات وما يعلم هل تاب من المعاصي أم لا؟ قال أبو زكريا النواوي رحمه الله: وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به على هذه القاعدة وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي بذلك. انتهى كلامه.

ويؤيد ذلك بما ثبت في الصحيح من حديث عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة». قال القاضي عياض: اختلف الناس فيمن عصى الله تعالى من أهل الشهادتين؛ فقالت المرجئة: لا تضره المعصية مع الإيمان؛ وقالت الخوارج تضره ويكفر بها. وقالت المعتزلة: يخلد في النار إذا كانت كبيرة. ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر لكنه فاسق. وقالت جماعة من العلماء بل هو مؤمن وإن لم يغفر له، وإن عذب فلا بدّ من إخراجه من النار، وإدخاله الجنة. قال: وهذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة، وأما المرجئة فإن احتجت بظاهره قلنا: نحمله على أنه غفر له وأخرج من النار بالشفاعة؛ ثم أدخل الجنة؛ ويكون معنى قوله عليه السلام: «دخل الجنة أي دخلها بعد مجازاته بالعذاب. وهذا لا بد من تأويله لما جاء في ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة. انتهى كلامه.

ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيح أن أبا الأسود الديلمي حدثه أبا ذر

قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو نائم على قميص أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه، فقال: «ما من عبد. قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» ثلاث مرات. ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذرّ» قال: فخرج أبو ذرّ وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر. وفيه ردّ على الخوارج، وعلى المعتزلة بتخليد أهل الكبائر في النار.

وفي رواية للبخاري أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: «وإن زنى وإن سرق قال: وإن زنى وإن سرق» وهو من حديث أبي ذر. وفي الصحيح من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار» وفي لفظ «من لقي الله لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» وفي رواية «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» وفي لفظ «من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله دخل الجنة» وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» وعنه أيضاً مرفوعا «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة» وفي رواية «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا حرّمه الله على النار» وزاد في صحيح البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت «على ما كان من عمل».

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أنس أن نبيّ الله ﷺ ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل، قال: يا معاذ، قال: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال يا معاذ قال: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال يا معاذ قال: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرّمه الله على النار» قال: أولا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «إذاً يتكلوا» فأخبر بها عند موته تأثما ـ يعني مخافة الإثم ـ وفي لفظ مسلم من حديث

عبادة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك؟ فذكره قال: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجّل كلّ نبيّ دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً» رواه مسلم. وفي لفظ له «حرم الله على النار من قال لا إله إلا الله».

وقد ورد في ذلك عدّة أحاديث، وغالب هذه الأحاديث سردها مسلم في صحيحه في باب واحد، في باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت. لكن قال سعيد بن المسيب عند سماعه هذه الأحاديث: إن هذا قبل نزول الفرائض والأمر والنهي. وهذا القول عن سعيد بن المسيب رحمه الله ليس بشيء. وقال بعض العلماء: هو خطأ، لأن راوي أحد هذه الألفاظ أبو هريرة وهو متأخر الإسلام، أسلم عام خيبر سنة سبع بالاتفاق، وكانت أحكام الشريعة مستقرّة، كالصلاة والزكاة والصيام ونحوها، فعلم ضعف هذا القول، والله تعالى أعلم. وقال بعض العلماء: هي مجملة تحتاج إلى شرح، ومعناه: من قال الكلمة وأدّى حقها وفريضتها. وهذا قول الحسن البصري. وقيل: إن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك، وهذا قول البخاري. وقد تقدم في أول الباب حملها على ظاهرها، وأن مذهب السلف والخلف من الفقهاء وأهل الحديث على أن من مات موحداً دخل الجنة، وإن كان من أهل المعاصي، وأنه داخل تحت المشيئة. والله تعالى أعلم.

وعن أبي جعفر قال: لما حضر أبا زرعة الموتُ، وعنده أبو حاتم، ومحمد بن مسلم والمنذر بن شاذان وجماعة من العلماء، هابوا أن يلقنوه الشهادة، فقال بعضهم

لبعض: تعالوا نذكر الحديث، فقال محمد بن مسلم: حدثنا الضحاك عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح، ولم يجاوز، وقال أبو حاتم: حدثنا بندار عن أبي عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح، ولم يجاوز، والباقون سكوت، فقال أبو زرعة: ثنا بندار عن أبي عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن أبي غريب عن كثير بن قرة الحضرمي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» ثم توفي من ساعته رحمة الله عليه.

وعن عبيد بن عياش قال: لما ماتت النوار امرأة الفرزدق، شهدها الحسن البصري، فلما سوّى عليها التراب: وثب الفرزدق لينصرف، فقال للحسن: يا أبا سعيد، أما تسمع ما يقول الناس؟ قال: ومايقول الناس؟ قال: يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس، يعنونك ويعنونني، فقال الحسن: ما أنا بخيرهم، وما أنت بشرّهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال يا أبا سعيد، شهادة أن لا إله إلا الله، فبكى الحسن، ثم التزم الفرزدق فقال: لقد كنت من أبغض الناس إليّ، وإنك اليوم من أحب الناس إليّ.

الباب الثلاثون
في فضل الزهد في الدنيا والتسلية عنها والرغبة في الآخرة

قال الله تعالى: ﴿قلْ متاعٌ قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتقى ولا تُظلمون فتيلا﴾ [1] فالاستمتاع بالدنيا قليل، ومتعتك بها قليل من قليل، وثواب الآخرة خير وافضل لمن اتقى المعاصي واقبل على الطاعات.

ومما ينبغي أن يعلم: أن هذا الباب من أنفع الأبواب لمن تدبره، فإن الدنيا دار قلعة وزوال، ومنزل نقلة وارتحال، ومحل نائبة وامتحان، ومتاعُ غرورٍ وافتتان، فلا يأس على ما فات منها، ولا يفرح على ما وجد منها، ولا يجزع على ولد أو نفس تموت، ولا يحزن على أمر يفوت.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. رواه البخاري. قال جماعة من العلماء في تفسير هذا الحديث: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنا، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تعتزّ بها، فإنها غرّارة خدّاعة، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه؛ ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وبالله فاستعن.

وعن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: «ازهد في الدنيا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» رواه ابن ماجه وغيره بإسناد جيد. ولوائح الصحة ظاهرة عليه.

وعنه أيضاً رفعه إلى النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربه ماء» رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنّ الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما» رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

وروى الترمذي أيضاً عن كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وروى الترمذي وحسنه وصححه عن عثمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، بيتٌ يسكنه، وثوبٌ يواري عورته، وجلف الخبز والماء ـ قال ابن فارس في مجمله: وعاء الشيء جلفه ـ قال الترمذي: سمعت أبا داود يقول: سمعت النضر بن شميل يقول: الجلفة الخبز ليس معه إدام. وقال غيره: هو غليظ الخبز: وقال الهروي: والمراد به هنا وعاء الخبز، كالجوالق والخرج ونحوه، والله أعلم.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن الشخير قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ (١) قال: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلى ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت؟».

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إنما مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها».

وفي صحيح مسلم عنه أيضاً أن رسول ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة

(١) سورة التكاثر، الآية: ١.

وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».

وفي مسلم أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيتَ خيرا قط؟ هل مرّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يااابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

وفي مسلم أيضاً من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق والناس كنفتيه فمرّ بجدي أسكّ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، فقال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا! ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «تحبون أنه لكم» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً إنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم». قوله كنفتيه أي من جانبيه. والأسك الصغير الأذن.

وعن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت قال: أراه رفعه إلى النبي ﷺ قال: «يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان منها لله عز وجل وألقوا سائرها في النار» رواه ابن أبي الدنيا.

وروي أيضاً عن عبادة بن العوام عن هشام أو عوف عن الحسن مرسلاً أن النبي ﷺ قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

واعلم أنه من حب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه فآثِروا ما يبقى على ما يفنى.

وعن الحسن مرسلاً أن النبي ﷺ قال له يا رسول الله مَن خيرُنا؟ قال: «أزهدكم في الدنيا وأرغبكم في الآخرة» وقال رسول الله ﷺ: «من زهد في الدنيا أسكن الله الحكمة قلبه وأطلق بها لسانه وبصّره عيوب الدنيا داءَها ودواءَها وأخرجه منها سالماً مسلماً إلى دار السلام» رواه ابن أبي الدنيا.

فصل

ومن العجب كل العجب أن العبد يصدّق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور فمن أحبه الله حماه عن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه عن الماء. وقد ورد في الحديث مرفوعاً: «إن الله لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها».

وروى ابن أبي الدنيا في ذمّ الدنيا قال مالك بن دينار: قالوا لعليّ رضي الله عنه: يا أبا الحسن صف لنا الدنيا؟ قال: أطيل أم أقصِر؟ قالوا بل أقْصِر، قال: حلالها حساب، وحرامها النار. وعنه أيضاً قالوا: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا؟ قال: وما أصف لكم من دار من صح فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار.

وروي عن يونس بن عبيد قال: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه.

وقال الحسن بن علي: الدنيا ظل زائل.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة؛ لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعيد يقول: والله لكفى به ذنباً: أن الله عز وجل يزهد في الدنيا ونحن نرغب فيها، فزاهدكم راغب، ومجتهدكم مقصر، وعالمكم جاهل.

فصل

واعلم أن شرور الدنيا كأحلام نوم، أو كظل زائل، وإن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرَّت يوماً أو أياماً ساءت أشهراً أو أعواماً، وإن متَّعت

قليلاً مَنَعت طويلاً، وما حصل للعبد فيها سرور إلا خبأت له أضعاف ذلك شروراً.

قال ابن مسعود: لكل فرحة ترحة، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً.

قال ابن سيرين: ما من ضحك إلا يكون بعده بكاء. وقالت هند بنت النعمان: لقد رأيتنا ونحن من أعزّ الناس وأشدّهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أذل الناس، وأنه حق على الله عز وجل أن لا يملأ داراً حبرة، إلا ملأها عبرة. وسألها رجل أن تحدّثه عن أمرها فقالت: أصبحنا ذات صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا، وبكت أختها حرقة بنت النعمان يوماً وهي في عزها فقيل لها: ما يبكيك؟ فذكر أنها قالت: رأيت كثرة أهلي وسرورهم، وقلما امتلأت دارٌ سروراً إلا امتلأت حزناً. قال إسحاق بن طلحة: دخلت عليها يوماً فقلت لها: كيف رأيت عبرات الملوك؟ فقالت: ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس، إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرُنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصَّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تَقَلَّبُ تارات بنا أو تَصَرَّفُ

وفي الحديث مرفوعاً: «ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها» رواه ابن أبي الدنيا.

وروى أيضاً قال عيسى عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها؟ يأمنها وتغرّه؟ ويثق بها وتخذله، ويل للمغترين كيف أزَفَهُم ما يكرهون، وفارقهمْ ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون، ويل لمن الدنيا همته، والخطايا عمله؛ كيف يفتضح غداً بذنبه.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن وهب بن منبه قال عيسى عليه السلام: بحق أقول لكم، كما ينظر المريض إلى طيب الطعام ولا يلتذ من شدّة الوجع، كذلك

صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن، تصعبت وتغير خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترق بذكر الموت ودأب العبادة، تقسو وتغلظ.

فصل

وثبت في الصحيح مرفوعاً: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

قال أهل اللغة: القوت ما يسدّ الرمق، وفيه دلالة على فضيلة التقليل من الدنيا والاقتصار على القوت منها، والدعاء بذلك، والله أعلم، فإن الدخول في الدنيا، والميل إليها، على خطر عظيم، كما تقدّم في الصحيح مرفوعاً «إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا» قال العلماء: فيه التحذير من الاغترار بالدنيا، والنظر إليها، والمفاخرة بها. فالدنيا وإن أقبلت على الشخص من وجه حِلّ، يخاف عليه الفتنة، والأشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة، فإن وفق لإعطاء المسكين واليتيم وابن السبيل وصرفه في وجوه البرّ كان من الفائزين، وإلا كان من الهالكين

وقد ثبت في صحيح مسلم عن المستورد بن شداد النهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بما ترجع إليه.

وقال معاوية: سمعت على هذا المنبر رسول الله ﷺ يقول: «إنما بقي من الدنيا بلاءٌ وفتنة، وإنما مثل عمل أحدكم فمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.

وقال الحسن البصري: والذي نفسي بيده، لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه.

ثم علامة الشقاء قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على

الدنيا. وقال الفضيل بن عياض: علامة السعادة اليقين في القلب، والورع في الدين، والزهد في الدنيا، والحياء والعلم.

وقال الفضيل أيضاً: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليّ حلالاً لا أحاسب بها في الآخرة؛ لكنت أتجنبها كما يتجنب أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

وقال أبو هاشم الزاهد: خلق الله الداء والدواء؛ فالداء الدنيا؛ والدواء تركها.

فصل منه

حضر بعض الرؤساء صلاة الجمعة وبه مرض لا يحتمل معه تطويل الخطبة؛ فصعد الخطيب المنبر. فقال: الحمد لله رب العالمين؛ وصلوته على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ أما بعد: فإن الدنيا دارُ ممرّ؛ والآخرة دار مقر؛ فخذوا لمقركم من ممرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم؛ واخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. فما أبلغ هذه الخطبة وأفصحها، وأوجزها؛ فعمر الدنيا والله قصير، وأغنى غَنيّ فيها فقير، وكأني بك في عرصة الموت وقد استنشقت ريح الغربة قبل الرحيل، ورأيت أثر اليتم في الولد قبل الفراق، فتيقظ إذن من رقدة الغفلة، وانتبه من السكرة، واقلع حب الدنيا من قلبك، فإن العبد إذا أغمض عينه وتولى؛ تمنى الإقالة فقيل كلا.

قال أبو عمران الجوني: مر سليمان بن داود عليهما السلام في موكبه، والطير تظله، والجن والإنس عن يمينه وشماله، قال فمر عابد من عبّاد بني إسرائيل فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً!! قال: فسمع سليمان كلمته فقال: تسبيحة في صحيفة مؤمن خيرٌ مما أُعطِيَ ابنُ داود، ما أُعطِيَ ابنُ داود يذهب، والتسبيحة تبقى.

فصل

من بذل وسعه في التفكر التام، علم أن هذه الدار رِحلة، فجمع للسفر رَحْله، ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات، ثم إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ثم إلى الحشر، ثم إلى دار الإقامة الأبدية، فدار الإقامة هي دار السلام من جميع الآفات، وهي دار الخلود، والعدوّ سبانا إلى دار الدنيا، فنجتهد في فكاك أسرنا، ثم في حث السير إلى الوصول إلى دارنا الأولى، وفي مثل هذا قيل:

فحيّ على جناتِ عَدْن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيَّم
ولكننا سبيُ العدو فهل ترى نعودُ إلى أوطاننا ونُسلَّم

وليعلم أن مقدار السير في الدنيا يسيرٌ يُقطع بالأنفاس، ويسير بالإنسان سير السفينة لا يحسّ بسيرها وهو جالس فيها، كما قيل:

إنما هذه الحياة متاع فالغويّ الشقيّ من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها

ولا بدّ له في سفره من زاد، ولا زاد إلى الآخرة إلا التقوى، فلا بد من تعب الشخص والتصبّر على مرارة التقوى، لئلا يقول وقت السير: ارجعون، فيقال: كلا. فليتنبه الغافل من كسل مسيره، فإن الله تعالى يريه في قطع مسافة سفره آيات يرسلها تخويفاً لعباده، لئلا يميلوا عن طريقهم المستقيم، ونهجهم القويم؛ فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة، فرأى ما يخاف منه، فليرغب إلى الله بالرجوع إليه عما ارتكبه من السُّبُل[1] فيتوب من معصيته، ويبكي من قسوته؛ فإذا انتبه من رقدة كسله، علم أن الدنيا دار غرور طبعت على كدر. كما روى ابن أبي الدنيا قال: أنشدني الحسن بن السكن:

حياتك بالهمّ مقرونةٌ فما تقطع العيش إلا بهمّ

---

(١) لعل معناه: الطرق الملتوية، كما قال تعالى (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله).

لـذاذات دنيـاك مسمـومـة فما تـأكـل الشهـد إلا بسُـمّ
إذا تم أمـرٌ بـدا نقصُـه تـوقـع زوالا إذا قيـل تَـمّ

(وكما قيل في المعنى)

حكـم المنيـة في البريـة جـاري مـا هـذه الدنيـا بـدار قـرارِ
بينـا يُـرى الإنسـان فيهـا مخبراً حتى يـرى خبراً مـن الأخبـار
طبعت على كدر وأنـت تـريـدهـا صفـواً مـن الأقـذاء والأكـدار

قال بعض السلف: احذروا دار الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنها يفرّقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرق بين العبد وربه.

وذكر ابن أبي الدنيا هذا الأثر مرفوعاً، قال جعفر بن سليمان: سمعت مالكاً يقول: إتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء ـ يعني الدنيا ـ وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده إلى الحسن البصري أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإنّ الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحته، يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرّارة، الحيالة الخدّاعة، التي زينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشرفت لخطابها؛ فأصبحت كالعروس المجلية فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر على الأول مزدجر، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبر عنها مدّكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد، فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور، أشخصه إلى مكروه، قد وصل

الرخاء منها بالبلاء؛ وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن، لا يرجع منها ما ولّى فأدبر، ولا يدري ما هو آتٍ فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة؛ وصَفْوُها كدِر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر، ولقد عرِضَتْ على نبيك محمد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها، فأبى أن يقبلها، كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً. جاءت الرواية أنه تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغني مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

تم والحمد لله.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٣
الباب الأول: في المصيبة وحقيقتها وما أعدّ الله لمسترجعها	٩
الباب الثاني: في البكاء على المصيبة وأقوال العلماء في ذلك	٣٧
الباب الثالث: في تحريم الندب والنياحة وشق الثياب	٤٧
الباب الرابع: فيمن أصيب بفقد ثلاثة من الولد فأكثر والبشارة له بذلك.	٦٢
الباب الخامس: فيمن أصيب بفقد ولدين والأحاديث الواردة فيه ..	٧٢
الباب السادس: فيمن أصيب بفقد ولد واحد	٧٥
الباب السابع: في ذكر السقط وثوابه وزيارة القبور	٩١
الباب الثامن: في تطييب خاطر الوالدين على الأولاد	٩٧
الباب التاسع: في أن الطفل الرضيع إذا مات يكمل رضاعه في الجنة .	١٠٢
الباب العاشر: في أنه يصلى على كل مولود مسلم ويدعى لوالديه ...	١٠٤
الباب الحادي عشر: في استحباب اصطناع الطعام لأهل المصيبة.	١٠٩
الباب الثاني عشر: في الذبح عند القبور وكراهة صنع الطعام من أهل المصيبة.	١١١
الباب الثالث عشر: في الثناء الحسن على الميت وذكر محاسنه والسكوت عن مساويه	١١٣
الباب الرابع عشر: في فرح العبد وتسليه بكونه من أمة محمد ﷺ	١١٧
الباب الخامس عشر: في استحباب التعزية لأهل المصيبة والدعاء لميتهم	١١٩

الموضوع	الصفحة
الباب السادس عشر : في وجوب الصبر على المصيبة وما جاء في ذلك في القرآن والسنة .	١٣٢
الباب السابع عشر : فيما ورد في الصبر على المصيبة من البشارات. ..	١٣٥
الباب الثامن عشر : في عدم استغناء الناس عن الصبر في كل الأحوال	١٤٣
الباب التاسع عشر : في أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس	١٤٨
الباب العشرون: في الرضاء بالمصيبة	١٥٢
الباب الحادي والعشرون: فيما يقدح في الصبر والرضاء وينافيها ...	١٦٢
الباب الثاني والعشرون: هل المصائب مكفرات أو مثيبات؟	١٧١
الباب الثالث والعشرون: في الصدقة عن المصاب به وأفعال البر عنه	١٧٧
الباب الرابع والعشرون: في ذكر عمارة القبور	١٨٩
الباب الخامس والعشرون: في أن الله يثبت الذين آمنوا عند السؤال في القبر	١٩٦
الباب السادس والعشرون: في اجتماع الأرواح وهيئتها وأين محلها	٢١٠
الباب السابع والعشرون: في عد الشهداء وفضلهم وأنهم أرفع درجات من الصالحين	٢٢٥
الباب الثامن والعشرون: في ذكر الصراط ودرجات الناس في المرور عليه	٢٣٢
الباب التاسع والعشرون: في ذكر سعة رحمة الله ومن مات على التوحيد	٢٣٤
الباب الثلاثون: في فضل الزهد في الدنيا الخ	٢٤٠
فهرس الكتاب	٢٥١

تسلية أهل المصائب